شهد مطلع القرن العشرين عدداً من التغيرات السياسية والاجتماعية الهائلة. فقد ترمى صدى الثورة صدى الثورة الروسية موجة من حركات التحرر الوطني شملت العالم بأسره وأسفرت عن سقوط الإمبراطورية العثمانية؛ وقد انعكست هذه الأحداث على مصر التي كانت ولاية عثمانية أُخضعت للحماية البريطانية عام ١٩١٤، وحيث اندلعت ثورة ١٩١٩ التي هزت أعماق المجتمع المصري. كان الملك أحمد فؤاد على رأس البلاد آنذاك. كان يقضى صيفه بالمنزله على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في قصر تحيط به أشجار الأرز ذات العبير النفاذ. أما الشتاء فكان يقضيه في قصر القبة ذي الأسوار الحجرية العالية أو في قصر عابدين المحاط بالأسوار الحديدية على مقربة من الثكنات العسكرية البريطانية. كان يقوم على حراسته رجال فارعو القوام تلف أجسادهم سترات حمراء. كما كان الملك يخرج للنزهة في مركبة حمراء تجرها الجياد أو في سيارة حمراء اللون أيضاً من طراز "رولزرويس". أما حين كان يقصد المسجد لأداء صلاة الجمعة كانوا يفرشون له البُسُط الحمراء. فقد كان اللون الأحمر هو اللون المفضل للعائلة المالكة بمصر. بيد أن هذا اللون صار يرهب أحمد فؤاد منذ خرجت الجماهير إلى شوارع القاهرة والإسكندرية إبان ثورة ١٩١٩ رافعة الرايات الحمراء.

كان المجتمع المصري أشبه بتورته تزين مائدة الملك في الأعياد.. قشدة وردية اللون تعلو طبقة رقيقة من المهلبية التي تدنوها طبقة من البسكويت المغطى بالحلوى الزرقاء. ولئن كان الملك وحاشيته

من الأثرياء ومعالي الباشوات والبكوات بترابيشهم الحمراء يشكلون الطبقة العليا للمجتمع المصري فإن الفلاحين المصريين بجلاليتهم الزرقاء كانوا يعتبرون أساس ذلك المجتمع كما كانت ثمة طبقة رقيقة من الموظفين الذين يفضلون ارتداء الزي الأوروبي تفصل ما بين القمة والقاع.

كان الباشوات والبكوات في عموميتهم ينحدرون من سلالة الغُزاة أما باقي المصريين فكانوا من أبناء الفلاحين كما كان الأجانب والفرنسيون خاصة يشغلون كل المناصب في كافة أجهزة الدولة قبل الحرب العالمية الأولى ولم يستطع المصريون تقلد هذه المناصب إلا منذ سنوات الحرب وقد أخذت البورجوازية الوطنية المصرية توطد مواقعها آنذاك؛ فقامت بتشكيل لجنة صناعية حربية غدت فيما بعد أساساً لقيام بنك مصر. وهكذا انطلقت مصر تخطو أولى خطواتها على طريق النمو الرأسمالي.

وعلى نحو ملموس انعكس كل ما كان يدور بالبلاد على أسرة جمال عبدالناصر.

كان أبو جمال عبدالناصر ينحدر من أسرة فلاحية إلا أنه استطاع تلقى العلم؛ الأمر الذي أتاح له فرصة الانخراط بين طبقة الموظفين التي صارت تتشكل في مصر. أما أمه فكانت ابنة لأحد تجار الفحم المنحدرين كذلك عن أسرة فلاحية.

كان أجداد جمال لأبيه من المتميزين في وسطهم وكانت عملية اغتصاب أراضي الفلاحين تجرى في صعيد مصر بوتيرة سريعة مما جعل بعضهم ينزح إلى المدينة. أما من بقى منهم بالقرية. فقد أرغمته ظروف الحياة العصبية ولا سيما الضرائب الباهظة على البحث عن سبل أخرى للعيش. ولقد استطاع هؤلاء الناس الإحساس بروح العصر فراحوا يُلحِقون أبناءهم بالمدارس؛ وكانت هذه

الطريقة هي الوحيدة لتجنب حياة الفاقة. وبشكل أو بآخر استطاعت بعض العائلات في قرية "بنى مر" وبالجهود الذاتية افتتاح "كُتّاب" عام ١٨٩٠. وكان خليل سلطان الجد الأكبر لجمال أحد المُبَادِرِينَ بافتتاح هذا "الكُتّاب". أما ابنه الحاج حسين. فقد سار إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث قرر إتاحة الفرصة أمام ابنه عبدالناصر كي يتلقى تعليماً حقيقياً.

وحين بلغ الصبى الخامسة عشر من العمر سافر به الحاج حسين إلى أسيوط حيث ألحقه بإحدى المدارس المسيحية. فلم يكن المبشرون المسيحيون الذين كانوا يسعون نحو الحظوة والنفوذ بين السكان المحليين قادرين على رفض طلب الحاج حسين الذى يحترمه كل من بالقرية على الرغم من إسلامه.

لم يكن من السهل على الفلاح المصري الفقير إعالة ستة أبناء إلا أن عبدالناصر استطاع تحمل أعباء حياة هي أقرب إلى العوز بعيداً عن ذويه والانتهاه من دراسته بالمدرسة لكن آمال الحاج حسين كانت عوضاً عن ذلك. فقد تحققت تماماً. فقد عُيّن عبدالناصر في وظيفة حكومية موظفاً بهيئة البريد بمرتب شهري قدره ثمانية جنيهات مصرية. ظل الحاج حسين يعمل طيلة حياته بالقرية وراء المحراث في جلابيته الزرقاء فيما صار ابنه عبدالناصر يرقل في حُلته الوظيفية الرمادية.

وبالإسكندرية حيث جرى تعيين عبدالناصر كان يعيش الكثيرون من أهل الصعيد وكان هؤلاء قوماً معروفين بكدهم وأمانتهم وأخلاقهم الحميدة. وكقاعدة عامة كان الصعيدي ينزح إلى المدينة هرباً من الفقر وكان أمثال أولئك الذين تعودوا فلاحاً الأرض منذ الصغر ينخرطون في حياة المدينة تدريجياً؛ ولذا سرعان ما اقتصر أعمالهم على أداء وظيفة الخدم. كان كل منهم مستعداً

على الدوام لتقديم العون إلى الآخر وثمة عادات وطيدة بدأت تترسخ فيما بينهم. فقد كانوا يتجمعون بعد ظهر كل يوم في أحد المقاهي حيث ينالون قسطاً من الراحة ويتبادلون الأخبار وقد ظلت هذه العادة حتى يومنا هذا.

صار سكان القاهرة والإسكندرية يطلقون الدعابات على هؤلاء "الصعايدة" الذين راحوا ينتشرون بكل أنحاء البلاد ورغبة منهم في التأكيد على علو همتهم. فقد كانوا يقولون أن هؤلاء الصعايدة المنتشرين في كل مكان لا يصددهم إلا البحر. بيد أنهم ورغماً عن كدهم ونشاطهم كانوا في ذات الوقت ومن وجهة نظر أبناء المدينة بسطاء سُذّج؛ وثمة دعابة يتداولها الناس حول الصعيدي الذي باعه قاهريّ ماكر الترام الذي تملكه الدولة. سلك عبدالناصر بعد أن شغل وظيفته كوكيل لمكتب بريد محطة سيدى بشر في الإسكندرية نفس نمط الحياة التي يعيشها أبناء ناحيته وظل كما في السابق على علاقة وطيدة بهم. وفي عام ١٩١٧ تزوج فهيمة ابنة محمد حماد الذى استطاع بعد وصوله من الصعيد وفي فترة وجيزة للغاية بلوغ مكانة طيبة بين الآخرين وتكوين ثروة لا بأس بها.

وفي ١٥ يناير ١٩١٨ رُزقت أسرة عبدالناصر بصبي أسمته جمال وسرعان ما بعث عبدالناصر برسالة إلى أبناء بنى مر ينبئهم فيها بولادة ابنه. وقد قام كاتب القرية بتسجيل جمال في سجل مواليد بنى مر تلك القرية الواقعة على مسافة أربعة كيلومترات من أسيوط المدينة ذات التاريخ العريق. ولا يرجع ذلك الدور التاريخي للمدينة إلى أنها كانت في القدم ملتقى الطرق النهرية والقوافل لمصر العليا ومصر السفلى وحسب بل ولأن الفرعون إخناتون أسس منذ حوالى أربعة آلاف سنة في نفس الموقع الذى تقوم عليه أسيوط اليوم عاصمة أختياتون موحداً بذلك بين المصريين السفلى والعليا وقد

دخلت أسيوط تاريخ البلاد منذ ذلك الحين بوصفها رمزاً لوحدة القطرين.

ولم يكن كاتب القرية قد تجاوز الحقيقة كثيراً؛ حيث أن جمال كان يستطيع أن يسمى بنى مر مهبط رأسه وله كل الحق في ذلك؛ ففيها ولد أبوه وفيها عاش جده حتى آخر أيامه كما وورى الثرى أجداده بمدافن تلك القرية.

وحين بلغ جمال الثالثة من العمر صدر أمر بنقل أبيه عبدالناصر للعمل بأسيوط. وهنا استطاع الحاج حسين وأشقاؤه رؤية أول ابناء عبدالناصر لأول مرة. كان الصغير جمال يزور بنى مر كثيراً حيث يلعب بالقرب من النخلة وارفة الظلال التي زرعا جده ويجرى مع أطفالها في تلك الساحة التي كان يعمل بها الحاج حسين. وبدأ جمال التردد على المدرسة الابتدائية في أسيوط حين بلغ الرابعة من العمر وهناك تعلم الأبجدية العربية بالصف التحضيري.

وفي عام ١٩٢٣ انتقل أبو جمال للعمل في قرية الخطاطبة الصغيرة وقد تحولت هذه القرية الآن إلى مدينة غير كبيرة بعد تعمير أراضي مديرية التحرير أما في العشرينات. فقد كانت قرية نائية تقع على أطراف الصحراء بالقرب من دلتا النيل وكان المدرسة الموجودة بالقرية التي شُيدت لأبناء موظفي سكة حديد الخطاطبة عبارة عن "كُتّاب" لتحفيظ القرآن.

وبعد عام انتقل للإقامة بالقاهرة خليل عم جمال الذي تلقى تعليمه بمساعدة أخيه عبدالناصر وهنا جاء دور خليل لرد الدين إلى شقيقه الأكبر. وذات مساء من أمسيات سبتمبر الحارة عام ١٩٢٥ كان شقيق عبدالناصر يذرع رصيف محطة القاهرة انتظاراً لوصول القطار.

لقد كان ينتظر وصول ابن أخيه وكأنما ينتظر ابنه. كان خليل قد قضى أفضل سنوات عمره في السجون نظراً لاشتراكه في ثورة ١٩١٩ مما حال دون زواجه ولم يكن لديه أطفال؛ إن استثنينا ابن رفيقه الذى استشهد إبان الثورة عند المتاريس وها هو جمال ينبغي أن يعيش في كنف عمه برفقة محمود ابنه بالتبني.

كان جمال الذى لم يكن قد بلغ الثامنة من العمر بعد يستقل وحده القطار من الخطاطبة حتى القاهرة.

التحق جمال بعد يومين من وصوله بمدرسة "النحاسين" الكائنة بالشارع الذى تحمل المدرسة اسمه وكان يعمل بهذا الحى الصُّنَّاع المهرة الذين ينتجون الروائع الكثيرة من الذهب والفضة والنحاس ويعيش الخياطون والمبيضون والحدادون وحيث كانت واجهات محلات الصاغة الصغيرة تتلأأ في تلك الحواري الضيقة المتربة ويستعرض الحواه من مروضي الأفاعي وبالعي المسامير مختلف أنواع فنونهم وسحرهم كما كان الدراويش يرقصون أمام مسجد الحسين قريباً من ذلك المكان أيام الأعياد الشعبية.

كان جمال يظل حر التصرف في أموره طيلة ساعات النهار التي يغيب فيها عمه بعمله؛ كان يتجول برفقة محمود يذرعان سوية شوارع المدينة يتناولان غذاءهما بمطعم صغير يتتصتان السمع إلى أحاديث الكبار طويلاً.

وذات مرة شاهد الصَّبيان سيارة عسكرية إنجليزية تظهر من وراء ناصية الشارع منطلقة بأقصى سرعتها تنهب الطريق الذى يعج بالناس والحركة. جفل الناس مذعورين إلى جانبي الطريق وحين مرقت السيارة إلى جوارهما وقع نظرهما على طفلة صغيرة استقرت بعرض الشارع غارقة في دمائها. اندفع الصَّبيان يهرولان

عائدين إلى البيت يقصان على عمهما خليل ما حدث. أصغى إليهما في صمت ثم ذكر متأملاً:

__ سوف يظل الأمر هكذا وريثما يظهر بيننا الرجل الذي يطرد الإنجليز ويفرض النظام.

وفي تلك الأمسية تحدث العم خليل مع الصبيين عن والد محمود وقص عليهما كيف شاركا سويةً في المظاهرات والتي أصابته فيها إحدى رصاصات الإنجليز.

اتقدت عيون الصبيين وحين خلدا إلى النوم صارا يتخيلان نفسيهما من فرسان صلاح الدين الأيوبي الذين سوف يلجون بوابات القاهرة بعد تحقيق النصر. سوف يُدخلان البهجة إلى قلوب الشعب؛ فلن يعود هناك إنجليز بالبلاد كما سوف تعم الفرحة مدرسهم بالمدرسة الذي يمنحهما الدرجات النهائية.

كانت النظم المعمول بها في المدرسة التي يتلقى الصبيان العلم بها غاية في الصرامة. فقد كان المدرسون يضربون الأطفال بينما كان التلاميذ ينزلقون إلى شجارات تضطربهم في بعض الأحيان إلى اللجوء إلى الشرطة بغية فضها؛ أما جمال. فقد كان صبيّاً منطويّاً على نفسه قليل الاختلاط بالآخرين. لعله كان يشعر بوطأة حاله أكثر من غيره نظراً لكونه غريباً عنهم؛ وللأسف لم يترك لنا أي من الذين عرفوا جمال آنذاك أية معلومات عن تلك الفترة.

ويصور بعض كتاب السير بالغرب جمال وكأنما كان طفلاً ثقیلاً الظل سوداوي المزاج مؤكدين بذلك موقفهم المعادي لزعيم حركة التحرر الوطني العربية؛ وعلى سبيل المثال يحاول هؤلاء تفسير الإصلاحات التقدمية التي أجراها جمال بالبلاد وكأنما هي إجراءات انتقامية جزاء طفولته العصبية؛ ويتجلى عدم موضوعية

مثل هذه الأحكام بشكل لا يرقى إليه الشك؛ ولذا نعود مرة أخرى إلى القاهرة القديمة حيث يمكننا مشاهدة جمال عبدالناصر وحياته اليومية في حوارها الضيقة.

هنا وعى جمال لأول مرة حياة المدينة الكبيرة؛ فإلى جانب الدراسة بالمدرسة كان جمال يتلقى دروساً في اللغة العربية والحساب على يدى صديق أبيه القديم محمد جماع.

كثيراً ما كان الكبار يفاجئون جمال حين يجلس وحيداً مستغرقاً في التفكير وكان يحدث أن ينسى موعد الغذاء وكذلك مواعيد إعداد الدروس كما كان في بعض الأحيان يطرح على الكبار أسئلة تضعهم في أخرج المواقف.

فقد سأل أباه ذات مرة:

__ إننا لا نرعى الغنم بينما نأكل لحومها؛ فلماذا إذن يأكل الرعاة الفول؟

لم يستطع عبدالناصر أن يقول شيئاً سوى أن هز كتفيه قائلاً: "هكذا خُلق العالم".. غير أن مثل هذه الإجابة لم تكن ترضى فضول الصبى ذي الأعوام الثمانية ليواصل ملاحقة أبيه بأسئلته ولم يكن الأب ينهر ابنه. فقد كان من عادة "الصعايدة" أن يعاملوا الأطفال معاملة الكبار.

كان الصبى يسافر بحكم لعادة إلى أسرته بالخطاطبة في الأعياد والعطلات الرسمية وكان يحب كل الحب أمه التي كانت تكتب إليه باستمرار لمعرفة بانطوائه على نفسه كما كان جمال يحاول دوماً إرضاء أمه؛ وفجأة انقطعت عن الكتابة إليه اعتباراً من أبريل ١٩٢٦. لكنه تلقى بعد ذلك خطاباً من أبيه ينبئه فيه أن أمه كانت مشغولة بأعمال المنزل وأن شقيقين صغيرين له اسمهما عز العرب

والليثي قد ظهرا إلى الوجود. كما كتب أبوه يقول إنها سافرت إلى الإسكندرية لزيارة ذويها.. وحين وصل جمال إلى الخطاطبة في العطلة الصيفية علم أن أمه توفيت بالإسكندرية حيث كانت قد سافرت للعلاج بعد مرض عضال أصابها بعد الولادة.

وقد ذكر جمال فيما بعد أن موت أمه كان ضربة قاصمة تركت عليه بصماتها التي لا تُمحي.

طلب جمال من أبيه السماح له بالسفر إلى والدي أمه بالإسكندرية. فقد كان يعي أنها كانت تسعد على الدوام بالإقامة عندهما.

وافق عبدالناصر بكل سرور فلعل الرحلة تخفف عن ابنه. كان بيت الجد بالإسكندرية من تلك البيوت المشيدة على نحو تنطبق عليها صفة "الراقية". فقد كان يتسم بالنظافة ويسوده النظام الذي يتكفل به فريق من الخدم. انطلق الجد بنفسه على متن عربته الخاصة لاستقبال حفيده بالمحطة وقد كان جمال معجباً بالإقامة في هذا البيت واللعب مع بنات أخواله وخالاته حين وصل منذ عام برفقة أمه إلى الإسكندرية. إلا أن الصبى شعر بالملل الشديد في هذه المرة. فقد كان يشعر بنفسه حراً بالقاهرة أما هنا. فقد كانت جدته تقتفي أثره أينما ذهب وحين كان يريد الطعام يرغمونه على تناول ما هو فوق طاقته وحين يود النزهة كانت جدته تتطلق معه إلى وسط المدينة تجلسه إلى إحدى الموائد بمقهى يبعث على الملل وحين كان يطرح أسئلته لا يجد من يجيبه عليها. كان يهوى التردد على الميناء لمشاهدة عملية تفريغ السفن بينما كانت بنات أخواله وخالاته اللاتي يرفلن في ملابسهن البيضاء المطرزة بالدنتلا يعتبرن المكان زحاماً وقذارة.

حاول والدا أمه الإبقاء على جمال بينهما بل وكتبا إلى أبيه يقولان: إن المدرسة بالإسكندرية ليست أسوأ من مثيلتها بالقاهرة، إلا أن

جمال كان قد رغب في العودة إلى الخطاطبة بل ويكون من الأفضل إن عاد إلى القاهرة حيث كان ينتظره عمه خليل الذي سوف يوجه إليه الكثير من الأسئلة التي تراكمت لديه.

وقبيل بدء العام الدراسي عاد إلى أبيه بالخطاطبة. غير أن الأمر الذي لا يرقى إليه الشك هو أن طفولة جمال انتهت عند هذا الحد.

كانت السلطات المصرية تسعى كثيراً وبقدر الإمكان نحو نقل موظفي أجهزة الدولة إلى مناطق أخرى وتغيير محال إقامتهم كيلا يوطدون صلاتهم مع من حولهم. وقد اضطر عبدالناصر إلى إتباع هذا النمط من الحياة رغماً عن أنه كان مجرد موظف يريد بسيطاً.

انتقل عبدالناصر من الخطاطبة إلى السويس. كان قد تزوج للمرة الثانية في ذلك الحين مما دعا جمال إلى الابتعاد بعض الشيء عن أسرته. ظل يواصل الإقامة والدراسة بالقاهرة. سرعان ما ظهر له شقيق جديد يدعى شوقي تبعه سبعة آخرون من الأبناء. لم يكن جمال يزور أسرته سوى أثناء العطلة الصيفية. غير أن أباه أصبح أكثر انطواءً حتى أنه اشترى لنفسه بندقية صيد ليقضى كل وقت فراغه في ممارسة هواية الصيد. كان الأهل ينتظرون عودته بفروغ صبر ولم يكن هناك سوى جمال الغارق في مشاغله الشخصية لا يلحظ شيئاً.

كانت زوجة أبيه تلومه على عدم اهتمامه بوالده. وهكذا بدأ جو الأسرة يتسم بالتوتر.

كان جمال يحس بأن اللوم الموجه له لا يستند إلى شيء من العدل. فقد كان يحب أباه وكتب فيما بعد يقول إن عبدالناصر كان رب أسرة لا تشوبه شائبة. سرعان ما رحل العم خليل عن القاهرة ولم تكن هناك بالسويس المدرسة التي يمكن أن يتلقى فيها جمال تعليمه

مما جعل والده يلحقه بمدرسة داخلية في حلوان. غير أن جمال لم يعيش كثيراً بحلوان حيث صدر الأمر بنقل أبيه إلى الإسكندرية مرة أخرى. وهنا صار جمال يعيش بين نويه والتحق بمدرسة رأس التين الثانوية الكائنة على مقربة من قصر الملك.

وذات مرة حين كان جمال يتنزه على شاطئ البحر شاهد حشداً من الناس يتخذون طريقهم نحو ميدان محمد على. قرر جمال معرفة ما يجري هناك لينخرط في خضم الحشد السائر. وهناك وجد شخصاً يلقي خطاباً من شرفة "البورصة" وحينما تمعن جمال في ذلك الشاب عرف فيه أحد طلاب مدرسته. لم يستطع تبين ما يقول. غير أنه أدرك أن المظاهرة تحمل طابع معاداة الإنجليز.

ثمة هرج ومرج ساد المكان فجأة وتعالق صفارات رجال البوليس إلى سمع جمال ليجد في ذات اللحظة من يمسك بمرفقه ويقوده إلى العربة "البوكس" التي هرعت إلى مكان الحادث.

شرع جمال بعد أن أفاق من صدمة المفاجأة يتمعن في أوجه المعتقلين الآخرين الذين كانوا غالبيتهم من الشباب الأكبر منه بعض الشيء.

سأل جمال الجالس إلى جواره:

__ من الذى نظم هذه المظاهرة؟

تطلع جاره إليه في دهشة. تألقت عينا جمال تعكسان سمة الإخلاص. قيل له أن منظمة المظاهرة من أعضاء حزب "مصر الفتاه". لم يكن جمال يعرف آنذاك عن ماهية ذلك الحزب شيئاً.

وفي ذلك اليوم لم يجد الأب ابنه جمال عند تناول طعام الغداء وكذلك عند اعشاء وذلك أمر يحدث لأول مرة. فقد كان جمال دوماً

ينبه ذويه حين يعتزم التأخر عن ميعاد عودته سواء لدى أصدقائه أو بالمدرسة. ولذا قلق عبدالناصر أشد القلق. طاف يسأل عنه الجيران والمعارف ليشرع بعد ذلك في الاتصال بأقسام البوليس حيث لم يستطع كذلك معرفة أي شيء. ولم يدرك عبدالناصر ما حدث سوى صباح الغد حين طالع اسم ابنه بقوائم المعتقلين مما أحزنه كثيراً فلم يكن يُعَلِّم ابنه من أجل أن يهوى السياسة منذ الصغر وكان يكفيه ما حدث لشقيقه خليل. هذا ما دار بخاطر عبدالناصر حين اتخذ طريقه إلى قسم البوليس.

كانت السجون المصرية مكتظة بالنزلاء. قام مأمور القسم بتأنيب عبدالناصر معلناً إياه بضرورة أن يحسن تربية ابنه وليصدر أمره فيما بعد بالإفراج عن جمال فلم يكن على استعداد لتضييع وقته مع صبي صغير.

لم يكن الطابع "الصعيدي" يسمح له بتوبيخ ابنه جمال في حضرة غرباء ولم يفعل سوى أن رماه بنظرة مفعمة بالغضب. أما حين انفرد به. فقد كان الحديث غاية في القسوة. ولم يكن قرار الأب قابلاً للمناقشة.. ينبغي على جمال الانقطاع عن المدرسة حيث ظهر لديه فيها أصدقاء "مشكوك في أمرهم". أما مواصلة الدراسة فلن تكون سوى بالقاهرة.

لم يبحث جمال عن ذرائع يبرر بها موقفه كما لم يحتج على ذلك نظراً لأنه كان يدرك حماقة الموقف الذي وقع فيه؛ فماذا كان يعرفه عن حزب "مصر الفتاه" هذا الذي دفع بالناس إلى تلك المظاهرة؟

ومادام القرار يقضى بسفره إلى القاهرة فليسافر. غير أن الأب عدل عن قراره بإرسال جمال إلى القاهرة. فقد قرر ضرورة متابعة تصرفات وخطوات ابنه في سنى المراهقة. جرى تحويل جمال إلى

مدرسة "الفريديّة" حيث لم يستمر للحقيقة طويلاً نظراً لنقل أبيه للعمل بالقاهرة.

اضطر جمال إلى تغيير مقر دراسته مرة أخرى. فقد جرت ترقية عبدالناصر ليشغل وظيفة رئيس مكتب بريد الموسيقى؛ والموسكي حي كبير يغص بالأسواق ومتاجر الحرفيين. استأجر الأب شقة من أربع غرف. فقد زاد مرتبه إلى اثني عشر جنيهاً إلا أن إيجار المسكن ابتلع الجزء الأكبر منه حيث لم يبق سوى القليل الذي يكفي إطعام الأسرة التي غدا عددها كبيراً.

صار جمال يتردد على مدرسة النهضة التي ظل بها حتى الثامنة عشر من عمره وفي تلك الفترة من حياته بدأ يهوى السياسة على نحو يتسم بالجدية.

كانت مادة التاريخ أحب المواد الدراسية إلى نفس جمال؛ وقد نَمَى مدرس التاريخ هذا الولع. راح جمال يطالع الكتاب تلو الآخر عن سيرة حياة نابليون والإسكندر المقدوني ويوليوس قيصر وغاندي وروسو وفولتير؛ وقد قرأ جمال بشغف رواية "البؤساء" لفكتور هوجو و"قصة مديننتين" لديكينز؛ كما كتب مقالة بعنوان "فولتير رجل الحرية" نشرها بمجلة المدرسة التي كان أحد محرريها؛ وقد أفصح في هذه المقالة عن إعجابه الشديد بفولتير.

اهتم الشاب بإنتاج الأدباء العرب بالدرجة الأولى رغماً عن أن البرنامج المدرسي كان يستند أساساً إلى دراسة الأدب الأوروبي. كان جمال معجباً بأشعار أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وبمسرحيات وروايات توفيق الحكيم الذي ظل كاتبه المفضل طيلة حياته؛ وقد أثرت كثيراً في نفس جمال رواية "عودة الروح" لتوفيق الحكيم والتي ترجمت إلى الروسية.

اعتاد جمال أن يمسك أثناء المطالعة بقلم رصاص يخط به تحت الجُمْل التي توحى إليه بأفكار ما؛ فعلى سبيل المثال قام أثناء مطالعته لرواية "عودة الروح" بالتأشير على تلك الفقرة التي تتحدث عن ضرورة ظهور زعيم للمصريين يستطيع توحيد صفوفهم ودفعهم نحو النضال في سبيل الحرية والبعث الوطني.

استهوت جمال فكرة ظهور زعيم شعبي والتي تحدث عنها فيما بعد حين ذكر في كتابه "فلسفة الثورة": "لا أعرف ما الذي جعلني أفكر على الدوام في أن بلدنا تبحث عن بطل يستطيع تأدية دوره".

تناولت رواية الكاتب المصري حياة أحد البيوت القاهرية الذي زاره يوماً طبيب أدركته الدهشة حين شاهد خمسة أسيرة منتصبية في حجرة واحدة ليتساءل:

__ ما هذا؟ ثكنة عسكرية؟

كان الطبيب يود معرفة السبب الذي جعل هؤلاء الناس يعيشون في مثل ذلك الزحام وكانت الإجابة:

__ نحن سعداء هكذا.

كانت الجملة تتسم بالبساطة والإخلاص.. أضاءت السعادة الوجوه الشاحبة نتيجة كونهم يمرضون سوية ويخضعون لنظام واحد سوية ويتناولون نفس الدواء أيضاً سوية؛ الأمر الذي كان يعنى وحدة مصائرهم. وقد كان سكان تلك الحجرة الأشبه بالثكنة العسكرية يسمون أنفسهم بالشعب.

كان يقطن الحجرة بطل الرواية التلميذ محسن. كان بطبعه ومصيره كثير الشبه بجمال إبان صباه. كان ينبغي أن يستهوي جمال بطل روايته محسن نظراً لتشبعه الشديد بالأفكار الوطنية.

لقد شعر الشاب في إنتاج توفيق الحكيم بإيمان الكاتب الشديد بالشعب المصري القادر على إتيان معجزة تفوق معجزة بناء الأهرامات.

كانت مشاعر معاداة الإنجليز قد أخذت في التنامي آنذاك؛ وفي يونيو ١٩٣٤ شهدت القاهرة معركة حقيقية نشبت بين العمال والبوليس؛ وأضربت البلاد بأسرها رداً على إجراءات القمع التي شنها رجال البوليس. وهنا قام حزب الوفد بعقد مؤتمره القومي الذي طالب فيه بالإصلاحات الديمقراطية ورفض الإنجليز الموافقة على ذلك مما كان مدعاة للسخط العام الذي ساد كافة أرجاء القطر. جرى اختيار جمال ضمن وفد الطلبة الذي توجه إلى بيوت الزعماء بهدف إقناعهم بالاتحاد من أجل مصر.

وفي نوفمبر ١٩٣٥ عمت البلاد الإضرابات والمظاهرات المعادية للإنجليز.

كان الوقت خريفاً، هطلت الأمطار وسادته البرودة على غير العادة وكانت مياه نهر النيل تنساب صفراء ثقيلة إبان فترة الفيضان؛ وذات يوم تجمع تلاميذ ومدرسو مدرسة "النهضة" في فنائها، قام جمال بإلقاء خطاب ناري مثير للعواطف يدعو فيه إلى التظاهر، حاول المدرسون في بادئ الأمر إدخال التلاميذ إلى الفصول إلى أن المشاعر التي دفعت جمال إلى إلقاء خطابه كانت أقرب إلى ما تجيش به نفوس الجميع وسرعان ما قام المدرسون أنفسهم بتأييد التلاميذ ليخرج الحشد الهائل إلى شوارع القاهرة.

اقترح جمال الاتجاه نحو جامعة القاهرة للانضمام إلى طلبتها المعتصمين بها وكان يعلم أن مندوبيه الذين أرسلهم إلى المدارس الأخرى يقودون مظاهراتها إلى ذات الاتجاه إلى أن قوات البوليس

لم تكن غافلة عن ذلك. فقد قامت بفتح الكوبرى المفضي إلى الجامعة بحجة تمرير المراكب ذات الأشرعة العالية وهنا ظهر من يقترح عبور نهر النيل بالزوارق الصغيرة.

حاول رجال البوليس الحيلولة دون عبور المتظاهرين مما جعلهم هدفاً للأحجار التي شرع التلاميذ في قذفهم بها وهنا هرعت القوات الإنجليزية لنجدة رجال البوليس.

وصاح عبدالناصر:

_ ينبغي الإفلات من الحصار، مكان التجمع عند "بيت الأمة".

كان كافة سكان القاهرة يعرفون ذلك البيت الذي أقام به فترة من الزمن سعد زغول رجل الثورة الشهير، كانوا يسمونه "بيت الأمة"؛ ولقد ارتبطت باسم ذلك الرجل أكبر الحركات السياسية الجماهيرية من أجل استقلال مصر.

توفي سعد زغول في عام ١٩٢٧ وكان الوفد قد تغلغل إلى أعماق المجتمع المصري وتزايد نفوذه مما جعل الملك والإنجليز مضطرين عام ١٩٢٨ إلى الموافقة على تشكيل حكومة وفدية برئاسة النحاس باشا زعيم الحزب بعد سعد زغول، لكن هذه الحكومة سرعان ما سقطت نظراً لما قامت به من إصلاحات تتعارض ورغبات المندوب السامي البريطاني. غير أن المفاوضات لم تستمر طويلاً. فقد قام الملك فؤاد بتعيين المليونير إسماعيل صدقي باشا -الرجل ذي القبضة الحديدية- رئيساً للوزراء؛ وقد قام إسماعيل صدقي بالتصدي في حسم وتعسف لكافة مظاهر حرية الفكر.

لبثت الجماهير محتشدة أمام بيت الأمة الذي كان يقطنه سعد زغول فيما سبق تنتظر ما سوف يعلنه النحاس باشا.

نسي جمال أنه لم يتناول إفطاره بعد بينما كانت كافة الشوارع المحيطة بالمكان تغص بالجماهير؛ وقد جرى نصب سرادق كبير بالميدان المواجه للبيت حيث جلست أرملة سعد زغلول وكبار قيادات حزب الوفد.

ظهر الجنود الإنجليز في اللحظة التي بدأ فيها النحاس باشا يلقي خطابه. تعالى الصياح والصفير وشرع الحاضرون يتسلحون بأعمدة السرادق لمواجهة الإنجليز.

تراجع الجنود الإنجليز. بدأوا في إطلاق نيران أسلحتهم على الجمع المحتشد. ساد الهرج والمرج وتساقط الجرحى والقتلى.

أصيب جمال في رأسه وسالت الدماء تغطي عينيه. هرع أصدقاؤه إليه يرافقونه إلى مدخل أحد المنازل بعيداً عن الأعين.

صار الدوار يلعب برأس جمال ليشعر وكأنما يفقد وعيه. اضطر رغباً عن كل اعتراضاته إلى زيارة المستشفى وهكذا وجد اسمه من جديد مكاناً في قائمة المتظاهرين.

قامت الحكومة بإغلاق المدارس لمدة شهر واضطر الملك في نهاية المطاف إلى التنازل عن بعض مواقفه ليحتفل المصريون بانتصارهم وجاء الوفد ثانياً إلى السلطة؛ وفي عام ١٩٣٦ أبرمت حكومة النحاس باشا المعاهدة المصرية الإنجليزية التي كانت تعنى رسمياً إنهاء الاحتلال العسكري البريطاني لمصر. غير أن المعاهدة كانت تكفل بقاء القواعد العسكرية الإنجليزية مما يعنى أن الاستقلال الذي حصلت عليه مصر كان صورياً وسرعان ما أدرك المصريون ذلك عملياً حيث لم يتغير شئ بالبلاد تقريباً.

كانت معاهدة ٣٦ تقضى بأن يخضع الجيش المصري لقيادة مصرية إلا أن المشرفين على تدريباته ظلوا كما كانوا في السابق

من الإنجليز؛ وقد جرى الاعتراف صراحةً في تقرير البعثة العسكرية البريطانية أن الجيش المصري الذي استغرقت فترة تدريب الإنجليز له خمسين عاماً على حال يُرثى لها إذ كانت كتائبه الإحدى عشرة للمشاة سيئة التسليح وكانت تنقص المدفعية الذخيرة وقطع الغيار إلى جانب النقص في الدبابات والمدافع المضادة للطائرات وكانت أطقم الطائرات الأربع والثلاثين التي تشكل سلاح الجو المصري على غير دراية بإدارة المعارك الجوية وكان الفلاحون المصريون يعتبرون التجنيد الإجباري شيئاً أشبه بالكارثة بينما كان الضباط المنحدرون من عائلات الأعيان ينظرون إلى الخدمة بالجيش كوسيلة تكفل لهم تبوأ مكانة راقية بالمجتمع.

هكذا كانت الأوضاع التي سادت البلاد عام ١٩٣٦ حين جرى اعتقال جمال قبيل انتهائه من دراسته الثانوية ببضعة أشهر بذل والد عبدالناصر كثير الجهد للإفراج عنه والسماح له بحضور امتحانات التخرج.

تخرج جمال من المدرسة الثانوية. لم يحيره طويلاً أمر اختيار طريق حياته فيما بعد. فقد كان يحلم بأن يصبح ضابطاً وسرعان ما مثل جمال أمام لجنة القبول بمدرسة الحربية.

__ اسمك ؟

__ جمال عبدالناصر.

صمت الضابط الجالس أمامه بعض الوقت ليسأله فيما يميل فوق المائدة المغطاة بالخوج الأحمر:

__ عمل أبيك ؟

__ موظف بالبريد.

تلفت الجالسون إلى الموائد ينظر كل منهم نحو الآخر:

__ موظف كبير ؟

جمدت قسما ت وجه جمال ليجيب:

__ لا . موظف بسيط .

__ محل الميلاد ؟

__ قرية بنى مُر ؛ مديرية أسيو ط .

__ هل هذا يعنى أنك من الفلاحين ؟

كان الضابط الذى يتولى استجواب جمال غاية فى الرصانة إلى أن أعين الآخرين كانت تعكس فضولهم الشديد .

أجاب جمال بنبرة تتسم بالهدوء:

__ نعم .

__ هل هناك ضباط ينتمون إلى أسرتكم ؟

__ لا .

__ ولم قررت اختيار طريق الخدمة العسكرية ؟

__ كي أبذل حياتي فداءً للوطن .

__ هل تملكون شيئاً ؟

__ لا .

وعادت الإجابة بالنفي تحير الحاضرين .

__ هل لديك توصية من أحد ما ؟

_ لا.

_ هل شاركت في مظاهرات الطلبة ؟

وكان هذا هو آخر وأهم سؤال قام بتوجيهه رئيس لجنة القبول.

_ نعم.

صار رئيس اللجنة ينقر المائدة بأصابعه قائلاً:

_ هكذا الأمر.. يمكنك الانصراف.

عبثاً راح جمال في اليوم التالي يبحث عن اسمه في قائمة المقبولين بمدرسة الحربية، ثمة أمل كان يراوده فيما سبق، أما الآن فقد كان يؤرقه السؤال.. "ماذا بعد ؟". فقد تخرج من المدرسة وها هي أبواب مدرسة الحربية موصدة أمامه، صار أقاربه يضغطون عليه للالتحاق بمدرسة البوليس. فقد كانوا معجبون بزي ضابط البوليس وبالوضع المتميز لضباط البوليس الذين كانوا يعملون تحت رئاسة الجنرال الإنجليزي راسل.

تذكر جمال اصطدامات الطلبة بالبوليس والتي كان قد شارك فيها بنفسه منذ مدة غير بعيدة، كما كان وجهه ما يزال يحمل أثر الجرح الذي خلفته رصاصات الإنجليز ولم يكن هناك بالأسرة سوى الحاج حسين الذى أيد حفيده في موقفه. غير أن ماضي جمال وليس دعم جده هو الذى أنقذه من برائن سترة البوليس السوداء. فقد كانت الشكوك تحوم حوله بسبب ذلك الماضي.

وقد كان جمال يدرك أن ذلك الماضي هو الذى حال دون قبوله بمدرسة الحربية. غير أنه كان يعتقد كذلك أن أصله الفلاحي يعد عقبة يمكن أن تحول دون ذلك حتى ولو لم تشبه شائبة من وجهة نظر البوليس فلم يكن يستطيع الانخراط بين صفوف الضباط سوى

أبناء كبار الملاك؛ وهكذا اضطر إلى البحث عن طريق آخر على الرغم من كافة أحلامه التي راودته حول ذلك المضمار.

لم يكن يستطيع الحصول على حق إصدار الصحف والمجلات وتشكيل المنظمات الاجتماعية والأحزاب في البلدان العربية غير المحامين ولعل جمال الذى شارك في نضال الشباب الثوري كان يدرك ذلك حين تقدم للالتحاق بمدرسة الحقوق بجامعة القاهرة. بدأ جمال دراسة القانون باهتمام بالغ وانغمس في قراءاته إلا أنه ظل يحلم بسلك العسكرية؛ وفجأة وبعد مضي حوالى نصف العام الدراسي علم نبأ الإعلان عن قبول دفعة إضافية تقدر بأربعة وأربعين طالباً بمدرسة الحربية.

قرر جمال التصرف في هذه المرة على نحو آخر. فقد اعتزم البحث عن توصية تدعمه وتوجهه إلى عمه خليل ليسعياً سوية نحو لقاء مع اللواء إبراهيم خيرى باشا نائب سكرتير عام وزارة الحربية، وقد كان جمال يمقت نظام "الوساطة" إلا أنه اضطر إلى إتباع المثل القائل: "اغضض من بصرك إذا دخلت بيت العميان".

استقبل اللواء إبراهيم خيرى باشا جمال في منزله؛ شرح الشاب وبكل صراحة كيفية عدم اجتيازه لامتحان القبول بمدرسة الحربية.

كان خيرى باشا معروفاً باهتمامه بتربية الكوادر الوطنية بين ضباط الجيش، أصغى باهتمام إلى حديث الشاب ليقتنع بوجاهة إصراره ومدى جديته ووعدته بالدعم.

في الثلاثينات ولأول مرة في تاريخ مصر شهدت مدرسة الحربية بين طلابها أبناء الفئات الوسطى بالمجتمع وقد التحق بالمدرسة آنذاك عدا جمال آخرون من أمثال عبدالحكيم عامر وأنور السادات وحسين الشافعي وخالد محيى الدين وابن عمه زكريا محيى الدين

وغيرهم من الذين قادوا فيما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ولقد كانوا جميعاً عنصراً جديداً في الجيش المصري يتسم بالحيوية والوطنية؛ على استعداد لتكريس حياتهم للنضال من أجل استقلال مصر.

وفي ١٧ مارس ١٩٣٧ جرى قبول جمال طالباً بمدرسة الحربية ليصبح هدفه منذ تلك اللحظة جلياً واضحاً. لقد أجمع أمره على أن يتخرج ضابطاً على درجة عالية من الكفاءة وسرعان ما أدركت قيادة المدرسة قدراته التنظيمية التي قدرتها خير تقدير وفي عام ١٩٣٨ تقرر إشراكه في مراقبة قبول الطلاب الجدد وقد كان واحداً منهم عبدالحكيم عامر الذي سرعان ما أصبح أقرب أصدقاء جمال.

راح أصدقاء جمال ينادونه "جيمي"، أما عبدالحكيم عامر. فقد صاروا ينادونه "روبسون" نظراً لجأده الفائق وحبه الجارف للمغامرات. اجتاز "جيمي" الامتحانات بتفوق مما كان مدعاة لمنحه رتبة "جاويش". وقد كانت مدة الدراسة بمدرسة الحربية ثلاث سنوات. غير أن حاجة الجيش الماسة إلى ضباط جعلتهم يقصرون الدراسة على برنامج مختصر؛ وها هو جمال بعد ستة عشر شهراً يؤدي امتحانات التخرج التي نجح فيها بتقدير مرتفع.

كان جمال يقضى بالمكتبة غالبية وقته أثناء دراسته بمدرسة الحربية وقد سجلت بطاقة الاستعارة الخاصة به أسماء العديد من الكتب باللغة الإنجليزية التي حظيت بالكثير من اهتمامه. كانت هذه الكتب تتناول التاريخ العسكري والسياسة وسير حياة نابليون وبسمارك وكمال أتاتورك. غير أن جمال كان يهتم أشد الاهتمام بالقضايا الاقتصادية للشرق الأوسط.

وفي صيف ١٩٣٨ وصل بنى مر خطاب أرسله جمال إلى جده وأقاربه ينبئهم فيه بأنه سوف يعيش ويعمل بعد تخرجه من مدرسة الحربية في منقباد الواقعة على مسافة قريبة منهم.

وها هو الملازم جمال عبدالناصر يرحل إلى موقع عمله الجديد وبالقطار راحت تتوارد إلى مخيلته حين كان يطل بناظريه عبر نافذته سنوات طفولته وبنى مر وبيت جده، راح يتذكر نفسه معتلياً ظهر الحمار حاملاً أرغفة العيش تحت إبطه يودع أصدقاءه من أطفال القرية متوجهاً إلى أسيوط حيث كان يعيش أبوه. لقد كان يرى آنذاك نفس ما يراه اليوم؛ نفس الحقول ونفس الفلاحين في جلايبهم الزرقاء.

غدا الكثيرون من زملاء جمال إبان الخدمة في منقباد أصدقاء له وانضموا فيما بعد إلى تنظيم "الضباط الأحرار".

كان جمال على يقين من أن الجيش المصري سوف يهب في نهاية الأمر للنضال في سبيل حرية وكرامة الوطن التي استُبيحت وقد كان إيمانه بذلك نابعاً من معرفته بالتاريخ المصري ولناخذ على سبيل المثال القائد العسكري الفذ محمد على الذي حقق في النصف الأول من القرن الماضي العديد من الانتصارات الباهرة على الجيش التركي والتي لم يوقفها سوى الجهود الموحدة لكبريات البلدان الأوروبية إنقاذاً لتركيا من الهزيمة الفادحة.

التقي جمال مراراً ببعض أولئك الذين شاركوا في انتفاضة عرابي باشا أول من نادى بضرورة أن يعمل الجيش لصالح الشعب.

استمع إلى ما ذكروه حول خروج عرابي باشا على رأس قواته في التاسع من سبتمبر عام ١٨٨١ إلى الميدان المواجه لقصر عابدين.

خرج الخديوي توفيق إلى شرفة القصر ترتعد فرائصه يدعمه القنصل البريطاني العام:

__ ما الذي جاء بكم إلى هنا ؟

لبث عرابي باشا ممتطياً سهوة حصانه فيما أجابه:

__ لقد جننا إلى هنا لنعرض عليكم مطالب الشعب والجيش العادلة.

ارتسمت أمارات الدهشة على وجه الخديوي ليسأله:

__ وما هي هذه المطالب؟

__ إننا نطالب بتغيير الحكومة وتشكيل مجلس نيابي.

بذل القنصل البريطاني جهده كي يتماسك الخديوي الذي راح
يصيح في هستيرية:

__ إنكم عبيدنا؛ ورثكم عن آبائي وأجدادي.

وهنا أجابه عرابي:

__ لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً ولا عقاراً ولن نكون عبيداً
بعد اليوم.

لقد كان جمال يحلم بذلك الوقت الذي يستطيع فيه مع رفاقه التصدي
للطغاة استكمالاً لطريق النضال الذي بدأه عرابي باشا.

كان جمال يتردد في بعض الأحيان مع زملائه على بنى مر وهناك
كان الحاج حسين الذي تقدم به العمر يفخر بحفيده الضابط ويبذل
جهده حتى لا يحط من قدره في حضرة الضيوف وعلى الدوام كان
هؤلاء يجدون في بيته أطيب المأكولات التي يتحدثون عنها بعد
ذلك بالمعسكر.

__ إن أصدقاءه من أسمى العائلات؛ إنهم ضباط هذا ما كان يدور
بخاطر الحاج حسين حين يقطع من ميزانية الأسرة غير الكبيرة ما
يمكن أن يبتاع به ديكاً رومياً.

وذات مساء من أمسيات يناير ١٩٣٨ انطلق جمال برفقة بعض زملائه في جولة قصيرة بالصحراء وعند سفح جبل الشريف استقروا حيث راحوا يشوون أبا فروة ويتبادلون الأحاديث والنكات وفجأة نهض جمال ليعلن بنبرته المعهودة التي تتسم بالهدوء:

__ هيا أيها الأصدقاء نتفق على أن نقوم بشيئ ذي معنى؛ فيكن هذا اليوم إيداناً بميلاد مشاعر الأخوة الصادقة فيما بيننا.

كان جمال على يقين من إدراج اسمه في "القائمة السوداء" نظراً لأفكاره المحبة للحرية التي كان يعلنها صراحة في أحاديثه مع ضباط وحدته. وقد كان ذلك يعنى على أقل تقدير تأخير ترقيته. طلب جمال بغية تضليل الرئاسة نقله إلى السودان التي كانت تتبع إدارياً آنذاك الحكم المصري البريطاني وانضم عبدالحكيم عامر إليه في طلب النقل.

وسرعان ما وصل الصديقان إلى الخرطوم وهناك وبمقر القيادة العسكرية التي وصلا إليها كانت في استقبالهما مجموعة من الضباط في حالة أقرب إلى الثمالة.

اتضح أن قائد الوحدة لا يهوى السكر وحده مما جعله يصدر أوامره إلى بقية ضباطه بمشاركته الشراب.

قام هؤلاء بدعوة الملازمين الشابين إلى الاحتفال معهم "بعيد ميلاد" القائد الذي كان يحتفل به كل أسبوع.

أثار منظر الضباط ونظراتهم الزائغة الاشمئزاز في نفس جمال الذي استطاع كبح جماح نفسه بالكاد ليعتذر بلهجة تتسم بالتأدب وإن كانت تعكس إصراره الراسخ على عدم استطاعته مشاركتهم جلستهم. وهنا جرى إغلاق باب الغرفة على الفور ليتقدم القائد إلى

جمال يحدج النظر إليه من أخص قدميه وحتى قمة رأسه يناوله الكأس التي ينبغي بناء على أمره أن يحتسيها.

لبث جمال واقفاً يعلو الشحوب وجهه ممسكاً بالكأس يرمق القائد الذى راح يفرغ في جوفه الكؤوس الواحدة تلو الأخرى. تلفت جمال فيما حوله ثم ربت مرفق عبدالحكيم عامر مشيراً إلى النافذة وفجأة فقر الصديقان عبرها ليروحا بعد بضع دقائق يذرعان الشارع يتخذان طريقهما نحو السينما فيما يضحكان في مرح. غير أن القائد اعتبر تلك الدعابة إهانة شخصية ولذا. فقد استدعى جمال فيما بعد حين سافر عامر في إحدى المأموريات ليعلنه بنقله إلى حامية بعيدة.

كانت الحياة في الخرطوم وبطبيعة الحال تتسم ببعض المزايا. فقد أتاحت لعبدالناصر متابعة ما يجرى بالقاهرة وإن كان ذلك في غير انتظام إلا أن الحياة بعيداً عن الخرطوم كانت لا تطاق.

لم يجد عامر صديقه جمال بالخرطوم حين عاد إليها من مأموريته. غير أن أمر نقله كان في انتظاره كذلك إلى كسلا، وهنا أدرك عبدالحكيم عامر فوراً أن ذلك من تدبير القائد مما جعله يقرر الانضمام إلى جمال مهما كلفه ذلك من جهد. خرج من مكتب القائد ليقصد نديمه رئيس الأركان يعلنه فرحاً بنقله إلى كسلا وفي اليوم التالي صدر أمر آخر بنقله إلى حيث نقل جمال. غير أن الظروف لم تُتِح للصديقين العيش سوية فترة طويلة. فقد اندلعت بأوروبا نيران الحرب العالمية الثانية وكانت إنجلترا شأن ألمانيا تولى مصر مكانة هامة في إطار مخططاتها الاستراتيجية. سرعان ما انتقل لهب الحرب العالمية إلى مصر بعد أوروبا ولذا فقد فرضت القيادة العسكرية البريطانية سيطرتها على كافة إمكانيات مصر الصناعية والبشرية وكذلك على خطوط مواصلاتها. قطعت الحكومة

المصرية علاقاتها بألمانيا ثم بعد ذلك بإيطاليا. بيد أن الملك فاروق الذى خلف أباه فؤاد على عرش مصر كان يتعاطف وحاشيته مع الهنريين رغماً عن كل ذلك.

انقسم الرأي العام بالبلاد. التفت غالبية المصريين من ذوى الميول المعادية للفاشية حول حزب الوفد بينما راح الكثيرون يحلمون بحياد مصر الأمر الذى اتسم بالسذاجة نظراً لأن الجيش الإنجليزي كان يحتل البلاد. غير أن عدداً غير قليل من المصريين كان يتصور إمكانية تحرير مصر من السيطرة الإنجليزية بمعاونة ألمانيا الفاشية أو إيطاليا ولم يكن أمثال هؤلاء يدركون بالقدر الكافي آنذاك جوهر الإيديولوجية البربرية للفاشية. كما كان عملاء ألمانيا بالداخل يؤججون مثل هذه الميول وقد أقاموا العلاقات مع حزب "مصر الفتاة" الذى شرع في شن العمليات التخريبية ضد الإنجليز.

وفي عام ١٩٤٠ قامت القوات الإيطالية بغزو مصر من جهة ليبيا؛ اندفعت الوحدات الآلية؛ الموتوسيكلات في المقدمة ثم الدبابات ثم العربات المحملة بالمشاة ثم المدفعية لتفرض سيطرتها على مصروح-الإسكندرية وهو طريق يمكن منه تطوير الهجوم حتى قناة السويس. ولم يكن الإنجليز يملكون القدرة الكافية على صد مثل هذا الهجوم مما اضطرهم إلى الانسحاب. أصدر القائد البريطاني أمره بزرع الألغام وتفجير الطريق الكبرة وإلقاء كميات كبيرة من الملح في آبار مياه الشرب.

لم ينقذ الإنجليز سوى تردد الجنرال الإيطالي جراتسياني الذى لم يغامر بالاستمرار في الهجوم كما استغل الأسطول البريطاني هذه الفرصة ليقوم بقصف العدو المتمركز في سيدى براني علاوة على تقدم القوات البرية التي أرغمتها على التراجع إلى ما وراء الحدود الليبية.

هرعت القوات الألمانية بقيادة الجنرال رومل لدعم القوات الإيطالية وقد طورت هذه القوات هجومها استناداً إلى تفوقها الهائل في المدرعات.

وفي ذلك الحين نظمت دوائر القصر بالقاهرة مظاهرة تحت شعار "تقدم يا رومل"؛ مما جعل الإنجليز يحاصرون القصر بدباباتهم يطالبون الملك إما بتعيين حكومة حديدية وإما التنازل عن العرش وقد فضل الملك تلبية المطلب الأول.

تولى النحاس باشا مقاليد الحكم مرة أخرى. غير أن تعيينه جاء بناءً على طلب الإنجليز في هذه المرة. فقد أدركوا أن الحكومة القوية التي يدعمها الشعب هي الوحيدة القادرة على إقرار النظام في مثل هذه الظروف الحرجة. قام النحاس بعدد من الإصلاحات وبتخفيض الضرائب التي جرى تحصيلها من الفلاحين واعترف بشرعية الاتحادات النقابية وجعل التعليم في المرحلة الابتدائية بالمجان.

كان جمال عبدالناصر إبان وقوع تلك الأحداث ما يزال موجوداً بعيداً عن القاهرة. اتخذ موقفه إلى جانب المنادين بحياد مصر. غير أنه شأن أي وطني غيور كان مستاء من تعسف الإنجليز الذين كانوا يطيحون بالحكومات ويعينون غيرها حسبما يتفق ومصالحهم. صدر الأمر بنقل عبدالناصر إلى مصر في نفس اليوم الذي قام الإنجليز فيه بتوجيه إنذارهم إلى الملك فاروق.

دخلت الأحداث في منطقة الجبهة طور التعقيد؛ ففي مايو ١٩٤٢ شن رومل من جديد هجوماً أرغم الإنجليز على الانسحاب حتى العلمين، وفي تلك المنطقة حدثت الموقعة الفاصلة التي أسفرت عن تحطيم جيش القائد الألماني.

ما إن عاد عبد الناصر إلى مصر حتى شرع في تشكيل جماعة من ضباط الجيش المعروفين بسخطهم على المحتلين الإنجليز. وذات مرة طلب ضابطان لا يعرفهما اللقاء به. كان من المحتمل أن يحاول البوليس إرسال عملائه. غير أن عبدالناصر لم يكن في ذات الوقت يسمح لنفسه برفض استقبال الضباط من ذات الميول الوطنية.

انطلق عبدالناصر في صباح اليوم التالي إلى العنوان المقصود. صار يمسح ما حواليه بناظريه قبل أن يدلف إلى البيت.. بدا المكان مناسباً. فقد كان مجاوراً لأحد المساجد وفي أحد الأحياء الشعبية الملاصقة لحي الأزهر حيث ينذر ظهور الإنجليز. هذا علاوة على أن صاحب البيت كان معروفاً بإخلاصه الشديد للسلطة.

كان ثمة ما ينتظر عبدالناصر. رافقوه عبر ردهه معتمه تنتهي بسلم يفضى إلى الدور الثاني، وهناك كانت غرفة صغيرة خانقة الهواء جمعت بين جدرانها خمسة أشخاص.

صافح عبدالناصر الضابطين اللذين زاراه بالأمس ثم طلب إغلاق باب الغرفة. قدم نفسه إلى الضباط الثلاثة الآخرين قائلاً:

__ قيل لي أنكم تريدون المشاركة في النضال من أجل حرية الوطن.

أوماً الضباط برؤوسهم علامة الموافقة.

__ هل تدركون أخطار ذلك ؟

حقاً.. كانوا يدركون جسامة المسؤولية. فقد جرى القبض على بعض رفاقهم. مضى عبدالناصر يقول:

__ حسناً، دعونا إذن نعمل سوية.

كان جمال يرى أن تسمية "الضباط الأحرار" مناسبة تماماً للتنظيم الذي قام بتشكيله بين ضباط الجيش. إنها تعكس بما فيه الكفاية ما يستميل الضباط من ذوى الأفكار الوطنية الذين ينتمون إلى كافة الاتجاهات السياسية. كما لم تكن الإيديولوجية بالأمر الذى يهم عبد الناصر آنذاك ، وقد أعلن أن التنظيم يقوم على ثلاثة أسس..

الأساس الأول: الصداقة التي يجب أن تسود بين جميع "الضباط الأحرار" بصورة أكثر من رابطة الدم. أما الأساس الثاني فهو السرية التامة. وعن الأساس الثالث والأخير فهو الحب المتفاني للوطن والشعب.

بحث عبدالناصر بين الضباط في القاهرة عن معارفه القدامى، ذكر لمن كان غير راضٍ عن تعسف المحتلين بالبلاد أنه يمثل تنظيم "الضباط الأحرار" الذى يناضل في سبيل استقلال مصر.

وهكذا صار جمال تدريجياً وخطوة خطوة يستميل الأعضاء الجدد إلى هذا التنظيم.

كان عبدالناصر يدرك أن "الضباط الأحرار" مدعوون إلى العمل فوراً وأعلن عن جمع التبرعات لصالح عائلات الرفاق المعتقلين.

خشى جمال احتمال نقله إلى موقع آخر؛ ذلك الأمر الذى يمكن أن يعوق عمل التنظيم. غير أن الحظ حالفه. فقد جرى تعيينه ودون سابق مقدمات مدرساً بمدرسة الحربية.

شرع جمال فور استلامه مهام وظيفته الجديدة في الاستعداد لأداء امتحانات أركان حرب. وها هو يضطر من جديد إلى قضاء أمسيات بأكملها بقاعة المكتبة. وجرت ترقيته إلى رتبة يوزباشي قبيل انتهاء الحرب.

لم يكن لدى جمال وقت فراغ نظراً لانشغاله بتنظيم "الضباط الأحرار" وبالتدريس وبالاستعداد للامتحانات. لم يكن يسمح لنفسه بالراحة سوى مرة واحدة في الأسبوع يُعَرَّج فيها على عبدالحميد حازم صديقه القديم والوطني الغيور الذي صادقه حين كان يعيش في كنف عمه بالقاهرة والتقى به من جديد حين صار يعمل بمدرسة الحربية. كان حازم يسكن بمنشية البكري، يملك مصنعاً متواضعاً لصناعة السجاد صار يتردد عليه هواة هذا الفن القديم.

مضى الكثير من الأعوام منذ تلك الفترة التي تعرف فيها عبدالناصر على حازم. كان الأخير قد فقد زوجته وتزوجت إحدى بنتيه بينما شبت ابنته الأخرى "تحية" فتاه سمراء العينين فائقة الجمال، تلك التي كان جمال ما يزال يذكرها يوم كانت لاتزال صغيرة. ككانت على قدر كبير من التعليم بالنسبة لفتيات عصرها المصريات. كما كان الوسط الذي تربت فيه تحية يتسم بالترمت بعض الشيء. فلم تكن تحية شأن نساء وسطها تجرؤ على حضور مجلس الرجال ولا تستطيع الظهور أمام الضيوف إلا لماماً؛ ولذا وعلى الرغم من صداقة حازم لجمال. فقد قدمها إليه ثم طلب منها مغادرة الحجرة فوراً.

صار جمال يتردد على حازم من جديد. كان يأتي في بعض الأحيان برفقة عبدالحكيم عامر ليجلس ثلاثتهم يتحاورون كثيراً حول ماضي مصر وحاضرها ومستقبلها. نادى حازم الذي أخذته حمية الحديث ابنته يطلب منها إحضار الشاي. جاءت الابنة بالشاي

تقدمه للضيوف غاضة بصرها ورفع نظره إليها ليقع على عينيها
المفعمتين بالخوف والارتباك.

لبث جمال بضعة أسابيع منقطعاً عن زيارة حازم وما إن عاد فجأة
إلى ذلك البيت الذي استهواه للغاية حتى وجد هناك ضابطاً لا
يعرفه.

دعا حازم جمال إلى الجلوس.

جلس جمال وقد أمت به مشاعر الحزن. مضى حازم وكأنما لم
يلحظ شيئاً ليعود من المطبخ حاملاً الشاي إلى جمال.

تساءل جمال:

__ وأين تحية اليوم؟

__ لقد ذهبت إلى شقيقتها.

أجابه حازم ليواصل مع الضابط حديثه الذي قطعه حضور جمال.
وبعد أسبوع جاء جمال ثانية إلى حازم وكالعادة قدمت تحية الشاي
إليه، كان الحزن واضحاً في عينيها.

قرر جمال الانقطاع عن بيت حازم. غير أن عيني تحية المفعمتين
بالحزن واللتين ظللتا تلاحقانه طوال الوقت الذي بقى فيه وحيداً
كانت تُذكرانه بعيني أمه.

وبعد ثلاثة أسابيع عاد من جديد لزيارة صديقه. ظل جمال يتناول
الشاي الكوب تلو الآخر حتى تجاسر أخيراً على البدء في الحديث
الذي جاء من أجله.

وهنا أجابه حازم على الفور:

_ معذرة؛ لكن تحية لن تكون سعيدة بالحياة مع ضابط. إنها نفسها لن تكون راغبة في ذلك.

كان من النادر في مصر إبان تلك السنين أن يستطيع الشباب حتى الحديث على انفراد قبل الخطوبة. كما لأن الزواج نتيجة الحب كان نادراً أيضاً؛ فعادةً ما كان الوالدان هما اللذان يختاران لابنهما عروسه.

لقد أجاب حازم صديقه القديم بقوله: "إنها نفسها لن تكون راغبة في ذلك" .. لا لشيء إلا تفادياً لإعلانه عن رفضه بشكل مباشر. بيد أن جمال تعلق بهذه الجملة قائلاً:

_ فلتسالها، فليكن الأمر كما تريد هي.. أجابت تحية على سؤال أبيها ودون أن ترفع بصرها إلى الرجلين.. "نعم". صارا بعد الخطوبة قادرين على التواجد سوية. تم الزفاف بعد شهرين. كان الحاكي هو أول هدية يقدمها جمال إلى تحية التي كانت تعشق الموسيقى، راحا يترددان على المتاجر لشراء الأسطوانات التي سمعاها عند المساء.

شعر جمال لأول مرة بعد وفاة أمه بأن له بيتاً. كان ما يكاد يفرغ من عمله حتى يسارع بالعودة إلى زوجته. كانا يستأجران "فيللا" صغيرة في منشية البكري من اربع حجرات. أما تحية فكانت تشعر بالسعادة حين تقوم بنفسها بالتردد على المتاجر وابتياح متطلباتها بنفسها وإعداد أنواع المأكولات المفضلة لجمال.

كان أقارب جمال يزورونه أحياناً كانت طيبة واهتمام تحية بهم تستهويهم جميعاً مما كان يجعلهم يبقون أطول مدة ممكنة في هذا البيت المضياف. أما عن عبدالحكيم عامر فقد تزوج أيضاً.

اشترى جمال سيارة صغيرة "أوستن" سوداء أتاحت لأربعتهم فرصة التنقل إلى خارج المدينة.

اكتشفت تحية بعد ثلاثة أشهر عقب الزفاف أن ثمة أشياء مريبة تحدث بالمنزل لكن سرعان ما شغلتها أمور المعيشة والعناية بجمال ثم تربية الأولاد حين ظهروا إلى الوجود، ففي عام ١٩٤٥ ولدت هدى ثم جاءت منى الابنة الثانية التي أعقبها ميلاد خالد ثم عبدالحميد. أما آخر الأبناء فكان عبدالحكيم الذى ولد عام ١٩٥٥ بعد قيام الثورة.

تزايدت الأعباء مع تزايد أفراد الأسرة لكن تحية لم تشعر بأي ضجر على الإطلاق. فقد كانت تهوى العناية بمنزلها، تحاول توفير الجو الهادئ لزوجها.

وكان ذلك بالذات هو ما يلزم جمال. فقد كان الإرهاق يبلغ به مداه. كان يستقل سيارة "أوستن" يطوف بها ليلاً على أعضاء تنظيم "الضباط الأحرار" وأحياناً حتى مطلع الفجر. تزايدت موجة السخط التي عمت الجيش إزاء الإنجليز الذين لم يكونوا يتعجلون الرحيل عن مصر على الرغم من انتهاء الحرب. كانوا يترنحون سكارى يذرعون الشوارع جماعات يتنقلون ليلاً من بار إلى آخر يتحرشون بالمصريين ويوجهون إليهم الإهانات.

وبهدف تحقيق أكبر قدر من فعالية الإشراف على نشاط التنظيم قام عبدالناصر بتقسيمه إلى خمسة أقسام تختص بشؤون الاقتصاد والأمن والدعاية والكفاح الذاتي والإرهاب؛ وكان قسم الاقتصاد مسؤولاً عن شؤون التنظيم المالية. أما قسم الأمن فكانت مهمته قبول الضباط الجدد بينما كانت مهمة قسم الدعاية تنحصر في إصدار المنشورات وقسم الكفاح الذاتي في جمع المعلومات. أما قسم الإرهاب فقد ظل فعلياً بلا نشاط نظراً لأن عبدالناصر كان

يدرك أن الإرهاب لن يجعلهم يبلغون الهدف الذي من أجله قام التنظيم.

كانت كل خلية في التنظيم تضم من ثلاثة إلى خمسة ضباط ولم يكن يعرف هؤلاء سوى المسؤول عن تشكيل الخلية وأعضائها. أما عبدالناصر وعبدالحكيم عامر فكانا الوحيدين اللذين يملكان كل المعلومات الخاصة بالخلايا وبتشكيلها؛ وقد كان التنظيم يضم قبيل ثورة ١٩٥٢ على ما يبدو حوالي ألف ضابط وإن لم يكن عدد الضباط النشيطين فيه يتعدى في الواقع ثلاثمائة عضو. كان كل ضابط من "الضباط الأحرار" يدفع اشتراكاً شهرياً.

بدأت الأوضاع تتفاقم بالبلاد من عام لآخر فلم يكن يمر يوم واحد دون أن تشهد القاهرة اغتيال أو محاولة اغتيال الجنود والضباط الإنجليز؛ كما صار موظفو الحكومة يخشون السير بالشوارع وقد اعترف راسل باشا حكمدار بوليس القاهرة بأن الخوف كان يراوده حين كان يسير بالمدينة. ولقد لعبت دوراً خاصاً في هذه العمليات الإرهابية منظمة "الإخوان المسلمون" المتعصبة التي كان ينتمي إليها بعض "الضباط الأحرار". وكان "الإخوان المسلمون" قد بدأوا بعد الحرب مباشرة في إصدار جريدتهم التي غدت أكثر الجرائد انتشاراً. كانت الجريدة تتهم الملك بالخروج عن تعاليم الإسلام وتتهم النظام بالفساد ونسيان مصالح الشعب. ويذكر السادات في كتابه "ثورة على النيل" أنه عرض على عبدالناصر اللجوء إلى الوسائل الإرهابية التي يمارسها "الإخوان المسلمون" وتفجير السفارة الإنجليزية. غير أن عبدالناصر لم يوافق على ذلك وإن كان لم يعترض على التعاون مع "الإخوان المسلمون".

وذاث يوم تعرف عبدالناصر على خالد محيي الدين الطالب بجامعة القاهرة. سرعان ما شغل خالد اهتمامه. فقد كان يبدو وطنياً غيوراً

ثوري الاتجاه. غير أن دهشة عبدالناصر تزايدت حين علم أن هذا الطالب ضابط فرسان في إجازة لتأدية امتحاناته بالجامعة.

ذكر عبدالناصر:

_ إن الجيل الجديد من الضباط أكثر علماً منا. متى ترتدى ثانيةً حلتك العسكرية؟

اتضح أن خالد لم يكن يود ذلك على الإطلاق فقد أجابه:

_ إنني لا أحب الحرب، إنني ضد الجيش.

_ حتى الجيش الذي يناضل في سبيل حرية شعبه؟

وأجاب خالد:

_ إن الدكتاتورية العسكرية أمر غير مقبول شأن تسلط الحكام المستبدين

فكر عبدالناصر ملياً ثم قال:

_ غير أننا لا ننوى البقاء في الحكم. فليمارس السياسة السياسيون، إن الجيش سوف يعود إلى ثكناته حالما ينظف الساحة لهم. إن الشيء الوحيد الذي نبتغيه هو أن يتولى السلطة مصريون وطيون.

كان عبدالناصر يود الحديث كثيراً مع هذا الضابط العجيب الذي يرتدى الملابس المدنية ويحمل في جيبه بطاقة الجامعة.

_ إنني أدعوك لزيارتي. أدعوك وأرجو أن تعدني بقبول الدعوة.

_ وهكذا صار خالد الذي أطلق عبدالناصر اسمه على ابنه فيما بعد كثير التردد على بيته في منشية البكري. كان يمدّه بالكتب السياسية

والاقتصادية التي يجد فيها الإجابات عن كثير من الأسئلة التي كانت تقضه.

قام خالد بتعريف جمال على راشد البراوي الماركسي المصري صاحب أول ترجمة لكتاب "رأس المال" إلى اللغة العربية ثم جاء إليه بأحمد فؤاد المتخصص في الاقتصاد. كان لخالد الكثير جداً من الأصدقاء وكان جمال يستمع إليهم ويحاورهم. غير أنه هو الذي ولد في أسرة وثيقة الصلة بالفلاحين المصريين لم يستطع بأي حال من الأحوال إدراك الدور التاريخي للطبقة العاملة.

كان الأصدقاء يلتقون كثيراً في بيت عبدالناصر ولم تعد زيارات خالد تبدو غريبة على تحية وعلى أي حال فقد صارت تألف الكثير مثل اختفاء جمال ليلاً وكذلك الرسائل التي كان يبعثها عن طريقها إلى معارفه وقد ظلت تحية شأنها في السابق، تثق بزوجها في كل الأمور.

كان عبدالناصر في كل مرة يطالع فيها بالجرائد أنباء الإضرابات وتعسف المحتلين يشعر بالأسى إزاء أن "الضباط الأحرار" لا يعملون بالسرعة والحسم المطلوبين من وجهة نظره.

لقد كان يرى ضرورة أن يكون للتنظيم في كل مكان رجاله الذين يملكون المعلومات حول كل ما يجري بالبلاد، وذات مرة اشتكى اللواء حيدر وزير الحربية إلى قريبه عبدالحكيم عامر من سوء الانضباط في الجيش قائلاً:

__ إن الجنود بل وحتى الضباط يؤدون الخدمة وكأنما يقضون فترة عقاب. ليس هناك من يمكن الاعتماد عليه؛ بل وحتى لتنفيذ أهم التعليمات.

وأجابه عبدالحكيم عامر:

_ يمكنني أن أشرح لكم ضابطاً شاباً غاية في الجد والاجتهاد.

وهكذا شغل صلاح سالم من "الضباط الأحرار" أحد المناصب الهامة في رئاسة الأركان.

كان عبدالناصر يعرف بتعاطف صلاح سالم مع اليسار. غير أن قائد التنظيم يهتم أساساً بأن يكون الإنسان المدعو للقيام بمثل هذا العمل الهام وطنياً شريفاً يتسم بالإخلاص. وقد كان جمال يستطيع الاعتماد على صلاح سالم انطلاقاً من هذه

النظرة. هكذا كانت علاقة عبدالناصر ببقية "الضباط الأحرار" الذين كان منهم عدد غير قليل من الماركسيين. استطاع "الضباط الأحرار" عن طريقهم في نهاية الأمر الاتصال بالتنظيمات السياسية الأخرى المناضلة ضد الإنجليز.

حاول "الضباط الأحرار" الاتصال أيضاً بـ "الوفد" إلى جانب "الإخوان المسلمين" والمجموعات الماركسية.

استقى عبدالناصر من برنامج الوفد على سبيل المثال فكرة المطالبة بحياض مصر، والتي استطاع الاستفادة منها في نضاله ضد الإمبرياليين. غير أنه قام في مؤتمر باندونج فيما بعد بتفسير سياسة الحياد تفسيراً ثورياً إيجابياً بدلاً من ذلك التفسير البرجوازي السلبي. وصارت مصر بعد عزوفها عن المشاركة في الأحلاف العسكرية مع البلدان الإمبريالية تؤيد في نشاط البلدان الأخرى في سبيل استقلالها الوطني.

ظلت الإضرابات متواصلة في مصر منذ مطلع عام ١٩٤٦. فقد أضرب الطلبة والعمال والموظفون مطالبين بجلاء القوات الإنجليزية.

في فبراير ١٩٤٦ تحركت جماهير الطلبة من جامعة القاهرة بغية تقديم عريضة احتجاج إلى الحكومة. قام رجال البوليس بسد المنافذ المؤدية إلى نهر النيل. تحول المتظاهرون إلى كوبرى عباس. فقد بدا أن حماة النظام لم يسدوا هذا الطريق نظراً لأن قوات الأمن كانت مصطفة هناك على الشاطئ الآخر.

كانت السحب تبدو مفعمة بلون الرمال الصفراء التي حملتها الرياح عالياً مؤذنة بقدم الخماسين؛ بينما كان الجو خانقاً وحين وصل المتظاهرون إلى منتصف الكوبرى صدرت الأوامر بالكف عن التقدم. "قف مكانك". وتوقفت طليعة المتظاهرين إلا أن البقية في المؤخرة واصلت ضغطها متقدمة نحو الأمام. دوت طلقات الرصاص. سقط البعض مضرجاً في دمائه "إنهم يطلقون الرصاص". تناقلت الأفواه هذه العبارة. عم الهرج والمرج المكان. ثمة من اعتلى سور الكوبرى وقذف بنفسه إلى النيل. دوت أصوات طلقات الرصاص مرة أخرى.

وفي تلك اللحظة تعالى هدير جنازير الكوبرى ليتحرك جزئه المركزي إيذاناً بوقوع الكارثة التي راح ضحيتها مئات المتظاهرين غرقى بالنيل.

أثار إطلاق الرصاص على المتظاهرين موجة كبيرة من السخط عمّت مصر. قدمت حكومة الوفد استقالتها على الفور وتعاقبت الإضرابات التي ووجهت بمختلف ضروب الانتقام واضطر الإنجليز إلى التدخل. ظهرت المنشورات بالقاهرة حول مسؤولية الضابط سالم زكى تلميذ راسل النابه عن إطلاق الرصاص على الطلبة. سرعان ماجرت محاولة اغتيال راسل باشا التي وإن كان النجاح لم يكتب لها. فقد أدخلت الرعب إلى نفوس الإنجليز. غرقت البلاد في جو مفعم بالتوتر الشديد. ومرة أخرى حاول بعض

الأصدقاء إقناع عبدالناصر بالبدء في العمليات الإرهابية دون أن يفلحوا في ذلك.

وفي ظل هذه الأوضاع بدأت الحكومة في الاستعداد لاحتفالات عيد ميلاد الملك فاروق؛ وكانت الخطة التي وضعها المسؤولون عن التشرifiات بالقصر تقضى بأن يقوم الملك بإيقاد الشعلة التي سوف تأخذ طريقها من جامعة القاهرة إلى وسط المدينة؛ ولذا فقد جرى تطهير ساحة الجامعة التي أقيمت من تبرعات الشعب وحملت اسم فؤاد والد فاروق. جرى رفع الأعلام الوطنية وصور الملك في كل مكان. وجهت الدعوة إلى كافة المشاهير وأعضاء السلك الدبلوماسي. كان من المفروض أن تشارك في الاحتفال مدرسة الحربية. وكذلك أحد مدرسيها اليوزباشي الشاب جمال عبدالناصر. غير أن الطلبة الذين تسللوا إلى ساحة الجامعة ليلاً قاموا بإفساد الأضواء المعلقة وأحرقوا صورة فاروق التي كانت تزين المدخل الرئيسي.

وفي اليوم التالي داهمت جماهير المتظاهرين مدينة الإسكندرية.

بذل البوليس كل ما في وسعه للحيلولة دون انضمام الطلبة إلى العمال. لم تسعفه في ذلك لا الهراوات ولا الرصاص. حمل المتظاهرون جثمان أحد الطلبة الذين استشهدوا ليطوفوا به شوارع المدينة.

أدرك الملك والإنجليز أن الأحداث في البلاد تتخذ مع كل يوم جديد طابعاً أكثر خطورة ولذا فقد توصلوا إلى أنه قد حان الوقت لتسليم السلطة مرة أخرى إلى "الرجل ذي القبضة الحديدية" صدقي باشا.

وفي هذا الوقت بدأت اللجنة الوطنية للطلبة عملها. كما أن الاضطرابات لم تهدأ بين العمال. وبدأت لجان الإضرابات تتشكل بالمؤسسات والمصانع؛ وأخيراً ظهرت اللجنة الوطنية للطلبة

والعمال التي أعلنت عن الدعوة لعقد مؤتمر وطني عام والقيام بمظاهرة؛ كما اتخذت قراراً بالبدء في إضراب عام.

خرج الطلبة والعمال في مظاهرة عند الصباح. كما بدأت الإضرابات العامة في ذات الوقت. توقفت وسائل النقل عن العمل وكذلك المؤسسات والمصانع في الجيزة وشبرا الخيمة والعباسية وسرعان ما اكتظ وسط القاهرة بالمتظاهرين الذين وفدوا من كافة الاتجاهات إلى ميدان الأوبرا حيث كان من المفروض أن ينعقد المؤتمر الوطني العام. كان الموكب يتسم بطابع النظام النموذجي. طالب المؤتمر بجلء القوات البريطانية من كل أرجاء وادى النيل وبالغاء معاهدة ١٩٣٦ الموقعة بين مصر وانجلترا وبمناقشة القضية المصرية في مجلس الأمن لدى هيئة الأمم المتحدة.

انطلق الطلبة والعمال من ميدان الأوبرا متوجهين إلى ميدان قصر النيل حيث تكثرت القوات الإنجليزية. غير أن بوابات التكنات انفجرت فجأة عن السيارات المحملة بالجنود الذين شرعوا على الفور في تفريق المتظاهرين وسقط عشرات الجرحى والقتلى الذين افترشوا ساحة الميدان.

هز التنكيل الوحشي بالمتظاهرين أعماق المجتمع واندلعت المظاهرات تعم موجاتها الجديدة البلاد على الرغم من إعلان صدقي باشا مساء ذلك اليوم عن قراره بمنع التظاهر. وفي الرابع من مارس ١٩٤٦ أقيم إضراب عام تعبيراً عن الاحتجاج. بدت العاصمة المصرية المكتظة بسكانها مقفرة تماماً في ذلك اليوم. فقد أغلقت أبوابها المصانع والفبارك والمدارس والمتاجر والمقاهي والمطاعم. غير أنه إذا كان القاهريون قد عاشوا المأساة في صمت فإن الإسكندريين قد خرجوا في مظاهرة كبيرة. وعاد البوليس إلى استخدام أسلحته مرة أخرى. بيد أن المتظاهرين كسروا كردون

البوليس؛ وحين كانوا يمرون إلى جوار أحد الفنادق حيث يعيش البحارة الإنجليز شاهدوا العلم الإنجليزي فوق إحدى الصواري مما جعل أحد العمال يعتلى سقف الفندق وينتزع العلم ويلقيه إلى الشارع ليمزقه المتظاهرون ويدوسونه بأقدامهم.

عادت طلقات الرصاص تصفر من جديد. كانوا يطلقونه من الفندق الذي يعيش به الجنود الإنجليز. حاول المتظاهرون اقتحام المبنى إلا أن قوات البوليس الكبيرة حالت دون ذلك. تحول المتظاهرون إلى ميدان زغلول. فقد كانت توجد هناك ثكنة غير كبيرة للجنود الإنجليز؛ وما إن شاهد هؤلاء حشود المتظاهرين تتجه نحوهم حتى فتحوا عليها نيران أسلحتهم. بيد أن مقاومتهم تحطمت في لحظات قصيرة. فقد تحولت الإسكندرية إلى ساحة للقتال بين الشعب من جانب والجنود الأجانب من جانب آخر. كان عبدالناصر قد تردد في تلك الأيام على الكثير من أحياء القاهرة. كان يود معرفة ومشاهدة رد فعل أهل العاصمة على هذه الأحداث.

تفاقت حدة الصراع في فترة ما بعد الحرب بين إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية على النفوذ في الشرق الأوسط. فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية حيث انتقل مركز الحركة الصهيونية العالمية تؤمل على معاونة هذه الحركة في دعم مواقعها بالمناطق الغنية بالنفط. وقد قام الصهاينة الذين دعموا البلدان الإمبريالية في سياسة نهب الشرق الأوسط بتنظيم العصابات المسلحة التي شنت الإرهاب ضد السكان العرب في فلسطين كما راحوا يعلنون عن "حلمهم الأبدي" بشأن "العودة" إلى فلسطين إلى رابية صهيون والقدس.

قامت الطائفة اليهودية في فلسطين بالاستعداد للاستيلاء على الأراضي التي اعتبرها الصهاينة ملكية تاريخية لليهود.

وتم طرح مسألة فلسطين للمناقشة بهيئة الأمم المتحدة وطالب الاتحاد السوفيتي بإلغاء الانتداب البريطاني على فلسطين وقيام دولة اتحادية تتساوى فيها حقوق العرب واليهود. وبذا يكون الاتحاد السوفيتي قد أيد في ذلك الحين قيام الدولة الديمقراطية. غير أن إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية واصلتا تدبير دسائسها؛ كما رفضت الاقتراح السوفيتي البلدان العربية التي كانت تحكمها آنذاك أنظمة رجعية، بينما واصلت العصابات الصهيونية شأنها في السابق عملاتها الإرهابية؛ وفي ظل تلك الظروف صوّت الاتحاد السوفيتي إلى جانب قرار إلغاء الانتداب البريطاني وتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين عربية ويهودية.

ظل الصهاينة غير راضين عن قرار هيئة الأمم المتحدة. فقد كانوا يأملون في الحصول على أكبر مساحة من الأراضي تفوق تلك التي حددها في قرار التقسيم لإنشاء الدولة اليهودية، ولذا فقد صاروا يفتعلون الاشتباكات مع العرب قبيل إقرار هيئة الأمم المتحدة لمشروع التقسيم وكان يشغل المناصب القيادية بالجيش العربية رجال من أمثال الجنرال جلوب عميل المخابرات الإنجليزية الذي قدا الفيلق الأردني. ولم تكن المصالح العربية تهتم مثل ذلك الرجل. كما كان الصهاينة يعرفون الطريقة التي يرغمون بها أمثاله على خدمة الدوائر الإمبريالية الإنجليزية والأمريكية بالتواطؤ مع الطغمة الإسرائيلية الحاكمة بحفز إشعال الحرب بين إسرائيل والبلدان العربية.

وفي ذلك الحين كان يعيش بالقاهرة حوالى خمسة عشر ألفاً من اليهود، أما في الإسكندرية. فقد كان يعيش حوالى أربعة عشر ألفاً، وكان هؤلاء ينحدرون من أصول متباينة ويشغلون مناصب مرموقة في جهاز الدولة والحياة الاقتصادية للبلاد. كما كان

الكثيرون منهم يقطنون مصر منذ غابر الأزمنة أما البعض فقد وفد إلى مصر مع مطلع القرن العشرين قادماً من روسيا ورومانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وتركيا. غير أنهم كانوا جميعاً يعتبرون مصر بلداً آمناً يبشر لنشاطهم بأفاق كبيرة. وكان الإنجليز يرحبون بقبول اليهود للخدمة في مؤسساتهم الاستعمارية وساعدت على ذلك العلاقات الوثيقة القائمة بين القيادة الصهيونية والحكومة الإنجليزية منذ أيام الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من أن اليهود كانوا يعيشون حياة طيبة بمصر إلا أن الصهاينة كانوا يطمعون منذ أمد بعيد في بعض الأراضي المصرية.

فقد توجه تيودور هرتزل الذي يطلقون عليه اسم "الأب الروحي للصهيونية" إلى تشيمبرلين وزير شؤون المستعمرات البريطانية يعرض عليه قبيل الحرب العالمية الأولى ما تسمى بـ "خطة العريش" التي يطلب فيها من إنجلترا منح الصهاينة ٦٣٠ ميلاً مربعاً من أراضي شبه جزيرة سيناء حتى يمكنهم إقامة المستوطنات اليهودية عليها. وكان الندوب السامي البريطاني في مصر اللورد كرومر قد وافق على هذه الخطة فيما سبق؛ وسرعان ما ظهر الوفد الصهيوني الذي كان يضم هرتزل نفسه على ضفاف النيل. فقد كان يتوجب عليه الحصول على موافقة الخديوي وتشكلت لجنة خاصة للسفر على وجه السرعة إلى العريش لدراسة المنطقة وتحديد أطر الخطة، وقد رافق المبعوث الشخصي لكرومر الوفد الصهيوني. بيد أن خديوي مصر رفض المشروع المقدم إليه وعندئذ لجأ الصهاينة إلى خدمات الطائفة اليهودية بمصر وإلى الاستفادة من علاقاتها. أعلن الخديوي عن استعداده لإعادة النظر في موقفه. ابتهج الصهاينة بهذا النجاح إلا أن الخديوي سرعان ما نكص عن وعده. غير أن رحلة هرتزل بالشرق الأوسط لم تنته إلى لا شيء. فقد تشكلت بعد زيارته للإسكندرية أول منظمة صهيونية

"أبناء صهيون" والتي طالبت بخلق "وطن قومي لليهود" في فلسطين. وبعد عام واحد ظهرت في مصر مجموعة أخرى "أحباء صهيون" والتي كان النازحون من روسيا يشكلون الجزء الأعظم من أعضائها. لم يكن ثمة من تعرض لنشاط هاتين المنظمتين في مصر. غير أنه ما إن اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى وانحاز الصهاينة إلى جانب انجلترا حتى حظر السلطان التركي نشاط المنظمات الصهيونية في كافة أرجاء الإمبراطورية العثمانية وأصدر أمره بإغلاق البنك "الإنجليزي الصهيوني". وهنا صارت جماهير اليهود التي كانت قد استقرت في فلسطين وشكلت بها فصائلها المسلحة تبحث عن ملجأ لها بمصر. وقام الصهاينة الأثرياء الذين يقطنون مصر ببذل جهودهم في سبيل توفير خير إقامة لهؤلاء النازحين وقد شارك كثيرون من هؤلاء فيما بعد في فيلق باترسون الذي دافع تحت قيادة الصهاينة عن المصالح الإنجليزية بالشرق الأوسط إبان الحرب العالمية الأولى.

ولم يكن جمال عبدالناصر يستطيع الإلمام بكل ذلك في نهاية الأربعينات. فقد كانت المنظمات الصهيونية تحرص على إخفاء نشاطها. غير أن جمال لم يغفل عن أن الصهاينة الذين تحولوا إلى أداة لتنفيذ إرادة المحتلين الإنجليز قد حصلوا على الكثير من الامتيازات بمصر وصار يلحظ لافتات المتاجر الكبرى والمؤسسات الصناعية التي تحمل الألقاب اليهودية رولو، المُصيري، عدس، القطاوي، شيكوريل، جاتينيو، جرين، مزراحي. وقد عرف من أحاديث الكبار أن عائلة القطاوي على سبيل المثال تسيطر على كثير من الشركات والبنوك الخاصة إلى جانب تمثيلها في مجلس إدارة شركة قناة السويس وسيطرتها العملية على وزارة المالية، أما عائلة شيكوريل. فقد كانت تحتكر تصدير وبيع كل القطن المصري بالسوق المحلية.

كان يدير أكبر الشركات الصناعية في مصر اليهودي روبرت سيمون رولو الذي استطاع على نحو ما الحصول على لقب "سير" أما رجل الأعمال الآخر سليل نفس العائلة والحاصل على لقب "سير" كذلك المدعو روبرت جاك رولو. فقد استطاع بفضل علاقاته الصهيونية السيطرة على المراكز الحساسة في مجال الصناعة.

كان الصهاينة يصدرون بالقاهرة "المجلة الصهيونية" التي أعقبتها فيما بعد "مجلة إسرائيل" بثلاث لغات. كانوا يطرحون على صفحات مجلاتهم ادعاءاتهم إزاء الأراضي العربية، "يضاربون" بالأم اليهود التي عاشوها إبان الحرب العالمية الثانية. لقد كانوا يرغبون على سبيل المثال في الحصول على شبه جزيرة سيناء المصرية.

وحين تقدم فؤاد أباظة رئيس الاتحاد العربي بالقاهرة إلى السفارة الإنجليزية بعريضة احتجاج ضد المخططات الصهيونية حول فلسطين تعرّض لحملة مسمومة شنتها عليه صحف كثيرة يمولها الصهاينة.

وقد أعلن ليون كاسترو مندوب المنظمة الصهيونية العالمية في مصر أن كل فلسطين ينبغي أن تؤول إلى اليهود؛ وبدأت منظمة "كيرن كايميت" المسماة بـ "الصندوق اليهودي القومي" تجمع التبرعات لصالح شراء الأراضي في فلسطين وإسكان اليهود بها؛ وسرعان ما وقعت المعابد اليهودية بمصر تحت تأثير ليون كاسترو؛ وتعالّت من على منابرها النداءات الصهيونية بشكل سافر؛ وصار الصهاينة يشترون الأراضي في فلسطين بالأموال التي نُهبّت من الفلاحين المصريين.

بدأ المصريون يدركون أن الأثرياء الصهاينة ينهبون البلاد ويتجرون بمصالحها بالتعاون مع المحتلين الإنجليز.

وفي مايو ١٩٤٨ رُقي عبدالناصر إلى رتبة "صاغ" كما اجتاز امتحانات ضباط أركان الحرب؛ وقد قامت إسرائيل آنذاك بشن العديد من الاستفزازات ضد البلدان العربية واضطرت سوريا ولبنان والأردن والعراق ومصر إلى إعلان التعبئة العامة. أسفرت المعارك الأولى عن انتصارات العرب إلا أنهم سرعان ما بدأوا يتعرضون للهزائم فقد كانت مصر تخوض هذه الحرب دون استعداد لها. كما لم يكن لديها سوى عشرة آلاف جندي إلى جانب سوء تنظيم الإمدادات والذخيرة وانعدام وسائل الاتصال وإصدار القيادات للأوامر المتضاربة. غير أنه رغماً عن كل ذلك فقد استطاع الجيش المصري احتلال غزة ثم بير سبع ليلتقي بالفيلق العربي الأردني والذي كان بدوره قد التقى بالقوات السورية العراقية. بيد أن كل ذلك كان في البداية فقط. فقد علمت القيادة الإسرائيلية عن طريق الجنرال جلوب بخطط العرب العسكرية وسرعان ما تحول الجيش الإسرائيلي إلى الهجوم المضاد ليفرض سيطرته على الجزء الأعظم من أراضي فلسطين.

وفي ذلك الحين تلقى عبدالناصر أمر الرحيل إلى الجبهة؛ وذات مساء قصد محطة السكة الحديدية كي يستقل القطار المتجه إلى قرينته التي ذرفت الكثير من الدموع عند وداعه شأن كل النساء اللاتي يودعن أزواجهن إلى الجبهة.

التقى عبدالناصر على رصيف المحطة بعبدالحكيم عامر وزكريا محيي الدين، كانا يقصدان الجبهة كذلك وإن كانت تختلف القطاعات؛ وما أن شغل الضباط أماكنهم بالقطار حتى نشروا

الخرائط أمامهم. غير أن ما لديهم من معلومات لم يكن كافياً حتى لتحديد مواقع كتائبهم على الخريطة.

وصل القطار محطة العريش عند الفجر. بارح عرباته ركابه الذين كان بينهم الكثير من الضباط إلى الرصيف المقفر وقد أثقل النوم جفونهم. لم يكن ثمة أحد ينتظر أياً من جمال أو عبدالحكيم أو زكريا. انطلقوا يستفسرون عن وجهتهم التالية إلا أن عربة "جيب" عتيقة ظهرت في نهاية الأمر وقد تذررت بالرمال.

ابتهج الملازم وهو يشد على يد جمال قائلاً:

_ هذا يعنى أنك من صدر الأمر لي باستقباله. إن كتيبتنا متركزة في الفالوجا.

توادع جمال مع صديقيه واستقل العربة التي سرعان ما انطلقت تنهب الرمال بين التلال الصفراء.

وجه جمال ملاحظاته إلى الضابط المرافق يؤنبه لكونه لم يحلق ذقنه ويقص شعره منذ مدة طويلة ونظر لزيه المكرمش غير النظيف.

وأجابه الضابط:

إننا نعيش ظروفاً بالغة القسوة يا حضرة الصاغ؛ المياه لا تكفيها وسبل الاتصال مقطوعة بينما نضطر إلى صد هجمات الإسرائيليين التي لا تنقطع؛ كثيرون منا لم يذوقوا طعم النوم لعدة ليالٍ متوالية؛ لقد كنت مضطراً للسفر طيلة الليل متجاوزاً الطرق التي قطعها العدو حتى أتمكن من استقبالك.

وتساءل جمال:

_ هل تناولت إفطارك؟

أجاب الضابط:

_ لا.

كان هناك في حقيبة جمال بعض السندويشات التي اهتمت قرينته بوضعها له. تناولوا بعضاً منها أثناء الطريق.

كان الوضع في الفالوجا أسوأ مما صوره الضابط. فقد أنهكت المعارك المستمرة الجنود وأصبحت الفالوجا مهددة بالحصار.

كان عبدالناصر فيما بعد وحيث يفكر في مصير وطنه يعود بذاكرته دائماً إلى تجارب حرب فلسطين كما كرس الكثير من صفحات كتابه "فلسفة الثورة" لهذا الموضوع. كثيراً ما كان عبدالناصر ورفاقه في الثورة يتذكرون فيما بعد كلمات أحد أبطال تلك الحرب القائم مقام أحمد عبدالعزيز الذي ذكر قبيل استشهاده في أغسطس ١٩٤٨ بفترة وجيزة: "إن ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر". لقد كان يقصد بذلك خيانة وعجز النظام الحاكم.

وفي يوليو أصيب جمال بشظية في بطنه. كان يبدو له أثناء نقله إلى المستشفى أنه سيفارق الحياة بعد قليل. فقد نزف كثيراً من الدماء وظل فترة طويلة في حالة عصبية. غير أن بنيته القوية ساعدته على الصمود. سرعان ما شفي عبدالناصر تماماً. وها هو يغادر القاهرة ثانيةً إلى الجبهة بعد فترة لم تستمر طويلاً.

وفي أكتوبر وقع ثلث القوات المصرية في حصار من ثلاث جهات بالقرب من الفالوجا وعراق المنشية وبدا الوضع ميئوساً منه.

أصدرت الحكومة المصرية أمرها إلى القيادة بالكف عن المقاومة وتسليم الفالوجا وأثارت هذه التعليمات سخط عبدالناصر والضباط الآخرين من ذوى الميول الوطنية، ولما كان عبدالناصر على يقين

من أن جنود كتيبته قادرون على التصدي للعدو. فقد قرر عدم الانصياع لهذه التعليمات.

وجاء ديسمبر وجثمت السماء رمادية ثقيلة فوق الصحراء وتساقطت الأمطار رذاذاً وانتشرت الرطوبة في أرجاء الخيام وصارت الكتيبة التي انعزلت عن المؤخرة تعاني من أزمة حادة في المواد الغذائية. راحت القوات الإسرائيلية تهاجم المرة تلو المرة الأخرى المواقع القريبة من عراق المنشية. بيد أن المصريين لم يستسلموا إلا أن النصف الآخر ظل تحت سيطرة المصريين، وقام عبدالناصر بالاتصال لاسلكياً بكتيبة زكريا محيي الدين يطلب منه دعمه بنيران مدفعيته.

وحذره زكريا:

_ إن ذلك سوف يُعرضكم للخطر.

وأجابه عبدالناصر:

_ وما العمل؟ ينبغي المخاطرة.

وبعد بضع دقائق صفرت دانات المدفعية فوق رؤوس المدافعين عن الفالوجا وأصدر جمال أمره إلى الكتيبة بالهجوم لينسحب العدو ثانيةً بعيداً عن القرية.

وعند الصباح ظهرت عند مشارف الفالوجا سيارة إسرائيلية ترفع العلم الأبيض ودوى مكبر الصوت بها يعلن:

_ ضابط إسرائيلي يود الالتقاء بضابط مصري.

استقل عبدالناصر بصحبة ضابطين ورقيب مسلحين بالرشاشات العربية "الجيب". أطل الضابط الإسرائيلي من نافذة سيارته يقول بالإنجليزية في نبرة مفعمة بمشاعر الاستعلاء:

_ إني نائب قائد هذه المنطقة مخول بإعلانكم أنكم محاصرون من كافة الجهات.. عليكم تسليم أنفسكم.

وأجابه عبدالناصر في حسم:

_ نحن نعم موقفنا إلا أننا مازلنا نحمل السلاح وسوف نقاتل حتى النهاية.

تحول الضابط الإسرائيلي من الإنجليزية إلى العربية وحين أصر عبدالناصر في هذه المرة أيضاً على عدم الاستسلام طلب الضابط الإسرائيلي بنبرة متأدبة للغاية إتاحة الفرصة لهم لنقل جثث القتلى من ساحة المعركة ولم يعترض عبدالناصر.

تألم عبدالناصر وأصدقائه لهزيمة الجيش المصري أشد الألم. لقد قارنوا الفالوجا المحاصرة بوطنهم الذي تحاصره البلدان الإمبريالية وصار جمال يدرك مدى العلاقة الوثيقة التي تربط ما بين الإمبريالية والصهيونية العالمية. لم تكن تراوده أية شكوك إزاء أن الحكومات الرجعية العربية عملاء مطيعون لهذا التحالف الضخم وقد طالع جمال بعد أن عاد من الجبهة كتاب "التجربة والخطأ" الذي وضعه وايزمان أحد الصهاينة المشهورين والملقب بـ "أبي إسرائيل". كان هذا الكتاب يؤكد تماماً استنتاجات قائد تنظيم "الضباط الأحرار" فمن ذا الذي يمكن أن يتصدى لهذا التحالف؟

انتابت الجميع بعد الهزيمة مشاعر خيبة الأمل العميقة ولم يكن مصير الفلسطينيين يهم الملوك العرب. بيد أن كثيراً من الجنود والضباط ذوى الميول الوطنية والذين شاركوا في تلك الحرب وعاشوا أسى درجات الحماس كانوا ينظرون إلى الأمر على نحو مغاير.

أجبرتهم الهزيمة وخيانة الجنرالات والمستشارين الأجانب على التفكير في مستقبل وطنهم. لقد كانوا من مواقعهم في خنادق صحارى سينا يبحثون في دأب عن مخرج من المأزق الذى وصلت إليه الشعوب العربية.

كان المصريون ينتظرون بعد حرب فلسطين عام ١٩٤٨ حدوث تغييرات بالبلاد حيث كان الكثيرون منهم قبل الحرب يعلقون آمالاً على الملك إلا أن الجميع تبينوا الأمر وأدركوا أن الملك الذى كان يقضى وقته حول مائدة القمار حين كان الجيش يلقي الهزائم غير قادر على إدارة البلاد.

لقد أدرك عبدالناصر ورفاقه حين كانوا بخنادق صحارى سيناء يتعرضون لوابل القذائف الإسرائيلية. إن الشعوب العربية تواجه عدواً واحداً هو الإمبريالية ومن الواجب أن يسفر نضالها المشترك عن توحيدها.

ظل عبدالناصر يدافع عن الفلوجا حتى يناير ١٩٤٩ وفي ذلك الحين بدأت في جزيرة رودس المفاوضات بين الدول المتحاربة. كان الإسرائيليون يأملون في أن تكون الهزيمة الساحقة للعرب سبيلاً إلى إملاء شروطهم عليهم. قام عبدالناصر بتقدير الموقف ليقرر البدء بتوجيه الضربة وهو الأمر الذى كلل بالنجاح.

انتهت أخيراً مفاوضات رودس بعقد الهدنة وأسفرت حرب فلسطين عن احتلال إسرائيل ستة آلاف كيلو متر مربع من الأرض العربية الفلسطينية وبُغية الحيلولة دون استيلاء إسرائيل على كافة الأراضي العربية التي من المفروض أن تقوم عليها الدولة العربية قامت الأردن بدفع قواتها إلى الضفة الغربية لنهر الأردن ومصر إلى غزة. غير أن الأمر لم يقتصر على تقسيم فلسطين. فقد قامت إسرائيل على الفور بشن حملات التأديب ضد الفلسطينيين المقيمين

بالأرض المحتلة والذين أرغمتهم أساليب الاضطهاد الدموية على الرحيل عن الكيبوتزات الإسرائيلية تظهر محل القرى العربية واضطر ثمانمائة ألف عربي طردوا من فلسطين إلى معيشة الذل والمهانة في الخيام التي نصبت بالصحراء.

وفي ذلك الحين كانت القاهرة تستقبل أروع استقبال المدافعين عن الفالوجا. بيد أن هذه الأيام أثارت في نفس عبدالناصر مشاعر الحزن أيضاً. فقد أقيم بالقاهرة عرض عسكري بمناسبة انتهاء الحرب وشاركت كتيبة أبطال الفالوجا بالعرض إلا أن الملك كان قد أصدر أمراً بعدم السماح للكتيبة الخروج بأسلحتها التي رفضت تسليمها للعدو. لقد كان المهزوم بهذا البلد هو الذي يحاكم المنتصر وتلك أمور جعلت عبدالناصر ورفاقه يشعرون بالإهانة الشديدة.

سرعان ما شعر عبدالناصر كذلك بأنه موضع اتهام.

ففي مايو ١٩٤٩ استدعى إبراهيم عبدالهادي رئيس مجلس الوزراء الصاغ جمال عبدالناصر إلى مكتبه. فقد كان يظن أنه على علاقة ببعض "الضباط الأحرار". قام في صراحة سافرة بتوجيه تهمة إمداد هذا التنظيم السري بالسلاح إلى عبدالناصر. أجابه عبدالناصر بأنه كان بالجبهة ما يقرب من العام ولذا فلم يكن ليستطيع معرفة أية تنظيمات تعمل بالقاهرة.

وتساءل رئيس مجلس الوزراء:

__ لعلك تكون على علاقة بمحمود لبيب من "الإخوان المسلمين".

وأجابه عبدالناصر:

__ نعم بطبيعة الحال.

لم يكن عبدالناصر يخشى الإجابة بالإيجاب حيث كانا يحاربان
سويةً في فلسطين.

ومضى إبراهيم عبدالهادي في استجوابه على أمل الاهتداء إلى
خيط ما يُفضى به إلى مكنون السر:

_ ومن الذى قام بتعريفكما ببعضكما البعض ؟

_ اليوزباشي أنور السياجي.

_ وأين يعيش ؟

وأجاب عبدالناصر:

_ معذرة يا معالى رئيس الوزراء. فقد استشهد اليوزباشي أنور
السياجي بالحرب.

وفرغ صبر إبراهيم عبدالهادي إلا أن الابتسامة علت شفتي
عبدالناصر وكأن شيئاً لم يحدث.

_ إنك تسخر منى. سوف أسلمك للبوليس. هل تعرف ماذا أقصد
حين أقول البوليس ؟

_ نعم أعرف. لكن رئيس مجلس الوزراء لم يكن يملك أية قرائن
تتيح له فرصة تنفيذ تهديده.

في أكتوبر ١٩٥١ أعلن ستون ألف عامل مصري يعملون في خدمة القوات الإنجليزية بناء السويس رفضهم للتعاون مع المحتلين وقررت كل الأحزاب السياسية بالبلاد تقريباً تشكيل فصائل مسلحة من الفدائيين. استغل عبدالناصر ذلك حيث ساهم "الضباط الأحرار" في إعداد الفدائيين وفي العمليات القتالية ضد الإنجليز بمنطقة القناة وسرعان ما أخذت مقاومة المصريين تتخذ طابعاً بالغ الحدة مما اضطر لندن إلى زيادة أعداد قواتها بالمنطقة. كان الفدائيون يقومون كل ليلة تقريباً بمهاجمة مواقع الإنجليز ومداهمة وحداتهم العسكرية بالطرق الصحراوية ومخازن الوقود والذخيرة. صارت قوات بلوك النظام تدعم الفدائيين علانيةً وفي يومي ١٧-١٨ نوفمبر ١٩٥١ نشبت معركة سافرة بين وحدات البوليس المصري وقوات الاحتلال بمدينة الإسماعيلية وبعد أسبوعين وقعت معركة أخرى في مدينة السويس حيث حوّل الإنجليز حي كفر عبده بالمدينة إلى كومة من الأنقاض ليصبح آلاف السكان المصريين بلا مأوى وقد سقطت بمنطقة قناة السويس ١٧ قتيلًا و٤٣٨ جريحاً من بين المصريين في الفترة من ١٦ أكتوبر حتى ٥ ديسمبر ١٩٥١. غير أن هذا لم يُثْنِ الفدائيين عن عزمهم.

ذات مرة توقف فلاحان عند أحد الكباري بالقرب من مدخل مدينة الإسماعيلية. كان يبدو أن الحمار صار عاجزاً عن الاستمرار في جر عربتهما المحملة بالصناديق التي تبدت منها ثمار البرتقال ذهبية اللون ولم يكن الجنود الإنجليز الذين يحرسون الكوبرى

ليعيروا الأمر اهتماماً لو لم ينتح الفلاحان جانباً بعيداً عن العربة
وحين تقدم الضابط الإنجليزي يسأل عن سبب توقفهما أجابه
أحدهما فيما يتعجل السير في أثر صديقه:

_ إننا سنُعرج على القرية لابتئاع بعض البيض وسنعود حالاً.

قرر الضابط تفتيش حمولة العربة حيث تناول إحدى البرتقالات
وراح يمعن النظر إلى قشرتها اللامعة وهنا دوى الانفجار. حدث
ذلك في ١٩ يناير ١٩٥٢.

كان الانفجار الذي وقع عند كوبرى الإسماعيلية إشارة البدء. فقد
قام الفدائيون بعد بضعة أيام بمهاجمة مخزن الذخيرة بمدينة
الإسماعيلية. بدأت القوات الإنجليزية في تمشيط المدينة. لجأت
مجموعة الفدائيين إلى مقابر المسلمين. أطلقت قوات الاحتلال
حوالى سبعة آلاف طلقة. قام الإنجليز بإيداع من جرى القبض عليه
معسكرات الاعتقال بالصحراء وما أن جاء اليوم التالي حتى وقع
هجوم آخر على المخزن وهنا قرر الجنرال أرسكين قائد القوات
البريطانية في منطقة قناة السويس معاقبة المصريين جدياً في هذه
المرّة.

في ٢٥ يناير طالب أرسكين بأن تبارح قوات بلوك النظام مدينة
الإسماعيلية. داهمت الدبابات شوارع المدينة الغارقة في ظلال
أشجار المانجو وخرج الجنود الإنجليز يحملون رشاشاتهم يذرعون
هذه الشوارع التي بدت مقفرة.

حاصرت القوات الإنجليزية ثكنات بلوك النظام مطالبين الجنود
بالقاء السلاح. اتصل قائد البلوك بالقاهرة. أصدر فؤاد الدين
وزير الداخلية بحكومة الوفد أمره بالمقاومة وعدم التسليم، لم تكن
وحدات بلوك النظام تملك سوى الأسلحة الخفيفة، وجهت الدبابات

الإنجليزية مدافعها إلى الثكنات. غير أن المصريين رغباً عن ذلك أعلنوا للضابط الذي أوفده الجنرال أرسكين أنهم سوف يقاتلون حتى آخر طلقة. بدأ الإنجليز الهجوم.

ظلت قوات البوليس طيلة ثلاث ساعات تدافع عن كل حجر من أنقاض الثكنات الغارقة في اللهب. واحد وأربعون قتيلاً واثنان وسبعون جريحاً. تلك كانت نتيجة هذه المعركة الدموية.

سرعان ما تطاير نبأ هذا التصرف الإجرامي للمحتلين إلى كل أرجاء البلاد.

قرر الوفد تنظيم مظاهرة احتجاج تخرج في اليوم التالي. كان المفروض أن يخرج بها طلبة الجامعات بالقاهرة. سمحت قيادة بلوك النظام في القاهرة باشتراك قوات البوليس في المظاهرة. قرر مجلس الوزراء الذي اجتمع في جلسة عاجلة قطع العلاقات الدبلوماسية مع إنجلترا وإلقاء القبض على مائة من أبرز ممثلي الجالية البريطانية في مصر كرهائن. أوصت القنصلية البريطانية الرعايا الإنجليز بعدم مبارحة بيوتهم.

كان فاروق يسكن قصر القبة شتاءً، ذلك القصر المطل على ساحة كبيرة عامرة بالخضرة وأشجار النخيل الباسقة مفعم هواؤها برائحة الورود كما كان الملك يتمتع برياضة الفروسية صباح كل يوم. غير أن فاروق كان يستقبل عادة ضيوفه الأجانب والوزراء بقصر عابدين في قاعة خاصة تطل نوافذها على حديقة غناء.

وحين بدأت طلائع المتظاهرين تظهر أمام القصر كان الملك يستعد للاحتفال بعيد ميلاد ولي العهد وكان المسؤولون بالقصر يراجعون مدى تناسب الزي الأحمر الجديد مع قوام الخدم السمر القادمين من

النوبة فيما راح رئيس الديوان الملكي يسلم للتوزيع بطاقات الدعوة التي طبعت على ورق سميك تحمل شعار عائلة فاروق.

دخل يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ تاريخ مصر تحت اسم "السبت الأسود".
صارت الجماهير المحتشدة عند القصر تزار مطالبةً:

_ فلتسلمونا السلاح، إننا سوف نمضى للدفاع عن إخواننا.

سرعان ما اكتظت شوارع المدينة التي اتخذت بدايتها من عند القصر بالمتظاهرين الذين شرعوا في التحرك نحو ميدان الأوبرا؛ فهناك وبـ "كازينو أوبرا" كان الضباط الإنجليز يهون قضاء وقتهم حيث كانت الفتيات أشباه العاريات يتلوين بأجسادهن يؤدين الرقصات الشرقية وهنا بالذات وقع الحادث الذي كان بداية أعمال الشغب.

يقول شاهدو العيان أن المتظاهرين حين وصلوا إلى الكازينو شاهد أحدهم ضابط بوليس مصري يجلس إلى مائدة برفقة إحدى الراقصات مما جعله يصبح فيه:

_ ألا تخجل من نفسك حين تعبت مع الفتيات في الوقت الذي يستشهد فيه إخوانك بالإسماعيلية؟

أغلظ ضابط البوليس الرد ولم تمض سوى بضع دقائق حتى كانت موائد ومقاعد الكازينو قد تطايرت في الهواء وما هي إلا لحظات حتى كانت ألسنة اللهب تندفع منه وسط صيحات الاستحسان. كان مركز قوات المطافئ يقع على بعد أمتار معدودات من الكازينو إلا أنه وريثما تحركت عربات المطافئ إلى مكان الحريق كانت النيران قد انتقلت إلى المباني المجاورة وحين شرع رجال المطافئ في ممارسة عملهم كان ثمة من قام بتمزيق خراطيم المياه.

ظلت أسنة اللهب تتعالى لبضع ساعات من دار سينما "ريفولي" .
كان ثمة أناس يهرولون بطرقات وشوارع المدينة يحملون المشاعل
يضرمون النيران في المتاجر ودور السينما والبارات والنوادي
والفنادق التي يملكها الأجانب، انبعث الدخان من نوافذ متجر
"شيكوريل" الكبير.

واشتعل مقهى "جروبي" ومبنى "بنك باركليز" وشركة سيارات
"كرايسلر".

كان أربعة أشخاص يجلسون النادي الإنجليزي حين اقتحمته
مجموعة مشعلي الحرائق. قام هؤلاء بسكب البنزين على المائدة
والمقاعد ثم أشعلوا النار فيها وحين حاول هؤلاء الأربعة في
ملابسهم التي امتدت إليها النيران الخروج إلى الشارع جرى دفعهم
ثانية إلى داخل تامين الذي تحول إلى حزمة من أسنة اللهب. حاول
أحد الإنجليز النزول من أحد الطوابق العلوية إلى الشارع مستعيناً
ببعض ملاءات الفراش إلا أن النار امتدت إليها ليسقط إلى الشارع
وتدوسه أقدام المتظاهرين.

كان فندق "شبرد" بالقاهرة الذي شيد على الطراز العربي معروفاً
بالعالم أجمع وكانت قاعاته تغص بالأثاث الفخم المطعم بالعاج فيما
يقوم الجرسونات ذوو العمائم البيضاء بتقديم القهوة على الطريقة
العربية في أقداحها المصنوعة من الخزف الثمين أما بالقرب من
مدخله. فقد كان عشرات الحرفيين يعرضون عادةً مصنوعاتهم
الدقيقة. قام مشعلو الحرائق بإجبار نزلاء الفندق على التزام غرفهم
ونزعوا ستائر النوافذ وحولوا في لحظات أثاث الفندق إلى كومة
من الأخشاب سكبوا عليها البنزين وأشعلوا فيها النار.

كان يلاصق الفندق مبنى تجتمع فيه عادةً علية القوم القاهري وهو
مقر نادي المهاجرين الروس الذي كان الملك نفسه يتردد على

حفلاته الراقصة وكان الشباب من الضباط الإنجليز يعتبرون من
مفاخر الأمور الانضمام إلى ذلك النادي الذي سلم بالكاد من
الحريق.

أنقذ السور العالي الذي يحمل شعارات أصحاب قصر بكنجهام مقر
السفارة الإنجليزية من الدمار حيث دارت من حوله معركة حقيقية
بالسلاح الأبيض.

وحين حاول عمال إحدى المؤسسات بضواحي القاهرة الوصول
إلى وسط المدينة لإخماد الحرائق صادفوا في طريقهم دورية
إنجليزية حالت دون بلوغهم مقصدهم.

لسبب مماثل لم يستطع أولئك المرتبطون بتنظيم "الضباط الأحرار"
الوصول من وسط المدينة إلى هليوبوليس لإبلاغ عبدالناصر بهذه
الأحداث المؤسفة.

شهدت المدينة ليلاً أعمال النهب الجماعية. كانوا يسرقون من
واجهات المحلات الثريات الكريستالية وصناديق الشمبانيا
والويسكي وإطارات الصور الذهبية والأقمشة والأثاث.

وصل الجنود. غير أن مشعلي الحرائق ومثيري الشغب
والاضطراب استقلوا عربات "الجيب" التي كانت في انتظارهم. لم
يستطع المائة وخمسون جندياً أن يفعلوا شيئاً إزاء ألوف
المتظاهرين الذين كانوا يحتدمون غضباً بالشوارع.

لقد كان ثمة من حاول استغلال أوار السخط الشعبي لتحقيق أهدافه
الذاتية وقام بتدبير حريق القاهرة ولم يتحدد حتى الآن إلى أية
مجموعة سياسية بالذات كان مشعلو الحرائق ينتمون. كان الصاغ
سيمسون بقسم مكافحة الجاسوسية بالمخابرات الإنجليزية يحمل
الجناح اليمينية من "الضباط الأحرار" مسئولية الحريق إلا أن

الحريق لم يكن يهم "الضباط الأحرار" ولا الشيوعيين الذين حاولوا أيضاً إصاق التهمة بهم ولا غيرهم من المنظمات اليسارية، ذلك لأنه كان ذريعة لموجة من التعسف والاضطهاد ولم يكن ليقدّم على مثل هذه الخطوة المتهورة سوى بعض الإخوان المسلمين المتعصبين؛ وتميل غالبية القاهريين إلى مثل ذلك التفسير ويؤكد الصحفي السويسري فوشى مراسل "جورنال دي جنيف" بالقاهرة وأول من كتب سيرة حياة عبدالناصر وأحد شاهدي عيان أحداث "السبت الأسود" أن لندن استفادت من هذه الأحداث بشكل مباشر. جرى وقف نشاط الفدائيين بعد حريق القاهرة أما الملك فلم يرقم بأي نشاط ملحوظ لوضع حد لأعمال الشغب وكانت كل الدلائل تؤكد أن ثمة اتفاقاً بينه وبين المخابرات البريطانية وكتب فوشى يقول أنه قد جرى التعرف ضمن المتهمين بالتحريض على الحريق على أناس يعملون بشكل مباشر في خدمة أجهزة الأمن الإنجليزية. وقد كتب اللواء محمد نجيب في مذكراته عن مشاركة الملك لهذه العملية الاستفزازية دفع المقربين منه إلى دفة السلطة.

حين تشبثت الأيدي بأعمدة سور السفارة الإنجليزية بدأ السفير سير رالف ستيفنسون يذرع ردهات مسكنه دون أن يقدم على استدعاء قوات من منطقة قناة السويس بات متردداً حيث كان يعرف أن القوات المصرية سوف تتحول إلى المقاومة في مثل هذه الحالة. حاول السفير الاتصال بفؤاد سراج الدين، أجابوه بأن وزير الداخلية مشغول بموضوع شراء بيت خاص. اتصل برئيس مجلس الوزراء لكن النحاس باشا الذي ترأس الحكومة الوفدية منذ يناير ١٩٥٢ كان مشغولاً بعمل غير ذي أهمية. أما بالقصر فقد أثارت الملكة ناريمان التي تماثلت بالكاد للشفاء بعد الولادة موجات الذعر المرة تلو الأخرى حيث كانت تتصور السنة اللهب تلتهم القصر والنيران تهدد المولود الجديد فؤاد.

لبث فاروق في مكانه إلى جوار النافذة يتابع أعمدة الدخان الأسود التي راحت تتعالى فوق العاصمة المصرية. كان عليه أن يتخذ قراراً بشأن الحكومة. فقد تبدى واضحاً أن النحاس باشا لا يمكن أن يستمر بالسلطة. ثمة من عرض ترشيح اللواء حيدر وزير الحربية ورئيس مصلحة السجون السابق. غير أن الملك كان يرى أن حيدر ليس حازماً بالدرجة المناسبة لمواجهة الموقف:

_ من المستحيل أن نوكل أمر البلاد إلى حيدر.

لزم الحاضرون الصمت على نحو يوحي بالإجلال.

استطرد فاروق في حديثه قائلاً:

_ إنكم جميعاً جبناً. سوف يشكل علي ماهر الحكومة.

بيد أن أياً من الحاضرين لم يكن يود أن يكون علي ماهر رئيساً لمجلس الوزراء ولذا تجرأ حافظ عفيفي رئيس الديوان الملكي على أن يقول في نهاية الأمر:

_ إن الدكتور الهلالي يستطيع الاضطلاع بهذه المهمة. وهنا تساءل الملك في عصبية:

_ أي دكتور هذا؟

تعالى صوت مفسراً:

_ إنه نجيب باشا الهلالي.

_ فلتقولوا ذلك. إني أعرف نجيب باشا الهلالي مستشار القصر أما الدكتور الهلالي فلا معرفة لي به.

صدر الأمر إلى حافظ عفيفي بسرعة التوجه إلى الهلالي بعرض تشكيل الحكومة. وحين انطلقت سيارته بشوارع القاهرة متجهة نحو

المعادي ظهرت المدينة وكأنما بعد قصف جوى. فقد كانت أعمدة الدخان ما تزال ترتفع عاليةً وواجهات المحلات محطمة فيما تحترق السيارات وتتناهى أصوات طلقات الرصاص إلى الأسماع. عاد حافظ عفيفي حين لم يكن الاجتماع بالقصر قد انتهى بعد. توجه الجميع نحوه يرمقونه في ترقب.

ذكر حافظ عفيفي:

_ الهلالي يقترح أن يتولى تشكيل الحكومة علي ماهر.

أعلن الملك:

_ فليشكلها علي ماهر.

وعاد حافظ عفيفي ثانية كي يستقل سيارته متوجهاً هذه المرة نحو جزيرة الزمالك حيث تعيش الارستقراطية المصرية والإنجليز وكانت هذه المنطقة تخضع لحراسة خاصة ولا يستطيع المصري دخولها إلا بتصريح خاص ولذا فقد كان يسودها الهدوء والاستقرار وكان شيئاً لم يحدث.

كان علي ماهر قد تولى رئاسة الحكومة المصرية بدعم الإنجليز قبيل الحرب العالمية الثانية إلا أنه غير على التو اتجاهه وراح ينادى "بحياد" مصر حين قام الجنرال رومل بالإعداد لحملة ضد أفريقيا. أما بعد أن أرغم الإنجليز الملك فاروق على تغييره قام بشن حملة دعائية واسعة ضدهم إلا أن الملك هددته فلزم الصمت. وبعد الحرب قام علي ماهر ببذل قصارى جهده لتبرير موقفه أمام الإنجليز. وصارت حاشية القصر تخشى هذا الرجل إلا أن الإنجليز والملك أيضاً صاروا اليوم في حاجة إليه هو بالذات. وصل حافظ

عفيفي قبيل المساء إلى منزل علي ماهر يعرض عليه باسم جلالة الملك منصب رئيس مجلس الوزراء.

وفي اليوم التالي وبعد لقاء علي ماهر بالملك وعودته إلى منزله بصحبة أنصاره وحين شرع يعد بيانه إلى الشعب دوى جرس التليفون. لقد كان الملك يطالبه بأن يكف لبعض الوقت عن مشاورات تشكيل الحكومة.

وعندئذ خاطبه أحد أصدقائه:

_ إنك لن تكون أبداً رئيساً للحكومة إذا ما لم تشكلها هذه الليلة. ينبغي إعلان جلالته بهذا الشرط.

وهنا أدار علي ماهر قرص التليفون يطلب حافظ عفيفي:

_ ينبغي يا سعادة رئيس الديوان تشكيل الحكومة على وجه السرعة.

_ لكننا اتفقنا على تأجيل ذلك حتى الغد.

_ أبلغوا جلالته.. إما اليوم وإما لا إلى الأبد.

اضطر فاروق إلى الإذعان لهذا الإنذار. دامت فترة حكم علي ماهر ٣٢ يوماً شهد فيها المصريون موجات جديدة من الاضطهاد والقمع.

راح عملاء الملك فاروق بعد حريق القاهرة يلاحقون الوطنيين الذين يعملون ضمن فصائل المقاومة. كانوا يودعونهم السجون. وصارت السلطات تراقب هؤلاء الذين تنادوا للنضال المسلح ضد الإنجليز في منطقة قناة السويس.

أصاب الارتباك البوليس السياسي فراح يفتش المنازل والمؤسسات والأماكن العامة بحثاً عن هؤلاء. كان يقبض عليهم ويودعهم المعتقلات في الصحراء. بيد أنه لم يُلق القبض على أي من "الضباط الأحرار"؛ فلقد كانت السرية التي نادى بها عبدالناصر درعهم الواقى.

كانت عديمة الجدوى تلك الآمال التي علقها الملك على "رجل قوى" يمكنه إنقاذ الموقف. فقد فشلت تماماً كل الإجراءات التي بذلها علي ماهر، ذلك لأن الشعب صار لا يثق بحكومة الباشوات والإقطاعيين ولذا سرعان ما اضطر علي ماهر إلى تقديم استقالته؛ وبدأت مرحلة تعاقب الوزارات الواحدة تلو الأخرى على مدى فترة وجيزة. فقد توالى ستة رؤساء للحكومة في الفترة من يناير وحتى يوليو ١٩٥٢. وغدا الملك عاجزاً عن السيطرة على البلاد.

في عام ١٩٥٠ كان "الضباط الأحرار" قد شكلوا مجلساً لقيادة الثورة، اختير عبدالناصر فيما بعد رئيساً له وبدأ الإعداد على نحو عملي محدد للقيام بانقلاب ثوري. كان "الضباط الأحرار" يقدرون القيام بثورتهم في ١٩٥٤-١٩٥٥ غير أن الأحداث التي جرت عام ١٩٥٢ غيرت جوهرياً خطط الثوار.

شرع عبدالناصر يفكر فيما إذا كان الوقت قد حان؛ وعمّا إذا كان الضباط الأحرار مستعدين وحول ما إذا كانت قواهم تكفيهم لذلك.. كان يتساءل ويرد على نفسه بنفسه: كلا. لقد أدرك عبدالناصر أنذاك ضرورة تكثيف نشاطهم.

كان عبدالناصر يرى ضرورة أن يتزعم الثورة ضابط ذو رتبة عالية يحظى باحترام الشعب والجيش.

رشح البعض اللواء فؤاد صادق المعروف بإخلاصه ووطنيته منذ أيام حرب فلسطين ١٩٤٨؛ وقرر عبدالناصر إرسال صلاح سالم للتفاوض معه. غير أن اللواء المحترم كان كما اتضح طموحاً يحلم بتولي منصب رئيس الأركان. ذكر صلاح سالم أنه من المحتمل أن توجد بالجيش مجموعة يمكن أن تدعمه لتحقيق هذا الحلم. غير أن جرس التليفون رن فجأة.. تناول اللواء صادق السماعة ثم انتقل إلى غرفة أخرى يواصل بها حديثه، عاد بعد حوالي دقيقة وأمارات البهجة مرتسمة على وجهه ليقول بنبرة راضية:

_ لقد أبلغوني بأن جلالته يرغب في تعييني رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش.

وهكذا اتضح أن هذا اللواء لا يمكن أن يكون زعيماً للثورة. وقع اختيار عبدالناصر بعد ذلك على اللواء محمد نجيب الذي حظى كذلك بشعبية واسعة إبان حرب فلسطين.

بدأ عبدالحكيم عامر يحاول بثتى الطرق استمالاته إلى تنظيم "الضباط الأحرار" دون أن يكشف أهدافه وجمعت الصداقة بينهما تدريجياً؛ كما كان عبدالحكيم عامر يتردد على منزل محمد نجيب في بعض الأحيان. لم يكن عبدالناصر على يقين من أن نجيب يملك كل المقومات التي ينبغي توفرها في الزعيم إلا أن عبدالحكيم عامر كان يؤكد أن نشاطه بشأن "ترويض" اللواء يسير على ما يرام.

دون سابق مقدمات صار معروفاً أن الملك قرر تعيين اللواء حسين سرى عامر قائداً لسلاح الحدود بدلاً من اللواء نجيب؛ وقد كان حسين سرى يعتبر من ألد أعداء "الضباط الأحرار" وها هو يتولى واحداً من أهم المناصب في الجيش.

رغب الملك بعد ذلك في أن يتولى حسين سرى رئاسة نادى الضباط بالزمالك وكان هذا المنصب بالانتخاب مما جعل عبدالناصر يقرر أنه قد حان الوقت لاختبار قوة التنظيم.

وذات مرة اصطحب عبدالحكيم عامر جمال عبدالناصر إلى محمد نجيب. التقى عبدالناصر وعامر بعد ذلك باللواء نجيب مراراً بمسكنه. بدأوا تدريجياً يفهمون بعضهم البعض وسرعان ما اختير نجيب رئيساً لتنظيم "الضباط الأحرار". اقتضت السرية الابتعاد به عن المشاركة في الاجتماعات السرية والإعداد للثورة.

وفي لحظة قيام الثورة لم يكن اللواء نجيب يعرف سوى خمسة من أعضاء مجلس قيادة الثورة التسعة.

أوكل عبدالناصر إلى عبدالحكيم عامر مهمة الاتصال باللواء نجيب وإقناعه بترشيح نفسه في انتخابات رئاسة نادى الضباط وبدأ "الضباط الأحرار" يدعون زملاءهم للتصويت مع نجيب.

وفي الاجتماع الطارئ للجمعية العمومية للنادي اقترح عبدالناصر الوقوف دقيقة حداداً على روح أحد الزملاء الذى اغتاله البوليس السرى بإيعاز من القصر وكان ذلك سبباً في توتر الموقف على الفور.

أسفر فرز الأصوات عن فوز اللواء نجيب بثمانين في المائة من أصوات الناخبين كما نجح بانتخابات مجلس رئاسة النادي عدا اللواء محمد نجيب اثنان آخران من "الضباط الأحرار" وقد كان ذلك تحدياً سافراً للملك الذى أدرك ذلك وطالب بإعادة الانتخابات كما سحب القرض الذى كان قد منحه لبناء مقر جديد للنادي. أما اللواء محمد نجيب فقد صدر الأمر بنقله إلى خارج القاهرة.

سرعان ما ذاع خبر تورط اللواء حسين سرى في فضيحة كبرى.. سرقة ذخيرة من مخازن الجيش المصري وبيعها إلى الإسرائيليين عن طريق مهربين. أصدر "الضباط الأحرار" على الفور منشوراً يطالبون فيه بتقديم حسين سرى إلى محكمة عسكرية. غير أن الملك كان واضح الميل إلى رفض ذلك ولذا قرر "الضباط الأحرار" تدبير اغتيال اللواء الخائن، قاموا بدراسة خطوات حسين سرى وعاداته ونظامه اليومي وفي اليوم المحدد لتنفيذ العملية قامت المجموعة المسؤولة بالاختباء قريباً من منزله وما أن بارحه حتى دوت طلقات الرصاص. استطاع عبدالناصر الذي شارك بنفسه في العملية وكذلك رفاقه الهرب بعيداً عن قبضة مطارديهم. لم يغمض عبدالناصر جفن حين عاد ليلاً إلى منزله وصار يدخل السجارة تلو الأخرى وها هو يغدو أكثر يقيناً من أن الإرهاب وسيلة غير مجدية للنضال ومن أن مثل هذه العمليات الخطيرة لن تسفر سوى عن تقديم العون إلى البوليس في اقتفائه لآثار أعضاء التنظيم.

وعند الصباح تناول عبدالناصر جريدة الصباح من يد قريبه ليشرع في مطالعتها والرجفة تمسك بيديه وما إن علم بنجاة حسين سرى حتى هدا روعه قليلاً.

وقد كتب عبدالناصر في "فلسفة الثورة" فيما بعد: "بقيت مستلقياً على فراشي في الظلام أشعل السجارة وراء السجارة وأسرح مع الخواطر الثائرة ثم تتبدد كل خواطري على الأصوات التي تلاحقني:

__ أكنتُ على حق ؟

وأقول لنفسي في يقين:

__ دوافعي كانت من أجل وطني.

_ أكانت تلك الوسيلة التي لا مفر منها؟

وأقول لنفسي في شك:

_ ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل؟

_ أيمكن حقاً أن يتغير مستقبل بلدنا إذا خلصناه من هذا الواحد أو

من غيره أم المسألة أعمق من هذا؟

وأقول لنفسي في حيرة:

_ أكاد أحس أن المسألة أعمق.

إذن يجب أن يتغير طريقنا.. ليس ذلك هو العمل الإيجابي الذي يجب أن نتجه إليه.. المسألة أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغواراً".

حاول البوليس تمرير رجاله إلى داخل التنظيم لكن عبدالناصر كان خير مُراعٍ لأساليب العمل السري فلم يكن على سبيل المثال يفصح عن اسمه الحقيقي حين يتحدث تليفونياً مع رفاق النضال. كان جمال يسمى نفسه بزغلول في مثل هذه اللحظات كما كان الأعضاء الجدد يتعرضون لاختبارات مضمّنية قبل أن يوكل إليهم تنفيذ المهما وحين عرض قائد إحدى المنظمات الثورية انضمام منظمته إلى تنظيم "الضباط الأحرار" أجابه عبدالناصر بأنه ترك "مثل هذه الآمال" بعد الفالوجا. كان "الضباط الأحرار" يدركون جيداً ماذا يدور بالجيش وداخل القصر وكان صلاح سالم موضع ثقة وزير الحربية مما جعله ينقل إليه عن عمد المعلومات المضللة.

جرى تعيين خالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة مسؤولاً عن الدعاية داخل الجيش.

كانت هذه الوثيقة المسماة بـ "برنامج العمل" تتضمن بعض المبادئ: القضاء على الاستعمار والإقطاع ، محاربة سيطرة رأس المال، تحقيق العدالة الاجتماعية، نشر الديمقراطية بالمجتمع، تشكيل جيش وطني.

ولم يكن "الضباط الأحرار" التنظيم الوحيد بالجيش. فقد كانت هناك إلى جواره بالقوات المسلحة المصرية "لجنة قسم الجيش" التي كانت تعتبر فرعاً لحدتو ويترأسها أحمد فؤاد.

كان هناك ماركسيون كثيرون في تنظيم الصولات وقد كان هذا التنظيم برئاسة عبدالقادر طه الذي اغتاله الرجعيون قبل الثورة بشهرين وأطلق المصريون اسمه على أحد شوارع القاهرة.

انتشرت على نطاق واسع بالجيش الأفكار السياسية التي كان يتبناها تنظيم حدتو أحد التنظيمات الماركسية العديدة بالبلاد وكان الماركسيون يقومون بنشاط كبير بين "الضباط الأحرار" أيضاً وقد طالب حدتو بالقيام بثورة ديموقراطية والقضاء على السيطرة الأجنبية مما جعل برنامج هذا التنظيم الماركسي قريباً ومفهوماً لدى "الضباط الأحرار". غير أن المؤرخين الغربيين وكُتاب سيرة حياة عبدالناصر، روبرت ستيفنس على سبيل المثال يتحدثون أكثر عن علاقات "الضباط الأحرار" بـ "الإخوان المسلمين" ؛ وقد حدثت هذه الاتصالات حقاً إلا أن تأثير "الإخوان المسلمين" على "الضباط الأحرار" كان أقل من تأثير التنظيمات الديموقراطية اليسارية عليهم ويمكن الحكم على ذلك ولو على أساس "برنامج العمل" الذي أقره مجلس قيادة الثورة.

حدد عبدالناصر مارس ١٩٥٢ موعداً للقيام بالثورة. غير أن أحد "الضباط الأحرار" ويدعى رشاد مهنا انفصل عن التنظيم وهو

الأمر الذى كان يمكن أن يستغله البوليس. حذق الخطر بجمال عبدالناصر وبأصدقائه ولذا تقرر تأجيل الموعد إلى سبتمبر.

كان الملك يقضى عادةً الفترة من مطلع يوليو وحتى نهاية سبتمبر في المنتزه كما كانت ترافقه كل العائلة وكذلك الحشم والخدم والحراس والسائقون والطباخون والحلاقون والمدلكون.

كان يجلس بالشرفة يستمع إلى الموسيقى العصرية بعزفها أوركسترا اتخذ مكانه في تعريشة أقيمت على الطراز الصيني غير بعيد عنه. كان القصر يعج دائماً بالضيوف ولاسيما من النسوة الجميلات وعند منتصف الليل كانت تطفأ الأضواء وينخرط الملك في الرقص. لقد كان فاروق ينسى كل الكوارث المحيطة به أثناء تلك الأمسيات الغرامية الهادئة.

كان الوزراء ينتقلون إلى الإسكندرية كذلك في أثر مليكهم وكانت الدوائر الحكومية تقفر عملياً من موظفيها.

تقدم جمال بطلب إجازة ليرحل عن القاهرة وجوها الخانق إلى مكان هادئ ليتمعن في التفكير حول تفاصيل الثورة. غير أنه تسلم في ١١ يوليو خطاباً عاجلاً يطلبون منه فيه العودة إلى كلية أركان الحرب لإعداد أوراق الامتحانات. غضبت قرينته وأولاده بسبب قطع الإجازة.

أما جمال فكان سعيداً بذلك فلقد كان يود العودة إلى القاهرة بشكل أو بآخر. بيد أن رقابة صارمة كانت قد فرضت على تحركات الضباط ولذا قد كان الخطاب ذريعة جيدة لتبرير عودته إلى العاصمة.

كان هناك بالقاهرة أربعة فقط من أعضاء مجلس قيادة الثورة التسعة وسرعان ما وصل العضو الخامس عبدالحكيم عامر. كان

المرض قد ألمّ به ولذا فقد سمحت له القيادة العسكرية بإجازة قصيرة. طلب عبدالناصر منه أن "يظل مريضاً لفترة طويلة". فقد أكدت الأنباء الواردة من مصادر موثوق بها أن الملك يستعد لضرب "الضباط الأحرار" وفي ١٥ يوليو أصدر الملك مرسوم حل مجلس إدارة نادى الضباط وأبعد بعض الضباط عن مناصبهم بالجيش وأصبح من المتوقع حدوث حملة اعتقالات.

قرر عبدالناصر عقد اجتماع هام لمجلس قيادة الثورة في ١٦ يوليو وجرى الاجتماع بمسكن ثروت عكاشة.

تناول الاجتماع موضوع نشاط "الضباط الأحرار" في ظل الظروف الجديدة. اقترح البعض تدبير اغتيال بعض المقربين إلى الملك من المحتلين الإنجليز. غير أن عبدالناصر لم يكن قد نسى حتى تلك اللحظة محاولة اغتيال اللواء حسين سرى عامر. لقد كان جمال ضد الإرهاب على طول الخط ولذا فقد دعا في ١٨ يوليو إلى اجتماع أعلن فيه صراحةً أن الإرهاب لن يسفر عن أي شيء وأوضح لرفاقه ضرورة إعداد الجيش للثورة.

وجرى الاتفاق حول ضرورة أن يقوم جمال وعبدالحكيم عامر بزيارة محمد نجيب ليحدثانه عن خطتهم. انطلق الاثنان في اليوم التالي يقصدان مسكن محمد نجيب. بيد أنهما وجدا هناك أحد الضباط الشبان والصحفي محمد حسنين هيكل ولذا فقد جلسا برهة من الوقت وتساءلا عن صحة اللواء محمد نجيب ثم انصرفا.

توجه عبدالناصر إلى رئاسة الأركان وهناك انضم إليه عبدالحكيم عامر وكمال الدين حسين حيث قاموا طيلة الليل بوضع الخطة التفصيلية للانتفاضة.

وذكر عبدالناصر:

__ يكفينا كتيبة واحدة من الكتائب العشر الموجودة بالقاهرة.

وأشار كمال الدين حسين:

__ إنها لعبة محفوفة بالخطورة.

وأضاف عبدالحكيم عامر:

__ ليس لدينا حتى الآن دبابة واحدة.

وعلق عبدالناصر على ذلك:

__ كما أنه ليس لدينا سوى عشرة أفراد فقط من القوات الجوية ولذا يتوقف نجاح العملية على دقة التنفيذ.

وعرض عبدالحكيم عامر:

__ ينبغي أن يقوم أنور السادات بإفساد شبكة الاتصالات؛ إنه وإن لم ينضم إلى التنظيم سوى منذ شهرين فقط إلا أنه من سلاح الإشارة ويستطيع الاضطلاع ولو بهذا العبء المتواضع.

وتدخل كمال الدين حسين:

__ لكنه موجود في سيناء.

فذكر عبدالناصر:

__ فلنرسل طائرة لإحضاره، إن حسن إبراهيم يستطيع سرقة طائرة إن تطلب الأمر ذلك.

وبعد بضع ساعات كان حسن إبراهيم يتجه على متن إحدى الطائرات إلى سيناء كما قام عبدالناصر في ذات الوقت بإخطار بقية الموثوق بهم من "الضباط الأحرار" حول ضرورة التواجد بالقاهرة في ميعاد أقصاه ٢٢ يوليو وأعلمهم بالعملية المرتقبة طالباً

منهم ملازمة منازلهم اعتباراً من الثالثة ظهراً وحتى صدور الأمر لهم.

ويقول خالد محيي الدين أن الخطة التي وضعها عبدالناصر كانت واضحة وبسيطة. فقد كان من المفروض على "الضباط الأحرار" في ساعة محددة مداومة ثكنات الجيش والاستيلاء على القيادة. ينبغي اعتقال الضباط غير المتصلين بالعملية ويتوجب على كل مشترك في الانفاضة الاستيلاء على الموقع المحدد له.

عرض عبدالناصر أن تقوم الكتيبة ١٣ مشاة بالاستيلاء على رئاسة الأركان أما الوحدات الأخرى فتتولى الاستيلاء على مطار المازة ومحطة الإذاعة والكباري ومباني البريد والتلغراف. وكان من الواجب بعد ذلك أن يقوم الثوار بالتوجه جميعهم إلى مقر رئاسة الأركان.

لم يكن عبدالناصر طيلة تلك الأيام ينام سوى دقائق معدودات وكان القلق يساور قرينته التي كانت تشاهده مشغولاً بأمور ما. لم يكن يجيب على تساؤلاتها بغير الابتسامة. شاهدته ذات ليلة يعود إلى المنزل ليضع سلة مليئة بالبرتقال تحت السرير. قررت عند الصباح حين قامت لإعداد طعام الإفطار كعادتها تقديم عصير البرتقال وحين تناولت السلة من تحت السرير وجدت القنابل اليدوية تحت ثمار البرتقال. توجهت إلى جمال عند الإفطار تقول:

__ لعل صحتك تكون قد تحسنت منذ صرت تحمل مثل هذه السلال.

لم يرد جمال. ظل كعادته في السابق لا يتحدث إلى زوجته عن عمله السري ولم تكن هي لتستطيع سوى التخمين بذلك.

كان الضباب يدثر القاهرة في تلك الأيام الصيفية الحارة ليغدو الجو خانقاً لا تصلحه سوى رياح باردة تهب عند المساء، كانت المدينة

تغرق في أضواء إعلانات النيون بمجرد حلول الظلام وكان أولئك الذين أرهقهم قيظ النهار يجلسون بالكازينوهات المنتشرة على ضفاف نهر النيل الذي تنساب مياهه في تكاسل كما كانت الشوارع الرئيسية تغص إبان تلك السنين بالناس الذين يرتدون أفخر الثياب ويتحلون بالذهب والماس أما الحواري الضيقة المظلمة فقد كانت تكتظ بالمتشردين الذين يفترشون أرضيتها.

وفي ليلة الثالث والعشرين من شهر يوليو كان قصر المنتزه يشهد الاحتفال ببلوغ ولي العهد فؤاد ستة أشهر. كانت الملكة ناريمان تبدو في أجمل ثيابها مرحة مبتهجة تصدر آخر التعليمات.. لقد أنستها تلك الساعات التي أمضتها على شاطئ البحر أحداث "السبت الأسود" الجسام.

في ٢٢ يوليو وقبيل انتفاضة "الضباط الأحرار" جرى عقد الاجتماع الأخير بمسكن خالد محيي الدين. جرى تدقيق تفاصيل الخطة مرة أخرى. اتفق الحاضرون على اختيار كلمة "نصر" ككلمة للسري. أعد عبدالناصر قائمة تتضمن أسماء ٩٩ ضابطاً يمكن أن يعرفوا كلمة السري. كان على يقين من كل واحد فيهم. لم يجر إبلاغ بقية أعضاء التنظيم بموعد الانتفاضة. قام عبدالناصر في ذلك اليوم بالتحدث بنفسه مع كل واحد تقريباً من الذين تضمنت القائمة أسماءهم موضحاً له المهمة بالتحديد والدقة؛ وهكذا ظل يجب شوارع المدينة طيلة النهار مستقلاً عربته "أوستين" السوداء.

كان الثوريون قد وضعوا قائمة أخرى تتضمن أسماء عشرين لواء ينبغي اعتقالهم.

تقرر عدم السماح للضباط ما فوق رتبة صاغ بدخول الثكنات بعد أن يفرض الثوار سيطرتهم عليها.

جرى الإبقاء على صلاح سالم في سينا خصباً حتى يحول دون إرسال أية قوات من هناك تقمع الثورة.

كان خالد محيي الدين مسؤولاً عن الاستيلاء على المواقع الاستراتيجية في منطقة العباسية-هليوبوليس.

أما عبدالحكيم عامر فكان مسؤولاً عن محاصرة رئاسة الأركان فيما كان عبدالناصر مشرفاً على كل العملية بأسرها.

كان من الضروري تحذير أعضاء التنظيم بالإسكندرية حيث كان يعيش الملك وأعضاء الحكومة وكثير من السفراء الأجانب. قرر عبدالناصر إرسال شقيقه إلى هناك.

قصد عبدالناصر بعد الاجتماع منزل السادات إلا أنه لم يجده هناك ولم يكن ثمة وقت لانتظاره مما دعاه إلى ترك رسالة صغيرة والتوجه للبحث عن الضباط الآخرين.

كان ضباط كتيبة المدرعات موجودين بمنزل عكاشة. أعلنوا عن حاجتهم إلى الرشاشات التي وعد عبدالناصر بالحصول عليها.

كان ضرورياً العثور على الضابط المسؤول عن المخزن السرى للسلاح. غير أن عبدالناصر لم يجده أيضاً بمنزله.

مضى عبدالناصر في طريقه إلا أنه فوجئ بأحد رجال البوليس يستوقفه. اتضح أن السبب هو عدم إضاءة مصابيح سيارته؛ وبعد فترة شجار غير قصيرة تركه رجل البوليس وحال سبيله.

واصل عبدالناصر مروره على الضباط. أدركه التعب الشديد ليقرر الذهاب إلى بيته. كانت الزوجة والأولاد قد ناموا بينما كان شقيقاه شوقي والليثي يجلسان إلى جوار جهاز الراديو. قام بتغيير ملابسه. سمع طرقاً على الباب. عرف جمال على الفور أن الطارق من

العسكريين. لقد كان سعد توفيق الملازم أول بالمخابرات الحربية.
لم يكن اسمه مدرجاً بقائمة الضباط التسعة والتسعين. فقد كان
عبدالناصر يخشى اشتراكه في العملية.

_ ماذا يجرى الليلة يا جمال ؟

تساءل سعد وهو ما يزال واقفاً بالبواب.

هز جمال رأسه وطلب منه الدخول.

_ هناك شيء يجرى الليلة أليس كذلك ؟

وينفي عبدالناصر.

_ لماذا إذن ترتدى بدلتك الرسمية ؟

وهنا رد جمال بلهجة مفعمة بالغضب:

_ هل جئت لاستجوابي ؟

_ لا، بل جئت لأبلغك بضرورة التأجيل

_ تأجيل ماذا ؟

_ ما ستفعله مهما كان.

_ لماذا ؟

_ لأنهم يعرفون.

_ من يعرف ؟

_ لقد علم فاروق بأن هناك انقلاباً يجرى إعداده واتصل برئاسة

هيئة أركان حرب الجيش.

_ حسناً ومن أيضاً ؟ أخبرني بسرعة.

وكان ذلك أمراً غير متوقع.

_ لقد أمر رئيس هيئة أركان حرب الجيش جميع قواد الفرق واللواءات بالحضور في الحال إلى القيادة العامة بكوبرى القبة.

_ وكيف عرفت كل ذلك؟

أجاب سعد:

_ أنا اليوم ضابط نوبتجي في إدارة المخبرات.. لقد استطعت بالكاد التفرغ حتى أبلغك بذلك.. أرجو تأجيل العملية.

_ كلا، هذا مستحيل.

أجاب عبدالناصر بعد أن وثق في سعد أخيراً ثم مضى يقول:

_ لقد بدأت العجلة تدور ويجب أن ندور معها والآن تستطيع أن تعود إلى عملك.

وهنا رد سعد قائلاً في حدة:

_ لا أعتقد أنى سأتركك أريد أن أشترك معكم وهذا هو السبب في أنني من "الضباط الأحرار".

طلب جمال من سعد العودة إلى بيته على وجه السرعة وتغيير ملابسه وحمل سلاحه والتوجه إلى المكان المتفق عليه.

تحول جمال بعد ذلك إلى شقيقه يقول لهما:

_ "أملك مائتي جنيه، سأحتفظ بمائة لنفسى وأعطيكما الباقي فإذا حدث شئ لي الليلة فأعطيا النقود لتحية فبهذا المبلغ بالإضافة إلى دخلها الخاص ستكون في وضع حسن ولكن اهتما بها وبالأولاد".

استقل عبدالناصر سيارته متوجهاً إلى عبدالحكيم عامر أبلغ جمال
المجتمعين لدى عبدالحكيم نبأ الاجتماع الطارئ بمقر رئاسة
الأركان.

_ حبذا لو استطعنا القبض عليهم جميعاً وهم هناك.

ندت هذه الجملة عن جمال عبدالناصر.

تحدد منتصف الليل ساعة الصفر بينما كانت عقارب الساعة تشير
آنذاك إلى الحادية عشر واثنين وأربعين دقيقة.

اقترح عبدالحكيم عامر:

_ فلنذهب إلى الثكنات لإيقاظ الجنود.

كان المدخل الرئيسي للمعسكرات مغلقاً كما تجمع الكثيرون من
البوليس الحربى إلى جوار البوابة، توجهوا نحو البوابة الأخرى
التي كانت بدورها مغلقة وسأل عبدالناصر:

_ من الذى فعل ذلك؟

وأجابه عبدالحكيم عامر:

_ لا أدرى فلنحاول من الجهة الأخرى.

وهنا فقط تذكر عبدالناصر أنه لم يذهب إلى سعد توفيق. كانت
الساعة قد بلغت الحادية عشر وخمسين دقيقة. قرر الوفاء بوعد
والذهاب إليه وعند ضاحية "عين شمس" شاهد عبدالناصر وعامر
قولاً من المصفحات.

أشار عبدالناصر وهو يدوس على فرامل السيارة:

_ إن الأعداء يتحركون بسرعة.

ذكر عبدالحكيم عامر:

_ يبدو لي أنهم بعض رجالنا المتهورين.

توقفت السيارة تماماً. أدرك كلاهما حين اقتربت منهما طلائع القول
أن المصفحات من الكتيبة ١٣.

أصدر ضابط شاب أمره فجأة بمحاصرة السيارة. صاح في لهجة
جافة يقول لعامر:

_ يمكنك أنت الانصراف.

ثم توجه يلوح بمسدسه في وجه عبدالناصر قائلاً:

_ أما أنت فمقبوض عليك. محظور على الضباط من رتبة صاغ
وما فوق التجول هذه الليلة.

بدأ عبدالناصر يعرب عن فروغ صبره فالوقت يمضى بينما من
المؤكد أن يكون القادة قد فرغوا من اجتماعهم برئاسة الأركان. من
المحتمل أن يصدروا إشارة الإنذار.

ذكر عبدالناصر:

_ إنني أعرف قائدك.

_ أنت لا تعرف أحداً إنك لا تعرف حتى ماذا تعنى هذه الليلة..
وفي هذه اللحظة وصلت عربية "جيب". تعالى منها صوت ينادى:

_ جمال.. ماذا تفعل هنا؟

عرف عبدالناصر في المنادى شخصية البكباشي يوسف صديق قائد
الكتيبة. كان قد طلب منه في الصباح عدم المشاركة في العملية
نظراً لأنه كان مصاباً بالسل ويعانى من نزيف في الصدر. غير أن

يوسف كان ماركسياً يحلم طيلة حياته بالثورة. علت الابتسامة وجهه. فقد كانت غالبية ضباط كتبيته من طلبة عبدالناصر في الماضي.

ذكر جمال:

_ لقد قبضوا علينا.

رد يوسف صديق:

_ إن قائد فرقنا أيضاً مقبوض عليه، إنه يجلس في عربتي، المجموعة جاهزة لتنفيذ المهمة.

قام عبدالناصر بتوضيح الخطوط العريضة للمهمة ثم قال:

_ ينبغي على كتبتك الآن وفوراً إلقاء القبض على القادة المجتمعين برئاسة الأركان وقبل أن يفرغوا من اجتماعهم.

صدر الأمر وواصلت الكتيبة مسيرتها.

حاصرت كتيبة يوسف صديق مقر رئاسة الأركان. حاول الحرس المقاومة. استمر تبادل إطلاق النيران حوالى عشر دقائق خرج بعدها المجتمعون وقد رفعوا أيديهم فوق رؤوسهم.

ذكر عبدالناصر:

_ إنهم يزيدون ثمانية عما أدرجته بالقائمة.

وصل أنور السادات في تلك الآونة.

حاول السادات في خطبه وأحاديثه ومذكراته تصوير نفسه وكأنه المسؤول الأول والأب الروحي للثورة المصرية لكن الأمر كان على النحو التالي.. استطاع حسن ابراهيم وبتكليف من جمال

عبدالناصر الوصول إلى سيناء وإبلاغ السادات بأن الموعد المحدد للثورة هي الفترة من ٢٢ يوليو حتى ٥ أغسطس. توجه السادات إلى قائده يخبره بمرض أمه ليحصل على التصريح بالسفر. استقل القطار ليصل القاهرة في ٢٢ يوليو. غير أن عبدالناصر لم يلقيه في ذلك اليوم ليوكل عملية تخريب شبكة الاتصالات إلى ضابط آخر. كتب السادات يقول:

"وصلت القاهرة يوم ٢٢ يوليو... ولكنى لم أجد عبدالناصر في انتظاري على محطة السكة الحديد كعادته فقلت في نفسي لا بد أن الوقت لم يحن ولذلك توجهت إلى بيتي واصطحبت زوجتي إلى السينما ولكنى عندما عدت إلى البيت في منتصف الليل وجدت بطاقة من عبدالناصر يطلب منى فيها أن أقبله في منزل عبدالحكيم عامر الساعة ١١ مساءً وعلمت من البواب الذى سلمني هذه البطاقة أن عبدالناصر قبل أن يترك البطاقة أتى إلى بيتي مرتين؛ مرة في الساعة الثالثة مساءً ومرة في العاشرة".

وجديرة بالإشارة حقيقة أن السادات لم يتوقف طويلاً في مذكراته الأخيرة عند موضوع دخول السينما ليلة الثورة على النقيض مما كتبه فيما سبق. فقد كان عبدالناصر ما يزال آنذاك على قيد الحياة وهو الذى كان يعرف بالتأكيد السبب الذى جعل السادات يعزف عن الاتصال به فور وصوله من العريش. بيد أن السادات لم يُشر في أي من كتبه إلى تلك الواقعة التي حدثت بالسينما يومذاك ولم يتضح ذلك إلا من المواد التي ضمّنها الكاتب المصري غالى شكري كتابه "الثورة المضادة" الذى صدر في بيروت. لقد اتضح فيما بعد ومن سجلات قسم البوليس التابعة له دار سينما "المنيل" أن السادات افتعل شجاراً مع جاره أثناء العرض متهما إياه بمعاكسة زوجته وحين وصل جنود البوليس أصر السادات على

تحرير محضر يتضمن أسماءهم وأسماء الشهود فلقد كان يأمل الاستفادة من هذا المحضر في حالة فشل الثورة مؤكداً عدم اشتراكه فيها.

وقد علم قادة الثورة المصرية بكل ذلك فيما بعد.

"غيرت ملابسى وأخذت مسدسى معى وتوجهت إلى منزل عامر وطبعاً لم أجده فذهبت إلى ثكنات الجيش فى العباسية ولم أكن أعرف كلمة السر بطبيعة الحال فمنعونى من الدخول وعندما تبينوا رتبتي طلبوا منى أن ألزم بيتى". ... "ناورت وحاولت مرة أخرى وعدت إلى أن التقيت بعبدالحكيم عامر وهو ينظم مرور القوات؛ ناديت عليه؛ لم يكن فى موقف يستطيع فيه أن يرانى ولكنه تعرف على صوتى؛ عرفت منه أن القيادة قد سقطت".

لم يكن عبدالناصر على دراية جيدة بماضى السادات حين ضمه إلى تنظيم "الضباط الأحرار". كانت تدور حوله الإشاعات الكثيرة. بيد أن الشئى اليقين كان سجنه مرتين لأسباب سياسية. لم يكن ثمة وقت للبحث فى تفاصيل الأمر. فقد كانت البلاد حبلى بالثورة. لم نتعرف على تفاصيل عملية سجن السادات إلا بعد مضى العديد من السنوات وبعد نشره لكتابه "البحث عن السادات" الذى صدر بالقاهرة عام ١٩٧٨ متضمناً اعترافاته الشخصية.

"فى أواخر عام ١٩٤١ التقيت بعزيز المصرى فى جروبي بناء على طلبه.. كان بحاجة إلى مساعدة تنظيم "الضباط الأحرار" لتمكينه من السفر إلى العراق. فقد وصلتة رسالة من الألمان يطلبون فيها سفره لمعاونة رشيد عالى الكيلانى فى ثورته التى قام بها فى العراق ضد الإنجليز".

"كان الاتصال أول الأمر قاصراً على زملاء السلاح والسن في دفعتي ولكن انتصارات هتلر المتلاحقة في سنة ٣٩، ٤٠، ٤١ شملت الكثيرين ممن التحقوا بالجيش بعدنا ونفراً غير قليل ممن كانوا أسبق في الخدمة منا".

"هكذا قام أول تنظيم سرى من الضباط وكان ذلك في سنة ١٩٣٩". غير أن هذه المنظمة لم تكن ذلك التنظيم الذي شكّله جمال عبدالناصر وقام بالثورة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ورغماً عن ذلك فقد نسب السادات بعد توليه لرئاسة الجمهورية تشكيل ذلك التنظيم إلى نفسه.

كان عبدالناصر قد شكّل تنظيم "الضباط الأحرار" على أسس تتباين تماماً مع تلك التي أعلن السادات بنفسه عنها فيما سبق: "لم تكن لدى خلايا سرية تستهدف تنظيم الثورة المسلحة مثل تلك التي أقامها عبدالناصر بعد عودته من السودان في ديسمبر ١٩٤٢".

إن المجموعة التي يتحدث عنها السادات كانت تتسم بطابع ضيق وإرهابي كما أكد بنفسه ذلك.

سرعان ما تسلم السادات خطاباً بعث به الألمان إليه يؤكدون فيد أن إحدى طائراتهم سوف تكون في انتظار عزيز باشا على طريق الفيوم في اليوم المحدد عند غروب الشمس. غير أن عزيز باشا لم يستطع الوصول إلى الطائرة وعندئذ جرت محاولة تهريبه على متن طائرة حربية إلى بيروت لكن الطائرة اضطرت إلى الهبوط في الحقول المجاورة لبنها. استطاع عن طريق أحد الموظفين التسلل إلى القاهرة والاختباء بها.

جرى العثور في الطائرة على حقيبة عليها الحرفان A.M. أي عزيز المصري الذي بدأت الشكوك تحوم حوله. اكتشف أن

الطائرة كانت متجهة إلى بيروت وحول هذا الموضوع كتب
السادات يقول:

"ولما كانوا على معرفة باتصالاتي به قبضوا عليّ فوراً في
الجروالة ونزلوا بي إلى القاهرة وأنا تحت الحراسة".

استطاع السادات عند التحقيق في محاولة هروب عزيز باشا
المصري إلى بيروت التملص من المسؤولية كما ذكر بنفسه.

لقد حاول في حديثه عن نشاطه لصالح الفاشيست تصوير نفسه
محاطاً بـ "هالة" المناضل في سبيل حرية واستقلال مصر ضد
الإنجليز على الرغم من أنه كان معروفاً بشكل جيد إدراك
المناضلين الحقيقيين في سبيل الاستقلال والوطنيين الغيورين لمدى
خطورة الفاشيست الذين يسعون إلى الاستيلاء على نفط الشرق
الأوسط وإلى استعباد العرب وكان مصير ليبيا التي داسوها
بأقدامهم خير دليل للوطنيين العرب على المطامع الحقيقية
للفاشيست.

لم يتدنّ عبدالناصر ورفاقه في التنظيم مهما كانت درجة كراهيتهم
للإمبريالية الإنجليزية إلى حد خدمة الهتلريين الذين كانوا يحتقرون
بشكل سافر العرب بوصفهم "أمة لا وزن لها". غير أن السادات
يكتب في مذكراته: "اتفقنا على أن نرسل أحدنا إلى رومل في
العلمين ليقول له أننا مصريون شرفاء وأن لنا تنظيمنا داخل الجيش
ونحن مثلكم ضد الإنجليز وعلى استعداد لكي نجند من بيننا فرقاً
كاملة تحارب إلى جانبكم وأن نزودكم بصور جميع خطوط ومواقع
القوات البريطانية بمصر وفوق هذا كله نتكفل بالألأ يخرج عسكري
إنجليزي واحد من القاهرة".

تلك هي سمات "الوطني الغيور" أنور السادات.

كان السادات قد كتب بنفسه هذه المقترحات المعروضة على الهتلريين والتي يصفها "شروطاً للاتفاق"، هكذا دون زيادة أو نقصان وأرسلها فيما بعد عن طريق شخص يدعى أحمد سعودي على متن طائرة استطاعوا توفيرها لنقله من القاهرة إلى العلمين. غير أن السادات لم يقتصر على إرسال المقترحات والصور الفوتوغرافية. فقد انطلق إلى السوق حيث اشترى عشرة آلاف زجاجة فارغة لملئها بالمواد الحارقة واستخدامها ضد من تسول له نفسه مقاومة الفاشيست حين يقوم الهتلريون بهجومهم.

جرى إسقاط الطائرة أثناء تحليقها فوق المواقع الألمانية بالقرب من العلمين على الرغم من إشارات التحذير الودية التي كانت تصدر عنها وقضى على كل شئى بعث به السادات إلى رومل وقد أثار الادعاء العسكري قضية اختطاف الطائرة ولكن السادات استطاع في هذه المرة أيضاً النجاة بنفسه بينما جرى القبض على بعض رفاقه. غير أنه حدثت في تلك اللحظة وكما كتب السادات "مفاجأة لم أكن أتوقعها. فقد أتى إلى زميلي حسن عزت ليقول أن ضابطين من الجيش الألماني يريدان الاتصال بي للتعاون ففرحت وقلت هذه نجدة من السماء".

"كان أحد الضابطين من أم ألمانية تزوجت من أحد المصريين قضى جزءاً كبيراً من حياته في مصر ويتحدث العربية كأحد أبنائها، أما الضابط الآخر زميله فكان ضابط إشارة لا يعرف العربية إطلاقاً، عرض الضابطان علىّ جهازين أحدهما ألماني وهو المعطل بينما الآخر أمريكي جديد تماماً وهو جهاز قوى تماماً وممتاز ولكن أبلر أخبرني أنه بعد عطل الجهاز الألماني اتصل سراً بسفارة سويسرا التي كانت ترعى شؤون ألمانيا في مصر وأن القائم على هذه الرعاية وهو ألماني قد أمدهما بجهاز لاسلكي

أمريكي وجدت أنه أفضل بكثير من الجهاز الألماني المعطل ولكن ليست عند الجاسوسين مفاتيحه فاقترحت أن أشغله بمفاتيح مصرية، ووافقا وبالفعل أخذت الجهاز معي وناديت "تاكس" وضعته فيه وتوجهت إلى بيتي في كوبرى القبة.

في البيت جربت الجهاز فوجدته في منتهى القوة والجودة وكنت سعيداً بذلك كل السعادة فأخيراً سنتمكن من الاتصال برومل ونعرض عليه شروطنا التي سبق أن ضمنها مشروع المعاهدة معه والتي بت أعتقد أنها لم تصله وإلا ففيم هذا الصمت وإلى متى نترك الأمور كما هي والوقت يجرى بسرعة ورومل قد يدخل القاهرة في أية لحظة".

"لم تكن عندي أية فكرة أن أبلر وزميله ساندي مراقبان ولذلك فوجئت في الصباح عندما وصلتني أنا وحسن عزت رسالة من عبدالغني سعيد -وهو الأصل في صلتنا بالجاسوسين- بأن أبلر وزميله قد قبض عليهما بمعرفة المخابرات البريطانية".

"وفي نفس الليلة وصل زوار الفجر..". وهكذا ألقى القبض على السادات. غير أن البوليس لم يعثر عند تفتيش المنزل على جهاز اللاسلكي الذي استطاع شقيقه تهريبه ومع ذلك فلم يستطع في هذه المرة تضليل أجهزة التحقيق. قضى السادات في السجن الفترة من ١٩٤٢ وحتى عام ١٩٤٤ ونجا بالكاد من حبل المشنقة.

ألقى القبض مرة أخرى على السادات لعلاقته بالجواسيس الألمان ليودع السجن الذي هرب منه ليبدأ على الفور كما ذكر بنفسه في إعادة تشكيل تنظيمه السرى. كان ذلك في سبتمبر ١٩٤٥ وكانت ألمانيا الهتلرية قد سقطت فمن ذا الذي كان السادات يضمه إلى تنظيمه؟ لقد كان يستميل أقارب أولئك الذين كانوا شأنه يخدمون مصالح الهتلريين والإرهابيين وذوى الماضي المريب، ومن هؤلاء

كان عمر أبو على شقيق أحمد سعودي الطيار الذي بعث به السادات إلى رومل وأسقط الألمان طائرته صدفة وكذلك شخص آخر يدعى حسين توفيق كان يمارس الإرهاب الفردي ضد الإنجليز.

ويطرح السادات بشكل ديماجوجي السؤال التالي: "هل يعتبر اغتيال حفنة من الجنود الإنجليز طريقاً لتحرير مصر؟" ويرد على نفسه بنفسه: "كلا بالطبع". ويعلن في ذات الوقت أنهم لم يقرروا اغتيال أحد الجنود الإنجليز العاديين بل النحاس باشا زعيم حزب الوفد ورئيس الحكومة المصرية إبان سنوات الحرب العالمية الثانية وهي الحكومة التي قامت بنشاط كبير ضد العملاء الفاشيست بالبلاد.

ومن المعروف أن حكومة النحاس باشا قامت حتى في ظروف الحرب بتنفيذ عدد من الإصلاحات الاجتماعية الاقتصادية التقدمية. فقد أقامت العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي وأقرت التعليم المجاني الإلزامي وخفضت حجم الضرائب المفروضة على صغار المزارعين واعترفت لأول مرة في تاريخ البلاد بحق الاتحادات النقابية في ممارسة نشاطها المشروع وكانت الرجعية العربية تعرب عن استيائها في تلك الآونة من نشاط النحاس باشا ولذا فقد سارع الإنجليز في أخرج لحظات الحرب بتتحيته عن رئاسة الوزارة ولم ينجُ النحاس باشا من الموت إلا بالصدفة البحتة.

فقد كتب السادات يقول إنه أعد بنفسه خطة اغتيال ذلك الرجل وتولى رقابة تلك العملية التي لم يكتب لها النجاح.

وحول مدى جدية الدوافع الوطنية لدى أعضاء تلك المنظمة السرية تشهد واقعة القبض اثر إحدى العمليات الإرهابية على حسين توفيق عضو المنظمة الذي اعترف على زملائه، لقد اتضح أن الدافع

الأساسي لديه كان رغبته في أن يصبح "بطلاً" كما اعترف أعضاء المنظمة الذين قبض عليهم استناداً إلى اعترافات حسين توفيق على بقية الأعضاء بما فيهم السادات الذي اعترف بدوره بأن الإرهابيين كانوا يملكون مخزناً للأسلحة بجبل المقطم.

كان السادات مهدداً بتوقيع أقصى الجزاء عليه بما في ذلك احتمال إعدامه رمياً بالرصاص. غير أن ورغماً عن ذلك أطلق سراحه بعد فترة سجن لم تدم سوى واحد وثلاثين شهراً وهذا ما يجعلنا نشك في وجود شخصية ما قوية ساعدت على الإفراج عنه.

من عادات أهل القاهرة السهر إلى وقت متأخر من ليالي الصيف الحارة كما تعج شوارع المدينة بالحركة حتى مطلع الفجر. غير أن الطرقات أقفرت في تلك الليلة وخبث الأضواء في البيوت وأغلق أصحاب الحانات والملاهي الليلية أبوابهم.. أخذت طوابير الجنود والدبابات الثقيلة تجوب شوارع القاهرة مما جعل الناس يظنون أن الجيش الإنجليزي المتمركز في منطقة القناة قد دخل العاصمة.

قام عبدالناصر بعد أن تأكد بنفسه من سير العملية حسب الخطة الموضوعية بالتوجه إلى مقر رئاسة الجيش ليتخذ مكانه إلى جوار جهاز التليفون. لم يجر تنفيذ الأمر الصادر بتخريب شبكة الاتصالات. غير أن هذا كان في تلك اللحظات من حسن حظ الثوار. فقد كانوا قادرين على معرفة ما يدور بالمناطق الأخرى من البلاد. رن جرس التليفون بعد دقيقة. كان الأمير الاني النجومي يسأل من الإسكندرية عن مكان رئيس الأركان.

أجابه عبدالناصر:

__ الباشا يتفقد الوحدات.

عاد النجومي يسأل:

_ من المتحدث ؟

_ ضابط نوبتجي.

_ أبلغوني تليفونياً أن الرصاص يطلق بالشوارع لكن الاتصال قطع أثناء المكالمة، ما لذي يحدث بالعاصمة ؟

مضى عبدالناصر يطمئنه:

_ لا شئ يستحق الاهتمام.

كان الثوار قد فرضوا سيطرتهم على العاصمة لكن عبدالناصر كان يرى ضرورة الحذر نظراً لأن السلطة كانت ما تزال بيد الملك في الإسكندرية. أما "الضباط الأحرار" هناك فلم يثقوا في صحة رسالة عبدالناصر عند تسلمها خوفاً أن تكون مزورة.

لم ينقطع رنين التليفون طول الوقت. رفع السماعه جمال الذي أدركه الإنهاك ليقول بنبرة آليه:

_ جمال عبدالناصر.. أفندم.

_ ماذا تفعل عنك يا جمال ؟

تساءل بصوت ينم عن دهشة بالغة الأمير الاي الذي كان مدرساً لعبدالناصر فيما سبق.

_ من الأفضل يا سعادة الأمير الاي أن تكف عن الأسئلة وتخلد إلى النوم.

أجابه عبدالناصر ثم ألقى بسماعة التليفون إلى مكانها.

رن جرس التليفون بعد بضع لحظات. رفع جمال السماعه. كان اللواء محمد نجيب هو المتحدث:

- اتصلوا بي من الإسكندرية لمعرفة ماذا يحدث برئاسة الجيش.
أجابه جمال:

_ لقد قام "الضباط الأحرار" هذه الليلة بثورتهم. سنرسل إليك
سيارة.

وصل محمد نجيب في الثالثة بعد منتصف الليل. هنا عبدالناصر
بالنجاح. جلس الاثنان يناقشان سوية الأوضاع بالبلاد.

صدر الأمر إلى على صبري رئيس مخابرات سلاح الطيران
بالحضور إلى مقر رئاسة الجيش. أوكل إليه عبدالناصر الاتصال
على وجه السرعة بسفارة الولايات المتحدة الأمريكية وإبلاغها بنبأ
الثورة وبأن اللواء محمد نجيب هو قائدها: "فلتطمئن الأمريكيين
بأن الثورة غير موجهة إلى بلدان أجنبية ولتطلب من سفير
الولايات المتحدة الأمريكية إبلاغ السفير البريطاني بذلك".

وبعد بضع دقائق ذكر على صبري أنه اتصل بالسفارة تليفونياً وأن
السفير الأمريكي كافري وعد بإبلاغ الإنجليز بذلك. وهكذا أمن
عبدالناصر جانب الأمريكيين وكانت خطوة تتسم بالذكاء. فقد كانوا
يأملون في التعاون مع النظام الجديد ما دام ممثلوه قد أعربوا عن
مثل ذلك الاهتمام بالسفارة الأمريكية، أما لندن فقد أخطرت لأن
تأخذن موقف الحذر نظراً لأن الإنجليز علموا بالثورة عن طريق
سفارة الولايات المتحدة الأمريكية.

أعلنت مفارز الاستطلاع على طريق السويس عن أنباء توحى
بالطمأنينة فليست ثمة تحركات للقوات الإنجليزية هناك.

وفي الساعة الرابعة قبيل الفجر وصل الصاغ حسين الشافعي وقد
بدا الإرهاق واضحاً عليه ليقول:

_ غادر رئيس الأركان الإسكندرية لمعرفة حقيقة ما يجرى ليقع في قبضتنا. حاول في البداية تهديدنا ثم تحول بعد ذلك إلى تذكيرنا بما أقسمنا عليه. قمنا باعتقاله. احتلت قواتنا كل المواقع الاستراتيجية بما فيها محطة الإذاعة والمطارات ومحطة السكة الحديد. غير أن حسين سرى عام استطاع الفرار وهذا بالذات هو ما أثار قلق في نفس عبدالناصر.

في الخامسة صباحاً رن جرس التليفون كان المتحدث رئيس مجلس الوزراء نجيب الهلالي من الإسكندرية. سلم عبدالناصر السماعه إلى محمد نجيب. كان الحديث مرهقاً وطويلاً. فقد كان الهلالي يعرض تشكيل حكومة جديدة يشغل فيها محمد نجيب منصب وزير الحربية وهذا يعنى أن الملك أقدم على التنازلات. لقد أدرك وزير الخوف القصر. رفض محمد نجيب العرض بعد التشاور مع عبدالناصر وعامر.

أعد عبدالحكيم عامر نص بيان الثورة لنشره بالصحف. جرى اجتماع قصير لمناقشة موضوع تقديم محمد نجيب إلى الشعب. عرض عبدالناصر تسميته "بالقائد العام للقوات المصرية المسلحة" .. وافق الجميع.

وفي السابعة من صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أذيع بالراديو البيان التاريخي حول قيام الثورة بتوقيع محمد نجيب.

تحدث اللواء محمد نجيب بعد إذاعة البيان أمام مجموعة من الصحفيين بينما دعا عبدالناصر أحد الأصدقاء ليقول له:

_ اذهب إلى زوجتي وأبلغها بما حدث. قل لها أنني أقسمت على ألا أعود إلى بيتي حتى يغادر فاروق أرض مصر.

جرى بعد ذلك اجتماع مجلس قيادة الثورة حيث نوقشت القضايا المتعلقة بتشكيل الحكومة. عرض عبدالناصر إيكال الأمر إلى علي ماهر موضحاً أن رئيس الحكومة ينبغي أن يكون شخصاً ذا كلمة مسموعة بالقصر يستطيع إقناع فاروق بالتنازل عن العرش.

تركوا أمر الاتصال بعلي ماهر إلى أحد الضباط. كان المرشح لرئاسة الوزارة بالحمام حين وصل ذلك الضابط الذي ظل يتحدث طويلاً وبشكل منمق كما يهوى علي ماهر يطرح الاتهامات الواحد تلو الآخر ضد الملك وحتى أدرك السياسي القديم معنى الثورة التي حدثت بالبلاد. وعد علي ماهر بالتفكير في الأمر.

ظهر اسم محمد نجيب بصدر الصفحات الأولى لكافة الجرائد العالمية. خرج إلى المدينة عند الظهر لتستقبله الجماهير الغفيرة من سكان القاهرة معلنة عن ابتهاجها. غير أنه لم يكن هناك سوى البعض القليل الذي يعرف من هو القائد الحقيقي للثورة وظل عبدالناصر في نظر الغالبية العظمى من المصريين ضابطاً يتسم بالتواضع والعزوف عن الشهرة وقد كتب عبدالناصر فيما بعد: "أمرت ألا يذاع اسم أي شخص ما عدا نجيب. أردت أن يكون الضوء كله مسلطاً عليه والسبب الرئيسي لإصداري هذا الأمر أنني لم أكن أريد انشقاقاً في صفوف الضباط الأحرار. كنا جميعاً في الثانية والثلاثين أو الثالثة والثلاثين؛ والرابعة والثلاثين فيما عدا خالد محيي الدين الذي كان أصغر منا بقليل وكنا كلنا متساوين في الرتب تقريباً وكنت أعلم أن البريطانيين وأعداءنا في الداخل سيحاولون استعداد كل واحد منا على الآخر. هذا إذا ما أتحنا لهم الفرصة. ولكن إذا حكّمنا عقلنا وجعلنا رجلاً أكبر منا مثل نجيب الرئيس الاسمى فإننا سنحافظ على وحدتنا".

جرى بالبلاد فرض رقابة صارمة من مهامها متابعة عدم تسرب أسما أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى صفحات الصحف.

نسبوا خطة الإعداد للثورة إلى اللواء محمد نجيب ونشرت سيرة حياته بالولايات المتحدة الأمريكية وبعد بضعة أسابيع من قيام الثورة أتيح لأحد مشاهير الصحفيين الإنجليز الالتقاء بعبد الناصر فأصابته الدهشة.

وتحدث الإنجليزي عن انطباعاته إلى محمد حسنين هيكل:

_ إنه يتكلم كما يتكلم الشيوعيون ألا تستطيع تدبير لقاء لي مع محمد نجيب؟

لم يكن عبدالناصر محط اهتمام الصحفيين الأجانب كثيراً.

لقد انتصرت الثورة. غير أن إشاعات صارت تنتشر حول أن الملك القابع بالإسكندرية يعد لانقلاب مضاد ومن ثم ينبغي العمل على وجه السرعة. أصدر عبدالناصر أمراً بتحريك لواءين إلى الإسكندرية، اتخذ أحدهما الطريق الصحراوي بينما توجه الآخر عبر الطريق الزراعي؛ وفي اليوم التالي وصل نبأ القبض على حسين سرى عامر بالصحراء وإرساله تحت الحراسة إلى القاهرة.

رن جرس التليفون بعد بضع ساعات، كانوا يبلغون "الضباط الأحرار" بأن محمد نجيب الذي سافر إلى الإسكندرية برفقة السادات قوبل بترحاب شديد. بيد أن ثمة أمراً أثار القلق. لم يكن هناك بالإسكندرية من يعلم مكان الملك. أصدر عبدالناصر تعليماته بالاستفسار عن ذلك على الفور وجاءت بعض المعلومات تشير إلى أن الملك تباحث مع الإنجليز وطلب منهم إرسال بعض قواتهم المرابطة بمنطقة قناة السويس.

وصلت قوات الثورة إلى الإسكندرية بعد يومين وعين عبدالناصر زكريا محيي الدين مسؤولاً عن العملية ثم جرى إعداد الوثيقة التي كان من المفروض أن يقدمها علي ماهر إلى الملك. اختلفت الآراء في مجلس قيادة الثورة حول مصير الملك، كان صلاح سالم يصر على إعدامه بينما أصاب التردد زكريا محيي الدين أما محمد نجيب فلم يشترك في النقاش. وفي صباح اليوم التالي وصل جمال سالم إلى القاهرة وطالب هو أيضاً بإعدام الملك.

اجتمع أعضاء مجلس قيادة الثورة الخمسة الموجودون بالقاهرة، تحدث جمال سالم في البداية ثم أعقبه جمال عبدالناصر:

_ لو أعدمنا فاروق فسوف يقوم الشعب غداً بتنفيذ مثل هذا الحكم في ثلاثمائة من حاشيته مما يؤدي بنا إلى مذبحة جديدة يصعب علينا وضع حد لها.

استمر الجدل حول هذا الموضوع بضع ساعات لينتهي بموافقة الأغلبية على رأى عبدالناصر.

لقد كان عبدالناصر ومنذ أولى أيام الثورة يتميز بتلك السمات التي كانت تعينه عند مشارف الهاوية وهي الحرص والاعتدال والرأي الصائب ولم يكن عبدالناصر بعد أن أظهر حزمه وصلابته في اللحظات الحرجة للثورة يود المغامرة حين تحددت بوادر نجاح الثورة.

كان هذا القرار صائباً. فقد حال دون تدخل الإنجليز كم أظهر عبدالناصر بإصراره على اتخاذ مثل هذا القرار قدرته على حسن المناورة وقد كتب محمد نجيب فيما بعد وعلى الرغم من تباين الكثير من آرائه مع عبدالناصر وتحامله عليه بعد ذلك لأسباب

شخصية: "إنني لم أشعر أبداً تجاه عبدالناصر بمثل ذلك الإعجاب الذي شعرت به إزاءه في تلك اللحظة".

أما ظهور فاروق فيما بعد في أوروبا وحفلاته وحياته الماجنة هناك والتي تناقلت أنباءها كل صحف العالم. فقد عادت على الثورة المصرية بفوائد جمة لم يكن ليعود بها إعدامه الذي طالب به بعض "الضباط الأحرار".

سرعان ما رن التليفون مرة أخرى في مكتب عبدالناصر. كان "الضباط الأحرار" بالإسكندرية يبلغونه نبأ استيلاء قوات الثورة على قصرى "المنتزه" و"رأس التين"؛ وخبر تحليق الطائرات في الجو للحيلولة دون فرار الملك.

كان فاروق قد شاهد ذات مرة أثناء إحدى رحلات الصيد أسداً يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن لدغته كوبرا. راح الفنان الهادي صاحب التاج يرسم بعض الرسوم الكروكية حيث صور أسداً يهاجم قرداً عاجزاً عن حماية نفسه، كوبرا تلدغ أسداً وعُقاباً ينقض على كوبرا وقد قام أحد المثاليين الإيطاليين بنحت مجموعة من التماثيل تجسد تلك الرسوم الكروكية التي أودعها فاروق مفكرته. لقد كان فاروق شديد الفراسة حين لاحظ أن حياة القصر أشبه بعالم الصحراء الذي لا مكان للشفقة فيه.

كان فاروق وهو لا يزال بعد في مقتبل العمر قد غادر إنجلترا حيث تلقى العلم عائداً إلى مصر لتولى العرش بعد وفاة أبيه الملك فؤاد. كان البعض يتوقع للمليك الشاب مستقبلاً باهراً. غير أن "أمل مصر" لم يتجلَّ إلا في هواية جمع الطوابع والقطع النقدية التي كان يستبدلها له مشاهير المتخصصين في هذه الهواية في باريس وروما وجمع الفراشات التي كانوا يرسلونها إليه من النمسا والبرازيل.

سرعان ما تزوج فاروق من ابنة أحد كبار الإقطاعيين المصريين
ذو الفقار باشا.

اتضح أن الملكة الجديدة فريدة امرأة ذات طابع متسلط. فقد قامت
في البداية بالتأثير على فاروق ذي الطباع اللينة إلا أن الملك شيئاً
فشيئاً صار يضج من تصرفاتها ولذا فقد أفسحت هذه الظروف
المجال للإيطالي الخدم "بوللي" الذي كان دائماً على استعداد
لتقديم أشهى الخمور وأعتقها وإيجاد أجمل الشقراوات الأوروبيات
ذوات العيون الزرقاء. انغمس فاروق في ذلك البحر من الملذات
مما جعل فريدة تطالبه بالطلاق.

كان الملك في حاجة إلى ولى عهد يخلفه. غير أن الأطباء كانوا
يخشون أن يسفر هذا النمط من الحياة على تدهور صحته مما
يحول دون ذلك ومع ذلك فقد تزوج مرة أخرى وكانت الملكة في
هذه المرة من عامة الشعب وتدعى ناريمان. بيد أن الزيجة الجديدة
لم تغير من نمط حياة الملك شيئاً كما تحول بوللي في تلك الآونة
إلى قائم بالأعمال يملك كافة السلطات. وحين علم فاروق بنبا
الثورة سقط خائر القوى يأمل تارة في حدوث معجزة تنتشله من
الهاوية فيما يداهمه الخوف من أن يُشنق تارة أخرى؛ بل وطلب
كافري توفير سفينة حربية تتولى نقله. غير أن السفير أقنعه بأن
الهرب أمر لا يليق بالملوك.

وصل وفد "الضباط الأحرار" إلى قصر رأس التين في الوقت الذي
بارحه فيه السفير الأمريكي كافري.

وفي صباح ٢٦ يوليو أعلن الملحق العسكري للولايات المتحدة
الأمريكية "الضباط الأحرار" بأن واشنطن تصر على حماية حياة
الملك وأفراد عائلته وقد وافق اللواء نجيب شخصياً على ضمان
أمن فاروق.

وعد "الضباط الأحرار" بأن يكون تنازل الملك عن العرش في "أليق صورة"؛ وسمحوا له بالرحيل إلى نابولي على متن يخته "المحروسة". غير أن مطالب الملك لم تُلبَّ. فقد رفض عبدالناصر تحويل ما بقي للملك بمصر من ثروات إلى حسابه بالخارج كما لم يسمح له بأخذ "مجموعات العملات والطوابع" والتي أعلنها الضباط الأحرار ملكاً للشعب، هذا علاوة على ضرورة عودة "المحروسة" إلى مصر بعد نقل الملك إلى نابولي.

لم يكن ثمة خيار أمام الملك إذ قام بتوقيع وثيقة تنازله عن العرش بيد واجفة مخطئاً حتى في كتابة اسمه فلم يكن فاروق الذى يجيد الإنجليزية والفرنسية يحسن الكتابة بلغة ذلك البلد الذى حكمته عائلته ما يزيد عن مائة عام.

كان الملك يود في البداية شطب عبارة "نزولاً على إرادة الشعب" إلا أن رجل القانون الذى أعد نص وثيقة التنازل عن العرش أصر على إبقائها ومنحت عائلة فاروق ست ساعات لإعداد نفسها للرحيل وقد استطاعت العائلة المالكة في هذه الفترة أن تحزم من الحقائب ما بلغ مائتي وأربع كما لم ينسَ الملك أخذ صناديق الشمبانيا من مستودعاته.

وحان موعد الرحيل. دلف فاروق يرتدى الحلة البيضاء زي قائد البحرية المصرية إلى البهو ليتوابع مع رئيس الوزراء والسفراء الأجانب. ويذكر اللواء نجيب أن الملك قد ذكر له قبل سفره "إن مهمتك ستكون شاقة.. ليس من السهل حكم مصر".

ثمة من يتساءل أحياناً: لماذا لم تهب القوات البريطانية المتمركزة في منطقة قناة السويس لنجدة فاروق؟ ولماذا لم يتدخل السفير الإنجليزي الذى كان في السابق يقبل ويعين رؤساء الوزارات؟

إن الإجابة على هذين السؤالين تسمح لنا بتقدير تلك السمات الفذة التي كان يتمتع بها عبدالناصر ليس فقط كزعيم للثورة بل وكدبلوماسي وشخصية سياسية. فقد كانت السرية التامة التي كفلها عبدالناصر لنشاط تنظيم "الضباط الأحرار" على درجة جعلت المخابرات الإنجليزية عاجزة ولأول مرة عن اكتشاف ما يجري بالبلاد في وقت مبكر؛ ولذا فقد وضعت الأحداث التي جرت بمصر السفير الإنجليزي وكذلك لندن في مأزق، ذلك لأن الإنجليز لم يعرفوا بأن الجيش قد قام بانتفاضته في القاهرة إلا في صباح ٢٤ يوليو وكان وقت التدخل قد فات، هذا إلى جانب أن موقف "الضباط الأحرار" إزاء فاروق ضلل السفارة الإنجليزية.

يبدو أن لندن كانت تتوقع أن الأمر كله لم ينقض بعد وأن الاتفاق مع قادة الثورة قضية يمكن تحقيقها وحين تهاوت كل هذه الآمال وغادر الملك المخلوع الأراضي المصرية إلى الأبد طالبت السفارة الإنجليزية بأن يفرض مجلس قيادة الثورة حالة الطوارئ بالبلاد ويكفل أمن الأجانب ويشكل مجلساً للوصاية ويعلن بقاء النظام الملكي.

ويتحلى عبدالناصر ثانياً بالمرونة ويفقد الإنجليز كل فرص التدخل. فقد جرى ضمان أمن الأجانب وظلت مصر دولة ملكية بعد الثورة لبعض الوقت.

كان ثمة عامل هام يتمثل في ذلك القدر الكبير من النشاط بالشرق الأوسط للأمريكيين الذين أعلنوا أنفسهم أصدقاء للشعوب العربية؛ وتؤكد مذكرات القائمين بالثورة بما فيهم عبدالناصر أن "الضباط الأحرار" وثقوا بالأمريكيين في بادئ الأمر. غير أنهم لم يدركوا إلا فيما بعد الجوهر الإمبريالي للسياسة الأمريكية.

كان الأمريكيون يحلمون بالعثور على ساسة أقوياء يتحلون بقدر كبير من الهيبة والنفوذ يمكنهم من تمرير "قرارات لا تحظى بالشعبية" في البلدان العربية وقد استطاعوا في عام ١٩٤٩ معاونة حسنى الزعيم رئيس الأركان على الوصول إلى الحكم في سوريا. غير أنه لم يستطع مواجهة الحركية الشعبية التي أطاحت به فيما بعد.

أدرك الأمريكيون بعد فشلهم في سوريا أن مفتاح التأثير على الأحداث بالشرق الأوسط يكمن في مصر وعقدوا آمالهم على سفيرهم بالقاهرة كافري أحد الدبلوماسيين الأمريكيين البارزين. فقد كان سجله يحفل بحوالي ثلاثين انقلاباً ببلدان أمريكا اللاتينية كما أنه هو الذى أرغم العديد من البلدان الأوروبية على تقبل خطة مارشال هذا إلى جانب كونه أحد مؤسسي حلف شمال الأطلسي.

كان منوطاً بكافري في تلك الآونة تشكيل حلف عسكري بالشرق الأوسط ولذا فقد كان عليه تسليم مقاليد الأمور في مصر إلى دكتاتور موثوق به ولقد شكل وزير الخارجية الأمريكية دين أتشيسون لتنفيذ تلك المهمة لجنة من المختصين بشؤون الشرق الأوسط يشرف عليها كيرميت روزفلت أحد رجال المخابرات المركزية في نهاية عام ١٩٥٢ ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يوكل فيها أمر الشرق الأوسط إليه فلقد كان يعتبر من أصدقاء الملك فاروق المقربين منذ سنوات الحرب العالمية الثانية كما كان كيرميت روزفلت قد أقنعه بأن الشرق الأوسط سوف يشهد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ظروفاً سياسية جديدة يمكن أن تجعله ولأول مرة في تاريخ البلاد "ملكاً مستقلاً". غير أن الأمريكيين سرعان ما فقدوا الأمل في فاروق ولم يبق أمامهم سوى حل واحد وهو البحث عن شخص مناسب بين صفوف الجيش وكان كيرميت

روزفلت أول من أعار "الضباط الأحرار" اهتمامه. غير أنه لم يستطع معرفة خططهم السياسية؛ وغدا مضطراً حين عاد إلى واشنطن للاعتراف بأنه "إذا حدث انقلاب في مصر فلن يكون موالياً لنا إلا أنه ينبغي علينا الاتصال بمدبريه". أما كافري فكان يرى الصورة على نحو آخر:

وها هو يفشل لأول مرة في تاريخه. فقد أغفل ملاحظة الانقلاب العسكري ومع ذلك بدأ يحاول إقناع الحكومة الأمريكية وكأنه كان على علم بكل ما حدث على الرغم من عدم مشاركته فيه وإشرافه عليه. وقد قام الدبلوماسيون الأمريكيون بنعت الوجود الإنجليزي في مصر بصفة "الإمبريالية" بهدف استمالة النظام الجديد وطلب السفير الإنجليزي الذي اضطر إلى إبلاغ "ايدن" بذلك رسمياً بأن يتولى الأخير مطالبة الولايات المتحدة الأمريكية بتغيير كافري.

وهكذا يكون قادة "الضباط الأحرار" قد قاموا في مهارة بأداء اللعبة الخطرة مع السفارة الأمريكية.

والآن واجهت "الضباط الأحرار" ضرورة تقرير أهم القضايا وهي القضاء على الملكية وتحرير مصر من السيطرة الإنجليزية التي تمثلت في بقاء الجيش البريطاني بمنطقة قناة السويس.

كان عبدالناصر على يقين من أن إلغاء الملكية مسألة وقت ولذا فقد جرت دون أية تغييرات مراسيم تنصيب الأمير فؤاد الذى سافر مع أبيه فاروق ولياً على العرش. كما أعلن عن تشكيل مجلس للوصاية برئاسة الأمير عبدالمنعم وحتى بلوغه سن الرشد. وينقضي بعض الوقت ثم يصدر مرسوم حكومي حوا إلغاء الملكية لتتهاوى صروحها في هدوء كأوراق الأشجار في الخريف.

ذات مرة وُجِهت الدعوة إلى الصحفيين المصريين والأجانب لزيارة قصر القبة حيث اطلع الآخرون لأول مرة على تلك الظروف التي كان يعيش فيها الملك السابق. كان الضابط المرافق يعرض على الصحفيين العلبه تلو الأخرى من تلك التي كانت تحتوى على الحلى والمجوهرات من الزمرد والماس. غير أن الصحفيين لم يذهلهم ذلك الثراء الفاحش بل بهتهم الذوق السيئ والشذوذ اللذان كانا يميزا آخر ممثلي العائلة المالكة هذا إلى جانب أنه كان يحتفظ في البومات صورته بأحط الصور الجنسية الخليعة.

ولئن ندر اسم فاروق في هذه الآونة بين المصريين فإن السبب في ذلك وبالدرجة الأولى يكون في فاروق نفسه. لقد صار المصريون يطالعون على صفحات الصحف أنباء تصرفات وجولات الملك

المخلوع ليستبدلوا أسماء أبنائهم بأخرى غير "فاروق" وكان اللواء نجيب من أول هؤلاء الناس.

كان هناك مرفأ في جنوب جزيرة الزمالك تحيط به أشجار النخيل شُيد ذات يوم ليكون في خدمة فاروق. شغل مجلس قيادة الثورة المبنى المجاور للمرفأ حيث كانت يخوت فاروق تتأرجح على صفحة مياهه.

كان مجلس قيادة الثورة يعقد اجتماعاته ليلاً حين تخف درجة حرارة الجو. فقد كان عبدالناصر يعتبر أن أفضل أوقات العمل الخلاق هو ما بعد غروب الشمس.

كان عبدالناصر يرى وجوب تسليم السلطة بعد قيام الجيش بحركته إلى الأحزاب السياسية وعلى سبيل المثال.. فقد بُذلت محاولة للاتصال بحزب الوفد. غير أن البلاد سرعان ما شهدت بعد الثورة تناقضات حادة. كان البعض ومحمد نجيب ضمناً يتصور أن البلاد ينبغي أن تسير على طريق الديمقراطية البورجوازية التقليدي بينما يتصور البعض الآخر ومنهم عبدالناصر ضرورة أن يقوم "الضباط الأحرار" بأنفسهم بالإصلاحات التي يتوق الشعب إليها. كانوا يخشون من أن تحول "الثرثرة البرلمانية" دون تقرير مهام ما بعد الثورة واحتد الجدل بين "الضباط الأحرار" حول عدد من القضايا الأخرى.

حين عاد أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى القاهرة بعد رحيل فاروق أعلن عبدالناصر أن مهمة كبيرة تقع على عاتقهم وتكمن في تسيير دفة الأمور بالبلاد حيث ينبغي عليهم وقبل كل شيء تحديد "الفلسفة" التي سوف يطبقونها.

وقد اكتسبت هذه القضية التي تبدو للوهلة الأولى نظرية مجردة أهمية عملية كبيرة. فقد كان على الضباط الأحرار تقرير الطريق الذي سوف يسلكونه ضد أعداء الثورة.

طالب أعضاء المجلس باتخاذ أكثر الإجراءات حسماً بينما اتخذ عبدالناصر موقفاً أشد اعتدالاً وذكر يوضح وجهة نظره: "لقد أعلننا للشعب بأننا انتزعنا السلطة لتخليصه من طغيان فاروق فلا ينبغي علينا انتهاج سياسة الإرهاب". غير أن كل محاولات عبدالناصر لإقناع مجلس قيادة الثورة باءت بالفشل وأدرك عبدالناصر ضرورة أن يحوز قبل كل شيء على ثقة المصريين إذ أن الثورة لو لم تحظ بتأييد الشعب فسوف يكون مصيرها الإجهاض.

جمع عبدالناصر أوراقه التي أودعها حقيبته ثم انصرف بعد إعلانه استقالته من منصب رئيس مجلس قيادة الثورة وخروجه من "الضباط الأحرار" وابتعاده عن الجيش.

احتدم النقاش طويلاً بين الأعضاء المجتمعين إلا أنهم لم يصلوا إلى رأى موحد بشأن اختيار الرئيس الجديد للمجلس وهنا أدركوا أن عبدالناصر كان على حق في تقديم استقالته. كان الوقت قد تعدى منتصف الليل حين توجه وفد من المجتمعين إلى عبدالناصر يطلب منه الاستمرار في تأدية مهام منصبه كرئيس لمجلس قيادة الثورة وأن يقرر الأمور على النحو الذي يراه صحيحاً. عاد عبدالناصر في اليوم التالي إلى مكتبه وصار منذ ذلك اليوم صاحب الرأي الحاسم في المجلس.

تحدث الصحفي المصري المعروف محمد عودة عن الأوضاع في تلك الآونة مؤكداً أن المجتمع المصري ظل بعد سبعين سنة من الاحتلال الإنجليزي مجتمعاً زراعياً مجتمع أصحاب الجلايب الزرقاء حيث يعيش من ثلاثة إلى أربعة ملايين لا يملكون لا

الأرض ولا العمل ولا الأمل، كان هناك مليون ونصف مليون من الفلاحين يبلغ نصيب أسرة كل منهم ربع فدان ونصف مليون لا يتجاوز نصيب كل أسرة مساحة الفدان.

هذا بينما كان هناك في ذات الوقت ألف من كبار ملاك الأراضي يملكون نسبة ٢٠% من كل مساحة الأرض المنزرعة في مصر في حين أن الغالبية العظمى منهم لم تكن حتى مصرية الأصول.

أما حال الصناعة فقد كان على نفس النحو تقريباً وكانت فئة البرجوازية المصرية الكبيرة تتكون من الأجانب: اليهود واليونانيين والإيطاليين. أما البلاد فشهدت موقفاً فريداً النمط حين أسفر النضال ضد تعسف الأجانب عن حدوث تغييرات اجتماعية وقد أضفت هذه السمة على القومية العربية التي أعلن "الضباط الأحرار" بما فيهم عبدالناصر عن تمسكهم بها، طابعاً تقديمياً تجلى بعد ذلك في التحولات الاجتماعية الاقتصادية الكبيرة.

كان مجلس قيادة الثورة يعقد اجتماعاته كل ليلة تقريباً ولم ينقض وقت طويل بعد الثورة حتى تقرر ضم ضباط جدد إلى أعضائه التسعة السابقين. أصبح المجلس يضم جمال عبدالناصر وكمال الدين حسين وعبدالحكيم عامر وحسن ابراهيم وعبدالمنعم عبدالرؤوف وجمال سالم وصلاح سالم وعبداللطيف البغدادي وخالد محيي الدين وحسين الشافعي وأنور السادات وزكريا محيي الدين ويوسف صديق - ١٤ عضواً برئاسة اللواء محمد نجيب. غير أن اللواء نجيب كان يتغيب كثيراً عن حضور جلسات المجلس إلى جانب أنه كان مصاباً بالروماتيزم وكانت محاضر الجلسات ترسل إليه صباح كل يوم لتوقيعها هذا في حين كان عبدالناصر يتولى الإشراف على شؤون المجلس.

أخذت قرارات مجلس قيادة الثورة تصدر تباعاً فتغير اسم الجامعة التي كانت تحمل اسم فؤاد إلى جامعة القاهرة كما جرى إطلاق سراح غالبية كبار الضباط الذين اعتقلوا أثناء الحركة ومنع المجلس انتقال الحكومة إلى الإسكندرية صيفاً وألغيت الرتب والألقاب. بيد أن كل ذلك لم يكن سوى بداية.

صباح ذات يوم من أيام مايو ١٩٥٣ وما كادت رياح الخمسين تميل إلى السكينة حتى وصل جون فوستر دالاس إلى مصر. إنه لم يصل كي يستمتع بمشاهدة الأهرامات. كان قد مر من الوقت ما يربو على نصف العام بعد انتصار الثورة وكان النظام الجديد قد رسَّخ أقدامه وحن الوقت لإرساء علاقات وطيدة مع "الضباط الأحرار" الذين ظلت واشنطن ترقبهم طويلاً ولذا فقد وصل وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية إلى القاهرة باقتراحات محددة. كانت الولايات المتحدة الأمريكية تشكل الأحلاف العسكرية وتعمل على تكوين حلقة من القواعد العسكرية حول الاتحاد السوفيتي وأفرد لمصر دور كبير في إطار حلف بغداد* كما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعترم "مكافأة" مصر على مشاركتها في هذا الحلف العسكري.

بدأ الأمريكيون يهتمون بالشرق الأوسط منذ مطلع القرن العشرين حين قام تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بزيارة مصر وقد بذل روزفلت قصارى جهده في خطابه الذي ألقاه بجامعة فؤاد لتمجيد الاستعمار الإنجليزي وتسويد صفحات الحزب الوطني الأمر الذي أثار سخط المصريين.

* حلف بغداد حلف عسكري تشكل عام ١٩٥٥ بمبادرة من الولايات المتحدة مُعادٍ للاتحاد السوفيتي وحركات التحرر الوطني

في الشرق الأوسط وضم تركيا والعراق وبريطانيا العظمى وباكستان وإيران. رفضت بقية بلدان منطقة الشرق الأوسط الانضمام إليه على الرغم من ضغط الولايات المتحدة الأمريكية.

أعلن محمد فريد نيابة عن الحزب الوطني احتجاجه الحاسم إزاء الرئيس الأمريكي وشهدت القاهرة لقاءً جماهيرياً توجه المتظاهرون بعده إلى فندق شبرد حيث كان يقيم روزفلت لتكون أول مظاهرة جماهيرية معادية للأمريكيين في تاريخ مصر كما بعث فريق من المحامين المصريين برقية إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جاء فيها: "كيف لكم أن تحكموا على أمة لا تعرفون خصائصها ولا أوضاعها التي تعيشها؟". وقد أرسل المصريون فيما بعد الكثير من البرقيات والخطابات المماثلة لتلك البرقية.

نزلت وحدات الجيش الأمريكي في سنوات الحرب العالمية الثانية إلى شواطئ الجزائر وتونس وبدأت الشركات الأمريكية في عمليات استخراج النفط بشبه الجزيرة العربية كما صار الأمريكيون يشيدون على عجل القواعد العسكرية في البلدان العربية خوفاً من حركات التحرر الوطني. وفي ذات الوقت شرعت الولايات المتحدة الأمريكية تعتمد على الصهاينة بوصفهم ألد أعداء الإيديولوجية الشيوعية وحركات التحرر الوطني. وبدا مركز الصهيونية يتحول بعد الحرب العالمية الثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وأنيطت بإسرائيل مهمة حماية المصالح الأمريكية

بالشرق الأوسط. أما الحليف الآخر للإمبريالية الأمريكية فكانت الرجعية العربية وقد بذل الملك وأتباعه على وجه الخصوص الكثير لتصوير أمريكا أمام المصريين وكأنها ساحرة ثرية تغدق العطاء على الجميع وتغرقهم بأوراق الدولارات الخضراء.

وها هو جمال عبدالناصر الضابط قليل الحنكة بالأمر الدبلوماسية مواجه بضرورة التباحث حول القضايا الدولية المعقدة مع السياسي الأمريكي جون فوستر دالاس. فقد التقيا في حفل استقبال أقامه سفير الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت مصر في أمس الحاجة إلى السلاح وكان عبدالناصر قلقاً لأن الجيش المصري سيكون عاجزاً عن مواجهة إسرائيل إذا ما شنت عليه عدواناً. طرح "الضباط الأحرار" موضوع إعادة تسليح الجيش المصري منذ أن كان فاروق حاكماً لمصر.

رسم دالاس أمارات الدهشة على وجهه حين طرق عبدالناصر موضوع الأسلحة فكم من التزامات أخذتها أمريكا على عاتقها ذات يوم إزاء مصر؟ كشف عبدالناصر عن الاتفاقية السرية المعقودة مع الملك فاروق قبيل الثورة والتي وعدت الولايات المتحدة الأمريكية بمقتضاها تقديم أسلحة لمصر تقدر قيمتها بخمسة ملايين دولار. بل وكان قد جرى كذلك تحديد قائمة بأنواع الأسلحة التي من المتوقع أن تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية إلى مصر. غير أن عبدالناصر وللحقيقة كان يرى ضرورة إعادة النظر في هذه القائمة نظراً لأن الملك فاروق كان قد طلب من الولايات المتحدة الأمريكية مصفحات ورشاشات وأنواعاً أخرى من الأسلحة تصلح لاستخدامها في قمع الانتفاضات الجماهيرية الشعبية. لقد كان عبدالناصر في حاجة إلى الدبابات والطائرات والمدفعية الثقيلة والبوارج أي تلك الأسلحة اللازمة للدفاع عن حدود البلاد. وفي

أكتوبر ١٩٥٢ طلبت الولايات المتحدة الأمريكية من مصر تقديم قائمة أخرى وجرى تسليم القائمة إلى الملحق العسكري لدى السفارة الأمريكية. هذا علاوة على أن الولايات المتحدة الأمريكية رحبت بسفر على صبري إلى واشنطن للتباحث حول هذا الموضوع. وبعث على صبري رسالة من هناك يقول فيها أن المباحثات تدور بنجاح بل وطالب بسرعة إعداد المطارات حتى تستطيع استقبال الطائرات النفاثة. غير أن الأيام والأسابيع والأشهر صارت تتعاقب وحل العام الجديد ١٩٥٣ وتوالت أيامه وشهوره فيما لم يصل السلاح بعد وظل الوفد العسكري برئاسة على صبري ينتظر بأمريكا. كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعيش فترة انتخابات الرئاسة. وأخذ ضباط البنتاجون المرافقون للوفد يقنعون على صبري ضرورة الصبر بحجة أن الرئيس الجديد سوف يبحث الطلب المصري بمجرد توليه لمهام منصبه. بيد أن على صبري عاد إلى القاهرة خالي الوفاض.

غادر عبدالناصر ودالاس مائدة الطعام بعد أن فرغا من تناول الأيس كريم ليخرجا إلى قاعة الاستقبال حيث جلسا في مقعدين وثيرين وصارا يدخان. واصلا حديثهما الذي بدأه أثناء تناول الطعام؛ قال دالاس:

__ لقد طلب تشيرشل من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية عدم تسليم أسلحة لمصر علاوة على ذلك. فقد عرضت خطأ على ايزنهاور القائمة القديمة المعدة منذ أيام فاروق والتي تتضمن الأسلحة الخفيفة مثل تلك التي كان الفدائيون يستعملونها ضد الإنجليز بقناة السويس. إن الخطأ وبطبيعة الحال يمكن إصلاحه. إنه؛ أي دالاس على استعداد للمساعدة لكنه بدوره ينتظر تسوية العلاقات المتردية بين مصر وانجلترا؛ ومن ناحية أخرى وهنا

تحول دالاس فجأة إلى موضوع آخر حيث فتح حديثاً حول حلف
عسكري بالشرق الأوسط.

تساءل جمال عبدالناصر في حذر:

_ ضد من تشكلون هذا الحلف؟

رأى دالاس أن يكون صريحاً فأجاب وهو يسحب دخان سيجاره
الكوبي:

_ ضد الاتحاد السوفيتي.

دهش عبدالناصر:

_ ماذا يدفعنا إلى الانضمام لهذا الحلف. إن الاتحاد السوفيتي على
بعد آلاف الأميال منا وليست لنا معه أية تناقضات. أما القوات
الإنجليزية فتحتل بلادنا منذ سبعين عاماً؛ إنها هي عدونا.

حاول دالاس اقناع عبدالناصر:

_ لكن الإنجليز سوف يبقون هنا بوصفهم أعضاء في الحلف. إنهم
سوف يعملون تحت راية "التحالف الدفاعي".

وأشار عبدالناصر:

_ لو قلت أن الإنجليز سيتحولون إلى حلفاء بعد تغيير اسمهم لما
صدقني المصريون، إنهم سوف يقولون إن الذي أرغمني على ذلك
هو وجود ثمانين ألف جندي إنجليزي بمنطقة القناة.

يؤكد هذا الحديث الذي أورده محمد حسنين هيكل مدى إصرار
عبدالناصر على الدفاع عن مصالح بلده أثناء حديثه مع المسؤولين
الأمريكيين ومع ذلك فقد غادر دالاس مصر مفعماً بالآمال. لقد كان
يشعر بصدق عبدالناصر كما أنه لم يكن يشك في إمكانية استمالة

مصر إلى الحلف العسكري إلا أنه ينبغي معاونة عبدالناصر حليف المستقبل في إحراز الشعبية والحصول على التأييد بالداخل ولذا يكون من الواجب إجلاء القوات البريطانية من مصر وتوجه دالاس يقصد "إقناع" إنجلترا. بيد أن عبدالناصر لم يعتبر هذا اللقاء مجدياً فلم يصل السلاح الأمريكي مصر رغماً عن ذلك. وعندما أرسل دالاس إلى محمد نجيب مسدسين مطعمين بالفضة اتصل تشرشل تليفونياً بايزنهاور ليؤكد له أن مثل هذه الهدية سوف توجب نزعات المصريين.

جرت في أحد اجتماعات مجلس قيادة الثورة مناقشة مسألة إقامة برج لاسلكي خاص بوزارة الخارجية والمخابرات. لم تكن ثمة موارد مالية تكفي لذلك وها هم يخبرون عبدالناصر بأن "مصدراً أمريكياً خاصاً" على استعداد لتقديم مبلغ من المال ليكون تحت تصرفه. وطلب عبدالناصر استجلاء شخصية "فاعل الخير" هذا ليتضح أن الذي عرض المبلغ جهاز المخابرات المركزية الأمريكية.

ويتحدث كوبلاند عميل المخابرات المركزية الأمريكية السابق عن المهمة التي أوكلت إليه لرشوة عبدالناصر:

"بعد استشارة قصيرة مع زملائي حذرتني ضابط الأمن من أن الحرس المسلح للسفارة والذي سوف يرافقني حتى بيت حسن التهامي في المعادي سوف يثير الشك طلبت التحول إلى الطريق البعيد عن المدينة رغماً عن احتمال أن يكون سائق سيارتنا التي استقليتها ومعى حقيبتين بهما ثلاثة ملايين دولار نقداً من أبعاد الناس عن الشرف والأمانة.

استقبلني حسن التهامي يرافقه حارسان شخصيان في بيته بالمعادي دون أن يبدو عليه أي اهتمام أو حماس، ومراعاة للشكليات قام

بإحصاء النقود مرتين ليجدها ٢٩٩٩٩٩٠ دولاراً بدلاً من ثلاثة ملايين. "لن نأسف كثيراً لكونها ناقصة عشرة دولارات" .. قالها فيما كان يستقل سيارة "المرسيدس" يرافقه حارساه ، متوجهاً إلى مسكن عبدالناصر الذى كان يقع في الطرف الآخر من المدينة".

أثارت مثل هذه الوقاحة سخط عبدالناصر .. فلئن كان الأمريكيون لم يتورعوا عن التصرف بهذا الشكل الشائن مع أكبر الشخصيات فيمكن للمرء أن يتخيل وبسهولة ما يمكن أن يفعلوه مع صغار المسؤولين. حاول عبدالناصر في البداية إعادة المبلغ والإعلان عن أن الأمريكيين يحاولون رشوته. وقد سلك هذا السبل بالذات رئيس سنغافورة الذى حاولت المخابرات المركزية الأمريكية دفع مثل ذلك المبلغ له في موقف مماثل.

اقترح حسن التهامي الذى تسلم المبلغ من كوبلاند إقامة نصب أشبه بتمثال "أبى الهول": "رأس ذات أنف ضخمة ويد كبيرة تضغط سبابتها على الأنف بينما ترتفع اصابعها الأربعة الأخرى عالياً".

بدت الفكرة لعبدالناصر مناسبة لكنها ليست "لمّاحة بما فيه الكفاية" ولذا فقد قرر إنشاء "نصب على درجة كبيرة من الضخامة والقوة والرفعة لا يوحي صراحةً بالهدف منه" وسلم المبلغ لصرفه على تشييد برج للإرسال اللاسلكي قائلاً "فلترقب مخابراتنا في يقظة نشاط الولايات المتحدة الأمريكية".

وكتب كوبلاند: "وهكذا شيّد "برج القاهرة" الذى نراه نحن الأمريكيون كل صباح قبالتنا على الشاطئ الآخر من النيل حين نجلس لتناول إفطارنا في شرفة فندق "هيلتون".

أما عبدالناصر فكان يعتبر ذلك البرج نصباً يذكر المخابرات المركزية الأمريكية بفشل مخططاتها في مصر.

لم يسعف الوقت "الضباط الأحرار" في فترة الإعداد والقيام بالثورة لتطوير وجهات نظرهم السياسية وبلوغ تصور محدد للمجتمع الذي يبتغونه. كان بعضهم متعاطفاً مع "الإخوان المسلمين" بينما يميل بعض آخر إلى الماركسيين. أما الغالبية ومنها عبدالناصر نفسه فكانت تعتبر نفسها من "القوميين".

يؤكد مانسفيلد الكاتب البريطاني الذي أرّخ لسيرة حياة عبدالناصر أن "مدبر الحركة لم يكن مدفوعاً بفلسفة أو إيديولوجية سياسية بل قام بذلك بوازع من الوطنية التي استقاها من دراسته للتاريخ". غير أن خبرات البلدان النامية تؤكد أن الوطنيين الحقيقيين الشرفاء الذين يؤمنون بفكرة القومية يتفهمون أن أجلاً أو عاجلاً ضرورة تحديد موقفهم من طبقات الكادحين وتوضيح موقفهم الايديولوجي.

كان عبدالناصر مضطراً إلى العيش والعمل في ظروف ذات طابع خاص؛ ولم يكن المجتمع المصري الذي كانت تنخر عظامه فكرة العجز الذاتي التي أوحى المستعمرون إليه بها قادراً على تصور إمكانية أن تسير البلاد دون عون الأجانب. أما عبدالناصر فقد كان منذ صباه على يقين من أن المصريين يملكون كافة المقومات التي تتيح لهم تسيير أمور بلدهم. وكان هذا كافياً لأن يميزه عن عشرات ومئات مواطنيه الذين استكانوا لوضعهم وقمعوا في أعماقهم مشاعر الكرامة الوطنية.

وفي ذات الوقت كان عبدالناصر يدرك جيداً مدى الصعوبة التي تواجه المصريين في انتهاج طريق البعث القومي. "لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة وأنها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة وراءها صفوفاً مترابطة منتظمة تزحف زحفاً مقدساً إلى الهدف الكبير.

وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين وكنت أظن
الزحف المقدس للصفوف المتراسة المنتظمة إلى الهدف الكبير،
بل قد كان الخيال يشتت بي أحياناً فيخيل إلى أنى أسمع صليل
الصفوف المتراسة وأسمع هدير الواقع الرهيب لزحفها المنظم إلى
الهدف الكبير، اسمع هذا كله ويبدو في سمعي من فرط إيماني به
حقيقة مادية وليس مجرد تصورات خيال..

ثم فاجأني الواقع بعد ٢٣ يوليو..

قامت الطليعة بمهمتها واقتحمت سور الطغيان وخلعت الطاغية
ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراسة
المنتظمة إلى الهدف الكبير..

وطال انتظارها..

لقد جاءت جموع ليس لها آخر.. ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال..
كانت الجموع التي جاءت أشياءً متفرقة وفلواً متناثرة".

أما أولئك الذين كانوا ينتظرون العون من الشعب فقد انهالت عليهم
وكما كتب عبدالناصر "الشكاوى والعرائض التي كانت تطالب
بالانتقام.

ولو أن أحداً سألني في تلك الأيام ما أعز أمانيك لقلت على الفور
أن أسمع مصرياً يقول كلمة إنصاف في حق مصري آخر وأن
أحس أن مصرياً قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لإخوانه
المصريين.. وأن أرى مصرياً لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصري
آخر".

كان "الضباط الأحرار" ينتمون إلى فئات اجتماعية متباينة وكان
كل منهم يزود في مجلس قيادة الثورة عن تصورات ومفاهيم طبقته

وفنته ومجموعته. بيد أنه يمكننا القول أن الثورة عموماً كانت تحمل في طياتها أفكاراً اشتراكية.

وقد تناول أحد البيانات الصادرة عقب الثورة مباشرةً ضرورة سن قوانين تكفل رفع مستوى معيشة الشعب وتحديد الملكية الزراعية وإلغاء الضرائب المجحفة التي كان يئن تحت وطأتها غير القادرين وهو ما جسد تأثير الماركسيين. وقد ذكر عبدالناصر بنفسه في حديث له مع س. أ. فينوجرادوف سفير الاتحاد السوفيتي في مصر أنه تردد على إحدى الحلقات الماركسية بالقاهرة أيام كان تلميذاً. غير أن المشرفين على الحلقة لم يعيروا الصبى التواق للمعرفة الذي كان يُكثر من توجيه الأسئلة أي اهتمام، وقد كان عبدالناصر يرى أولئك الذين تعامل معهم في إطار هذه الحلقات بعيدين عن الواقع وأقرب إلى "النظريين" منهم إلى العمليين حيث كان يصعب عليهم ربط النظرية بظروف المجتمع الواقعية.

كان وجود الكثير من التجمعات الماركسية سبباً في عرقلة عملها، ذلك لأنه لم يكن يوجد حزب شيوعي موحد بالبلاد في عام ١٩٥٢ حين قامت الثورة.

وفي أحد الاجتماعات الأولى لمجلس قيادة الثورة تقدم خالد محيي الدين باقتراح حول دعوة المتخصصين للمشاركة في وضع خطة التحولات السياسية والاقتصادية في مصر وأيده عبدالناصر. أوكلوا إلى الماركسي أحمد فؤاد وضع قائمة بأسماء القادرين على القيام بهذه المهمة وكان هؤلاء أساتذة بالجامعة وحقوقيين وأطباء ومهندسين، منهم ماركسيون كثيرون وقد انكب الجميع على العمل بحماس بالغ.

كانوا يجتمعون كل مساء في مبنى مجلس قيادة الثورة مع أعضاء المجلس بما فيهم عبدالناصر في معظم الأحيان. كان يدور نقاش

طويل؛ ففي حين يصر البعض على اتخاذ أحسم الإجراءات للحد من الملكية الخاصة يرى البعض الآخر أن الحل لا يتعدى إنشاء المؤسسات الاقتصادية. كان الجدل يمتد في بعض الأحيان ليطول حتى الثالثة أو الرابعة صباحاً.

وقد لعب دوراً بالغ الأهمية في حياة عبدالناصر هؤلاء الناصر ذوو الأفكار التقدمية الذين ساهموا في إعداد أول خطط ما بعد الثورة؛ وعلى الرغم من أنه لم يصبح ماركسياً فإن تعرفه على مؤلفات ماركس وانجلس ولينين أثر عليه؛ وقد ظل عبدالناصر يطلب من خالد محيي الدين حتى بعد سفره إلى سويسرا إمداده بالأدبيات الماركسية حول بعض الموضوعات الاقتصادية وما زال مكتب عبدالناصر يحوى حتى يومنا هذا كل المؤلفات الماركسية اللينينية الصادرة بالعربية وبالإنجليزية التي سجل على صفحاتها ملاحظاته.

ورث "الضباط الأحرار" عن الملكية ديونها إلى البلدان الأجنبية والخراب الذي ألحقته بالاقتصاد وعلى الرغم من أن الثوار لم يكونوا يملكون برنامجاً اقتصادياً معداً من قبل إلا أنهم أدركوا على التو المصدر الأساسي لتلك الكوارث وهو فوضى الإنتاج؛ وقد كان المجلس الدائم للإنتاج القومي ومجلس الخدمات اللذان شكلا بعد الثورة مباشرة مدعويين لدراسة مشروعات تنمية الاقتصاد المعروضة على الوزارات.

في سبتمبر ١٩٥٢ اتخذ مجلس قيادة الثورة أول إجراء اجتماعي اقتصادي خطير - قانون الإصلاح الزراعي. فقد قام جمال سالم بدراسة المسألة الزراعية بالبلاد ليتولى إعداد مشروع القانون بمساعدة أحمد فؤاد. كان هذا الإصلاح بالغ التواضع. اتسمت أولى خطوات الثورة بالحذر الشديد. تضمن ذلك القرار تحديد الأراضي

الزراعية لكبار الملاك بمائتي فدان ومصادرة ما يزيد عن ذلك لتوزيعه على المعدمين وصغار الملاك.

لم تتعدّ نسبة الأراضي التي شملها قانون الإصلاح عشرة في المائة من مساحة الأرض الزراعية كما لم تتجاوز نسبة الفلاحين المستفيدين من هذا القانون حوالى عشرة بالمائة كذلك. هذا علاوة على أن النظام الجديد لم يتجاسر على المساس بمصالح الإقطاعيين ووعد بتعويضهم عن الأراضي التي صودرت دون تعويض. وعلى الرغم من كل ذلك فقد قوضت قوانين الإصلاح الزراعي دعائم النفوذ السياسي الذي كان يتمتع به الإقطاعيون في الريف قبل الثورة. غير أنه حتى هذا الإصلاح المتواضع لم يلقَ استجابة لدى علي ماهر الذي طالب على سبيل المثال بأن يكون تحديد الملكية الزراعية في حدود خمسمائة فدان. وقد كان عبدالناصر على استعداد لرفع نسبة المائتي فدان مائة أخرى يمكن أن يتركها للملاك إرثاً لأولادهم. بيد أن علي ماهر اعتبر هذا التنازل غير كافٍ مما كان سبباً في إقالته.

كان عبدالناصر يرى قبل الثورة وفي أول عهدها أن الجيش سوف يعود بعد حركته إلى الثكنات. أما الآن فقد غدا على يقين من أنه ينبغي على "الضباط الأحرار" قيادة البلاد وتنفيذ التحولات الثورية.

لقد أدرك ضرورة ذلك بعد الاطلاع على نتائج عمل لجنة التحقيق في جرائم رجال العهد السابق، وقد شمل نشاط هذه اللجنة سلوك وزراء آخر الحكومات الوفدية وكشفت تحقيقاتها عن وقائع تقاضى الرشوة واختلاس أموال الدولة. هذا بينما كان حزب الوفد من المرشحين الأساسيين لتولى السلطة بالبلاد. قرر مجلس قيادة الثورة أن يقوم اللواء محمد نجيب بجولة ببعض مدن الوجه البحري بغية

اختبار ميول الجماهير. وقد لقي اللواء نجيب أينما حل استقبالاً حافلاً وتزايدت ثقة عبدالناصر كثيراً وفي ١٠ سبتمبر صدر مرسوم يقضى بأن تتقدم كل الأحزاب ببرامجها السياسية وأنظمتها الداخلية وبما يشير إلى مصادر تمويلها. كما تشكلت في ذات الوقت "محكمة الثورة" "لمحاكمة رجال العهد البائد الذين تخابروا مع دول أجنبية بهدف الإطاحة بالنظام الجديد".

انهالت سيول الاتهامات يوجهها زعماء الوفد إلى بعضهم البعض الأمر الذي أسفر عن انشقاق "الوفد" وهبوط شعبيته بين الجماهير.

جرت محاكمة العهد البائد علناً والكشف عن كل الجرائم التي ارتكبتها رجال الوفد. أصدرت المحكمة أربعة أحكام بالإعدام إلا أن أياً من هذه الأحكام لم يُنفذ؛ أما الأحكام التي صدرت بالسجن لفترات طويلة. فقد استُبدلت بأحكام الإقامة الجبرية. لقد قام "الضباط الأحرار" بتطهير مصر من دنس الماضي. بيد أن كارثة جديدة وقعت قبل ذلك بقليل؛ ففي الثاني عشر من شهر أغسطس أضرب عمال مصنع النسيج في كفر الدوار ليضعوا "الضباط الأحرار" في أول مواجهة مع العمال. دعا عبدالناصر رفاقه إلى التحلي بالصبر لكن صداماً بين العمال وقوات البوليس وقع فجأة. قام ضباط الجيش الشبان بقمع حركة الإضراب مما يعنى عدم حنكتهم في مثل هذه اللحظات الخطيرة. استغلت العناصر اليمينية هذه الواقعة لتشن حملة ضد القوى اليسارية ولا سيما الماركسيين وسارع بعض المثقفين اليساريين المصريين بالإعلان عن أن السلطة أكدت بذلك طابعها الدكتاتوري.

نجم وضع خطير.. لقد كان "الضباط الأحرار" على شفا الانقسام وهو ما سارعت القوى اليمينية إلى استغلاله على الفور.

كان "الإخوان المسلمون" يتميزون عن عداهم من الجماعات والأحزاب السياسية بقدرتهم الفائقة على الحركة. لقد كانوا تلك القوة التي تشكل خطورة حقيقية على النظام ولم يكن هؤلاء يملكون برنامجاً واضحاً بما فيه الكفاية. غير أن تنظيمهم لعب دوراً يتسم بالغدر في تاريخ نضال الشعب المصري ضد المحتلين.

لم يكن "الإخوان المسلمون" يملكون إجابة تستند إلى الإسلام على القضايا التي تهم المجتمع المصري. كانوا يعتمدون على أشد المصريين تخلفاً الذين يمكن إشعال حماسهم بسهولة فائقة تحت تأثير الشعارات الإسلامية؛ وقد قام الإخوان المسلمون في إطار المؤامرة ضد الثورة بالدعوة على سبيل المثال إلى قتل المطربة العظيمة أم كلثوم وتدمير وإحراق دور السينما ودار الأوبرا بالقاهرة.

في يناير ١٩٥٣ أعلن مجلس قيادة الثورة عن حل كل الأحزاب السياسية ومصادرة ممتلكاتها وفي ١٠ فبراير جرى إعلان الدستور المؤقت الذي تؤول السلطة بموجبه إلى أعضاء مجلس قيادة الثورة لمدة ثلاث سنوات أخرى. وفي ١٨ يونيو ١٩٥٣ جرى إعلان النظام الجمهوري في أقدم دولة ملكية في التاريخ وكان اللواء محمد نجيب أول رئيس لها. إلى جانب رئاسته لمجلس الوزراء. أما عبدالناصر فكان نائباً له. وكان سيل الأنباء التي اتخذت طريقها إلى صفحات الصحافة الغربية حول اللواء محمد نجيب آنذاك تؤكد رغبة الكثيرين بالخارج في أن يتولى السلطة بالبلاد هذا الضابط الرقيق المنعم الذي لا تفارق سيجارة "دنهيل" شفتيه. لقد كانوا يسمونه "كرومويل المصري" معلنين ابتهاجهم به؛ ولم يكن ثمة من أعار عبدالناصر اهتمامه شأن الحال في السابق.

كان اللواء نجيب يعتقد على ما يبدو أن دوره الحقيقي ينحصر في زعامة الأمة. وبوصفه ضابطاً محترفاً قديماً وعلى الرغم مما عُرف عنه من ليبرالية لم يكن متعوداً على أن تكون تعليماته موضع نقاش.

بدأت العلاقات بين نجيب وعبدالناصر تتوتر تدريجياً وصارت خلافتهما تحت تأثير النضال السياسي بالبلاد.

راح اللواء نجيب ينتقد تصرفات مجلس قيادة الثورة في أحاديثه مع الشخصيات السياسية والدبلوماسيين الأجانب. أما داخل مجلس قيادة الثورة فلم يكن ثمة من يؤيده.

قام الإخوان المسلمون علاوة على ذلك بتدبير مظاهرة طلابية أسفرت عن وقوع الاضطرابات؛ وقد استغل عبدالناصر ذلك ليلقى القبض على بعض "الإخوان" دون التشاور مع نجيب الذي أعلن عن عزمه على تقديم استقالته.

كانت هذه الخطوة محسوبة بشكل جيد. فقد توصل المصريون بعد مباحثات مضيئة طويلة إلى عقد اتفاق مع الإنجليز بشأن السودان. وهكذا حصل السودان الذي كان تحت الإشراف المصري الإنجليزي على حق تقرير مصيره، إما الانضمام إلى مصر وإما الاستقلال. وكان من المفروض أن تدعم الزيارة المرتقبة لنجيب إلى السودان نتيجة المفاوضات. فقد كان يحظى في السودان احترام بالغ نظراً لكونه من أم سودانية. وضع الخلاف بين عبدالناصر ونجيب مجلس قيادة الثورة في موقف حرج؛ ومع ذلك فقد قبل المجلس استقالة نجيب الذي تقرر وضعه تحت الإقامة الجبرية. غير أن أنصار الأحزاب السياسية التي أعلن عن حلها كانوا يعتبرون اللواء محمد نجيب الشخصية الوحيدة التي يمكن أن تضمن مشاركتهم في حياة البلاد السياسية، وراح هؤلاء يؤلبون

الجيش ضد عبدالناصر. وسرعان ما طالبت بعض وحدات الجيش بإعادة نجيب رئيساً للجمهورية وبتعيين خالد محيي الدين رئيساً لمجلس الوزراء.

اضطر عبدالناصر إلى الإذعان. فقد بدا له أنذاك أن كل ما كان يحلم به وما حققه من أجل مصر قد تهاوى في طرفة عين. بيد أن الأغلبية الساحقة من الضباط أعلنت في نهاية الأمر عن تأييدها لعبدالناصر؛ وعاد نجيب ثانية بفضل شعبيته إلى منصب رئيس الجمهورية. أما خالد محيي الدين فقد عُرض عليه السفر إلى سويسرا. أسف عبدالناصر لتصرفه على هذا النحو. فقد كان خالد ما يزال موضع تقديره ولم يكن عبدالناصر يشك في أن خالد سوف يدرك إن أجلاً أو عاجلاً أنه بالغ في تقدير نجيب. وعادت الصداقة إلى سابق مواقعها بعد بضعة أعوام ورجع خالد إلى مصر. وفي عام ١٩٥٧ جرى انتخابه عضواً بمجلس الأمة وفي ١٩٦٤ أعيد انتخابه مرة ثانية.

تولى عبدالناصر منصر رئيس مجلس الوزراء وأعلن اللواء محمد نجيب في مؤتمر جماهيري حاشد بميدان الجمهورية أن العاصفة قد هدأت وأن انتخابات مجلس الأمة سوف تعقد في القريب العاجل. بيد أن التناقضات بين القادة المصريين لم تكن قد تلاشت بعد.

حاول عبدالناصر إظهار اعترافه بمكانة نجيب؛ ففي التاسع من مارس ١٩٥٤ عرض عليه تولي منصب رئيس مجلس الوزراء ورئيس مجلس قيادة الثورة. كما قام في نفس الوقت برفع الرقابة عن الصحف. وهنا سارعت الصحافة القاهرية تطالب بإعادة الحريات السياسية. لم يتوقف عبدالناصر في منتصف الطريق. وفي ٢٥ مارس اتخذ مجلس قيادة الثورة قراراً بإيعاز منه حول منح الأحزاب السياسية حرية العمل. لقد كان عبدالناصر يود بهذه

الخطوة أن يُظهر للجيش النتائج المنطقية لسياسة نجيب، الأمر الذي تجسد في عودة الوفديين والإخوان المسلمين إلى العمل المكثف. تصرف الجيش في هذه المرة بحسم إلى جانب عبدالناصر. فقد نظم "الضباط الأحرار" المظاهرات احتجاجاً على مشاركة الساسة الذين فقدوا ثقة الشعب في حياة البلاد الاجتماعية. هز الإضراب العام أعماق القاهرة. تراجع محمد نجيب في ١٧ أبريل. تولى عبدالناصر ثانية منصب رئيس مجلس الوزراء ليدخل مجلس قيادة الثورة مرحلة جديدة من مراحل نشاطه. لم يكن نجيب يملك أية سلطة فعلية على الرغم من أنه ظل لبعض الوقت يشغل منصب رئيس الجمهورية.

وهنا تحول أعداء النظام الثوري إلى العمل السري.

كانت الإسكندرية تستعد لاستقبال رئيس مجلس الوزراء. إزدان مبنى البورصة وشرفته العريضة بالأعلام والرايات واكتظ الميدان الفسيح الذي بدأ يئن تحت ضغط الحشود الجماهيرية الهائلة التي احتلت حتى الشوارع المتفرعة منه.

لم يكن سوى القلائل يعرفون أن عبدالناصر هو الذي يحكم البلاد منذ فترة طويلة وأن نجيب تحول إلى رئيس "بروتوكولي". فقد كان يتولى أوراق اعتماد السفراء وتقليد النياشين والأوسمة.

وفي صيف ذلك العام ظهرت بعض الظروف المعقدة فجأة. فقد هاجم بعض المشبوهين مجلس قيادة الثورة علناً بالمساجد، مما أسفر في طنطا على سبيل المثال عن صدام دموي وكان عبدالناصر يعلم مدى النفوذ القوي للإخوان المسلمين في تلك المدينة؛ ولذا فقد صدر أمر يحظر الحديث حول السياسة بالمساجد مما دفع الإخوان المسلمين إلى التحول نحو الجامعات. وكان عبدالناصر يعرف من تجربته الذاتية مدى سرعة تأثير الوسط

الطلابي ليشرع في تطهير الجامعات. غير أن ذلك لم يُعق نشاط "الإخوان المسلمين". صار معروفاً أنهم وجدوا حلفاء لهم بين قوات الشرطة وأنهم يعدون لمؤامرة جديدة. قرر عبدالناصر أن يسبقهم وذات يوم وعندما وصل حوالى مائة من ضباط الشرطة إلى مقر عملهم علموا بنبأ إقالتهم بسبب اتصالهم بالإخوان المسلمين.

أعلن أعداء عبدالناصر عن مناهضتهم لنظام الدكتاتورية العسكرية على الرغم من أن كثيرين منهم مثل الإخوان المسلمين ل يمكن وصفهم إلا على سبيل السخرية بأنهم "حُماة للديمقراطية". لقد حكم الشعب على الثورة من إنجازاتها. ففي الوقت الذى كان "الإخوان" يحاولون فيه تضليل المصريين عن طريق خطبهم بالمساجد تسلمت الدفعة الأولى من الفلاحين المعدمين وعددها ألفي فلاح حصتها من الأراضي وفق قانون الإصلاح الزراعي. لقد اتهم "الإخوان المسلمون" افتراءً عبدالناصر بأنه لا يتعجل إجلاء القوات الإنجليزية. وقد كان المحتلون لا يرغبون حقاً في الرحيل عن مصر، بينما كان عبدالناصر يحاول جاهداً إرغامهم على الانسحاب. ولم تسفر أية نتائج المباحثات التي أجراها عبدالناصر مع السفير البريطاني ر. ستيفنسون. وعندئذ عرض عبدالناصر على المصريين التطوع في فصائل الفدائيين. كما جرت في القاهرة محاكمة سورية للمصريين الذين يتعاملون مع قوات الاحتلال. وصدر الحكم على أحد المتهمين بالإعدام شنقاً. رد الإنجليز على دعوة التطوع في فصائل الفدائيين بتجميد عشرة ملايين جنيه استرليني. غير أن الفدائيين واصلوا هجماتهم. بدأت المفاوضات من جديد. وأخيراً في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ وافق الإنجليز على توقيع اتفاقية تقضى بإنهاء انسحابهم خلال ١٢ شهراً. غير أن القوات الإنجليزية احتفظت بحق العودة إلى القواعد المصرية في حال وقوع أي هجوم ضد تركيا أو أية من بلدان الجامعة العربية.

وظهرت مانشيتات الصحف المصرية باللون الأحمر تعلن نبأ الجلاء المرتقب للقوات الإنجليزية عن أرض الوطن.

احتشدت الجماهير الغفيرة عند بيت عبدالناصر في الصباح تهردها أصواتها بالتحية لزعيمها. وقد خطب عبدالناصر في المؤتمرات الشعبية التي عقدت في تلك الأيام مؤكداً أن الحكومة تعتزم القضاء على الفقر والجهل والمرض.

وها هو لقاء جديد له في الإسكندرية هذه المرة. خرج عبدالناصر إلى الشرفة. بدأ حديثه في ثقة وتؤدة: "أيها الاخوة المواطنين..

في نفس هذا الميدان الذي كان اسمه ميدان محمد علي كانت أولى المظاهرات التي شاركت فيها وأنا شاب صغير وكانت هذه المظاهرات ضد بريطانيا وفي هذا الميدان رأيت لأول مرة رجالاً يُضربون على رؤوسهم، رأيت مصريين يطلقون النار على إخوانهم المصريين ولكنني اليوم على قيد الحياة وأساعد في تحرير بلدي..".

كانت الجماهير تصغى إلى كلمات الزعيم حابسةً أنفاسها. كما كانت أنظارها مشدودة إلى الشرفة. لم يلحظ أحد كيف سحب أحد الجالسين بالصفوف الأمامية مسدسه ليصوبه مطلقاً نيرانه.

بدأت أمارات الدهشة على وجه عبدالناصر حين شاهد شظايا زجاج المصباح الذي كان معلقاً فوق رأسه تتساقط فوق نص الخطاب. غير أن الطلقات أخذت تدوى بينما هدرت الجماهير التي أدركت ما يحدث وراحت الأيادي تمتد نحو المجرم.

وآنذاك دوى صوت عبدالناصر قوياً حاسماً:

ـ "فليبق كلٌ في مكانه.. إنني أنا جمال عبدالناصر الذى يتحدث إليكم..".

تعالى دوى الطلقات مختلطاً بهذه الكلمات على شريط التسجيل الخاص بخطاب عبدالناصر.

التصقت آذان كل المصريين بأجهزة الراديو تصغى إلى كل ما يدور بذلك المؤتمر الشعبي. خرج الناس في مظاهرة عفوية عقب انتهائهم من سماع الخطاب الحماسي الذى ألقاه عبدالناصر. طالبت الجماهير بتوقيع أقصى الجزاء على المجرمين وتوجهت أصابعها تشير إلى الإخوان المسلمين بوصفهم مدبري محاولة الاغتيال.

احتشدت الجماهير تحيى عبدالناصر على طول الطريق من الإسكندرية وحتى القاهرة. كما استغرقت ساعتين مسيرته من محطة القطار بالقاهرة حتى مسكنه. لقد تحول عبدالناصر خلال دقائق معدودات إلى بطل قومي.

أثبتت التحقيقات أن الإخوان المسلمين هم المسؤولون حقيقة عن تدبير محاولة الاغتيال. فقد تأكد أنهم دربوا محمد عبداللطيف عضو تنظيمهم على مدى فترة تقارب الشهرين لتنفيذ هذه العملية الدنيئة.

عمت البلاد حملة اعتقالات شملت "الإخوان المسلمين" وجرى الكشف في المساجد والمقابر عن مخابئ سرية للأسلحة والمتفجرات خاصة بمجموعاتهم الإرهابية. وعند استجوابهم اتضح أن "تنظيمهم" كان يعمل وعلى مدى فترة كبيرة لتدبير انقلاب وأن قائمة أعدت تتضمن أسماء أنصار الثورة الذين ينبغي القضاء عليهم فيما بعد.

في منتصف نوفمبر ١٩٥٤ عقد اجتماع لمجلس قيادة الثورة لم يحضره محمد نجيب كعادته في معظم الأحيان. غير أنه لم يكن قد دُعي إلى هذا الاجتماع. فقد كان أعضاء المجلس يبحثون نتائج التحقيقات التي كشفت عن أن نجيب كان على صلة بالإخوان المسلمين الذين شاركوا في المؤامرة. جرى الاتصال بنجيب تليفونياً بعد انتهاء الاجتماع. حيث أبلغ أن حسن ابراهيم وزير الدولة لشؤون الرئاسة و عبدالحكيم عامر سوف يبلغانه بالقرارات التي اتخذت. هكذا كان الأمر دائماً؛ إلا أن القلق سيطر على نجيب في هذه المرة.

وصل عبدالحكيم عامر وحسن ابراهيم في الساعة الحادية عشر إلى قصر عابدين. خرج اللواء محمد نجيب بعد بضع لحظات يرافقه الحراس. إذ أن قرار تنحية محمد نجيب عن منصب رئيس الجمهورية كان قد أذيع. جرى إبعاده إلى قرية هادئة حيث عاش رهن الإقامة الجبرية سنوات طويلة دون أن يرتفع صوت دفاعاً عنه.

وفي ديسمبر ١٩٥٤ اجتمع مجلس قيادة الثورة لبحث الأحكام الصادرة في قضية الإخوان المسلمين المتهمين بالتآمر والتي نصت على شنق الهضيبي زعيم التنظيم وإعدام بعض الآخرين رمياً بالرصاص، أما بقية المتهمين. فقد صدرت ضدهم أحكام بالسجن لمدد مختلفة.

رن جرس التليفون ذات مرة بمكتب رئيس مجلس الوزراء. كان الطرف الآخر من مصلحة الآثار.

لقد اكتشف عالم الآثار المصري محمد زكريا غنيم واحداً من أهم اكتشافات القرن العشرين وهو هرم لم يعرف مكانه أحد من قبل.

هز النبا سكان القاهرة وسرت بالمدينة إشاعات حول تلال
المجوهرات التي عُثر عليها داخل الهرم كما يزعمون. لقد كان
الجميع ما يزالوا يذكرون كنوز توت عنخ آمون التي لا تقدر بثمن
وكانما نسوا أن كنوز بقية الفراعنة كانت قد سرقت منذ العهود
الغابرة. هرع كثير من الصحفيين الأجانب إلى سقارة حيث كانت
تعمل بعثة غنيم. بدأت التبرعات تنهال على مصلحة الآثار بهدف
مواصلة أعمال التنقيب.

وأخيراً وفي حضرة المسؤولين دلف محمد غنيم إلى السرداب
المفضي إلى التابوت.

صوب المراسلون عدسات كاميراتهم لتسجيل أروع لحظات
اكتشاف "كنز الفرعون". شرع العمال في فتح التابوت وبعد
ساعتين من الجهد المضنى استطاعوا تحريك الغطاء الذى بلغ
وزنه ٢٢٧ كيلو جراماً. ألقى العالم المصري نظرة على ما بداخله
ليعود إلى المجتمعين وأمارات خيبة الأمل مرتسمة على وجهه. فقد
كان التابوت فارغاً.

تحدثت صحف العالم أجمع عن "فشل" عالم الآثار المصري.
وخرجت إحدى الصحف تحمل العنوان التالي "ثلاث سنوات
استغرقها العمل دون نتيجة" مشيرة إلى أعمال التنقيب التي قامت
بها بعثة غنيم. غير أن العلماء الجادين كانوا ينظرون إلى الأمر
على نحو آخر. فقد كان تقديرهم لنشاط عالم الآثار المصري كبيراً.
وعلى الرغم من ذلك. فقد تهدده الخطر نظراً لعدم إدراك بعض
الذين يتوقف عليهم أمر تمويل نشاط البعثة لقيمتها العلمية الحقيقية.
وأنذاك بالتحديد اتصلت مصلحة الآثار بمكتب رئيس مجلس
الوزراء. قرر جمال عبدالناصر التوجه فوراً إلى سقارة. خالجه
مشاعر الاضطراب حين راح يمسح بناظريه من مقعده بالسيارة

كل ما حوله. كان طريق الجيزة الضيق يتلوى عند أطراف وادي النيل الغارق في الخضرة. على مشارف هضبة اختلطت أحجارها ببحر الرمال الصحراوية. وهناك بدت من حيث انتهت الصفحات الذهبية، الأراضي الزراعية بلونها العقيقي تعكس جهد وعناية الفلاحين. كانت القرى التي استقرت عند حافة الطريق تبدو بالكاد بين حدائق البرتقال. بينما استقرت فوق أسقف المنازل وفروع الأشجار العصافير والطيور التي هي أشبه بتلك التي كانوا يقدسونها في مصر القديمة. وكان الفلاحون بجلاليهم الطويلة وطواقمهم البيضاء يعملون بالقرب من شواطئ القنوات. لقد كان المصريون يرتدون نفس تلك الملابس إبان العهود الغابرة كما تشهد على ذلك آثارهم القديمة.

وأخيراً ظهر عند حافة المنحدر بيت أبيض حيث كان يعيش غنيم وإحدى مصاطب الهرم المدرج.

خرج محمد زكريا غنيم تغمره مشاعر القلق والارتباك يستقبل رئيس مجلس الوزراء. كان يغطي رأسه بخوذة خضراء ويرتدي حلة مقلمة فضفاضة، يعكس مظهره صورة العالم الحقيقي من طراز أولئك الذين ينعتونهم بأنهم من "عالم آخر".

صافح محمد غنيم رئيس مجلس الوزراء ثم تقدمه عبر الدرب الصحراوي يقصد موقع العمل دون اعتبار لسخط المرافقين الذين كانوا ينتعلون أحذية عصرية تتسلل الرمال إليها من آن لآخر. راح يحدثه خلال الطريق عن عمله "فليكن التابوت خالياً من موميائه. أو لم نكتشف هرمًا جديدًا ونعرف اسم الفرعون بانيه؟ إن هذا من وجهة نظر علماء الآثار أمر بالغ الأهمية....." ثم مضى يقول: "أما عن الذهب فلم نجده بعد. بيد أنه ربما تكون هناك سراديب أرضية أخرى يتحتم علينا البحث عنها".

قاطعہ عبدالناصر والابتسامۃ تعلقو وجہہ:

__ إن الكنوز لا تهمنا. لقد جننا إلى سقارة لمشاهدة التابوت، جننا لنحفز الأبحاث العلمية ونشجع علماء الآثار المصريين.

قالوا لعبدالناصر أن الجو خانق داخل الهرم في مثل ذلك اليوم الحار من أيام يونيو. غير أنه وقد تأثر بحماس غنيم دلف إلى السرداب الضيق المنخفض المؤدى إلى داخل الهرم.

وكما ذكر عالم الآثار المصري فيما بعد فإن تشجيع عبدالناصر قد "خفف من مرارة خيبة الأمل" وبعث فيه قوة جديدة لمواصلة البحث. لقد كان عبدالناصر في غاية السعادة لأن هذا الاكتشاف لم يتم على أيدي الأجانب الذين كانوا لسنوات طويلة يعملون بمصلحة الآثار وحققوا بالفعل كثيراً من الأبحاث القيمة، بل على يد مصري من خريجي قسم الآثار * بجامعة القاهرة.

*أسس قسم الآثار بجامعة القاهرة العالم الروسي الشهير جو لينيشيف.

وبنفس الحماس منح عبدالناصر دعمه وتأييده للمصريين الموهوبين الآخرين.

ذات مرة عرض وزير الثقافة في أحد الاجتماعات قرار فصل مدير دار الكتب توفيق الحكيم لتراخيه في أداء واجباته.

وسأل عبدالناصر:

__ هل هو نفس توفيق الحكيم مؤلف "عودة الروح" ؟

وأجاب الوزير:

__ نعم.

دهش عبدالناصر. فلم يكن يتخيل أبداً أنه سوف يشارك يوماً في تقرير مصير كاتبه المفضل وأشار قائلاً:

__ لقد أثر هذا الكاتب على تأثيراً كبيراً.

لزم الوزير الصمت تعلوه أمارات الارتباك. فلم يتجاسر على أن يقول لعبدالناصر أن إدارة دار الكتب وكتابة الروايات أمران متباينان. غير أن عبدالناصر أدرك أن أحوال توفيق الحكيم ليست على ما يرام. فقد كان الكتاب المصريون قبل الثورة، حتى المشاهير منهم، غير قادرين على التكسب من عملهم الأدبي. وينبغي إيجاد حل لذلك.

جرى الإبقاء على توفيق الحكيم في منصبه. لكن سرعان ما تم توفير كافة الظروف الملائمة للإبداع الفني له وللمشاهير من زملائه.

كما انتُخب توفيق الحكيم فيما بعد عضواً بمجلس الأمة.

جرى اختبار أول مجموعة من الطلبة المصريين لإرسالهم للدراسة بالاتحاد السوفيتي. كان من المفروض أن يدرس عشرون منهم الطبيعة الذرية بجامعة موسكو. أصدر عبدالناصر بنفسه التعليمات الخاصة بضرورة إرسال أفضل العناصر. وقد ذكر مدير البعثات عند توديعه نيابة عن عبدالناصر لعلماء المستقبل في الذرة:

__ إنكم أول دفعة من الطلبة تسافرون إلى دولة شيوعية. ومن بينكم أبناء عمال وفلاحين وحر فيين. لا يهمننا أن تعودوا من هناك ماركسيين أو غير ماركسيين. إن ما يهمننا هو أن تعودوا مسلحين بأفضل أنواع المعارف التي تضعونها لخدمة مصر.

و حين زار عبدالناصر الاتحاد السوفيتي فيما بعد أعجب بمهارة فناني مسرح البولشوى. وأنداك فكر في تشكيل فرقة قومية للباليه. ولذا تقرر دعوة المتخصصين السوفييت في الباليه لوضع هذه الفكرة حيز التنفيذ. ولم يمر سوى بضع سنوات حتى هنا عبدالناصر فرقة الباليه المصرية بأول عروضها. وسرعان ما حظى الفنانون المصريون بالاعتراف العالمي وصاروا يشاركون على الدوام في المسابقات الدولية.

كما كانت مصر فخورة بأبطالها الرياضيين. فقد كان اسم لاعب الاسكواش الشهير عبدالفتاح عمرو معروفاً للعالم أجمع في سنوات ما بعد الحرب. وقبل الثورة. كما أصدر الملك فاروق قراراً بتعيينه سفيراً لمصر في انجلترا جزاء تفوقه الرياضي. وبعد الثورة أحيل عمرو إلى التقاعد. أما خليفته الشاب أبو غالب فقد حقق إنجازات لا تقل عن إنجازات سلفه. كما كان هناك كثير من لاعبي كرة القدم الموهوبين والسباحين المهرة. وقد أصبح طلبة معهد التربية الرياضية الذي أنشئ بعد الثورة وبلغ عددهم ألف وخمسمائة طالب مدربين محترفين.

إن الثورة لم تفسح وحسب المجال أمام الكتاب والفنانين والعلماء والرياضيين بل وغيرت من وجه البلاد.

فقبل الثورة كان الطابع التركي هو الغالب على حياة البلاد. على الرغم من أن فترة الاحتلال البريطاني الطويلة أثرت كذلك عليها. لقد كان يبدو لأولئك الذين يزورون أفضل أحياء المدن المصرية

وكأنهم موجودون في تركيا. كان الباشوات والبكوات يعيشون حياة
بذخ وترف، تكتظ قصورهم ومساكنهم بأفخر أنواع الفضة وأنقى
أصناف الزجاج والكريستال. كما كانت مصر ما تزال تشهد بعض
العادات التركية القديمة التي قضى عليها أتاتورك في بلاده. فعلى
سبيل المثال كان هناك الكثيرون الذين يتمسكون بالطربوش غطاء
للرأس في الوقت الذي كانت فيه عقوبة الإعدام جزاء ذلك في
تركيا. ويمكن للمرء حتى يومنا هذا أن يصادف بعض المسنين
بمصر وخاصةً من بين قدامى الباشوات يتحدثون التركية ويعتقدون
بأن الآخرين ملزمون بفهمهم.

لم تتغير مراسيم القصر لتتخذ الطابع الإنجليزي إلا في عهد الملك
فؤاد. بدأت النساء ولأول مرة يظهرن بحفلات الاستقبال في الزي
الأوروبي وليس في عباواتهم التركية البيضاء.

كان إلغاء الباشوية أمراً لا يعنى أهمية اجتماعية اقتصادية وحسب
بل وشيئاً أشبه ببوادر الثورة الثقافية. جرت مصادرة قصور
الأرستقراطيين المصريين والأجانب وتسليمها للشعب. وهكذا كان
هناك على سبيل المثال واحد من أكبر النوادي الرياضية في العالم
افتتح قبل الثورة بالأراضي المحيطة بقصر "لطف الله" وغدا
مقصوراً على الإنجليز وحدهم. أما بعد الثورة فقد فتحت أبواب
القصر على مصاريعها ليصبح أي مصري قادراً على ولوجها.
لقد تغير وجه البلاد داخلياً وخارجياً.

وصار رفاق عبدالناصر ضباط الأمم مديريين للمؤسسات والفنادق
والشركات التي كانت ملكاً للباشوات في السابق. وبالمناسبة فقد غدا
مستحيلاً على أبناء الباشوات والبكوات السابقين الالتحاق للعمل
بمؤسسات الدولة وبالكلليات العسكرية. بل وجرى تحديد إقامة
بعض أقطاب النظام السابق وأفراد عائلاتهم. كان المديرون الجدد

يعترفون في بعض الأحيان بأن الإشراف على شركة تجارية أو مسرح أكثر صعوبة من إعداد إحدى الكتائب للعرض العسكري. وللحقيقة فقد كان يحدث أن تمتد أيدي بعض "الهواة" إلى الأموال العامة. غير أن هذه الظواهر المؤسفة لم تكن تستطيع بطبيعة الحال تشويه الجوانب الإيجابية للثورة المصرية. فقد كان على قادتها اكتساب الخبرات الأمر الذي كان يحمل لهم في طيات المستقبل الأتراح والأفراح.

ذات مساء من فبراير عام ١٩٥٥ وما كاد عبدالناصر يخلد إلى فراشه حتى رن جرس التليفون. كان المتحدث على صبري: "ثمة أبناء غير طيبة". ألقى عبدالناصر بالروب على كتفيه وتناول قلماً وورقة.

ذكر على صبري أن القوات الإسرائيلية هاجمت قطاع غزة. توغلت لمسافة ميلين داخل الأراضي المصرية لتقصف محطة السكة الحديدية شمالي غزة.

لم يستطع عبدالناصر إخفاء دهشته فلم تشهد الحدود مع إسرائيل أية حوادث ذات شأن منذ قيام الثورة وعلى مدى عامين ونيف. لقد أقدمت إسرائيل على هذا الاستفزاز بمجرد توقيع اتفاقية الجلاء مع الإنجليز وضرب "الإخوان المسلمين". أو ربما يكون رفض مصر للانضمام إلى حلف بغداد سبباً في ذلك؟ أيكون الأمران مرتبطين ببعضهما البعض؟

لم يعد عبدالناصر إلى فراشه في تلك الليلة. ظل جالساً إلى جوار التليفون حتى مطلع الصباح. وفي اليوم التالي طلبت مصر عقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن لدى هيئة الأمم المتحدة. أعلن رئيس مجلس وزراء إسرائيل أن قوات بلاده قامت "بعملية محدودة". ولئن نشبت الحرب فسوف تتحمل مصر مسؤوليتها. لقد مضت منذ ذلك الحين أعوام طويلة وألف العالم كون إسرائيل تلجأ إلى مثل هذه التفسيرات الهزلية لتبرير أي من استفزازاتها بما فيها أكثرها وقاحة. كما قامت إسرائيل مراراً بمثل هذه "العمليات المحدودة"

ضد كافة البلدان المجاورة لها ودون استثناء. كان عبدالناصر قد التقى عام ١٩٤٨ أيام كان ضابطاً بالإسرائيليين في ساحة المعركة وها هو ملزم كرجل دولة بالتصدي في حسم للاستفزازات الإسرائيلية. أما المسؤول عن مهاجمة قطاع غزة فكان السياسي الإسرائيلي بن جوريون صنيعة المؤسسة العسكرية. غير أن الهجوم على غزة لم يكن سوى البداية. فمذ ذلك الحين صارت كل خطوة يقوم بها عبدالناصر لا توافق هوى الإمبرياليين بتهديدات إسرائيل أو باستفزازاتها على الحدود. لقد كانوا يُلْمحون لعبدالناصر بأن مصر لن تشعر بالأمان طالما ترفض الانضمام إلى حلف بغداد.

لقى عشرات المصريين حتفهم نتيجة العدوان الإسرائيلي على غزة علاوة على هجرة اللاجئين المنهكين رثى الثياب إلى القاهرة حاملين معهم أطفالهم الجوعى. كان الكثيرون منهم يفرون للمرة الثانية هرباً من اضطهاد الإسرائيليين. لقد كانت بيوتهم وحدائقهم في فلسطين حيث صار المحتلون يعيثون فساداً بعد عام ١٩٤٨. انتقل الجزء الأعظم من الفلسطينيين إلى غزة. لم يكن أبناؤهم يملكون فرصة الالتحاق بالمدارس. بينما رحلت بناتهم بعد أن كبرن "للتكسب" بالملاهي الليلية في بيروت واستانبول وطهران وباريس. وها هم نفس هؤلاء الناس يتعرضون ثانية لهجوم جديد فيما تعجز مصر عن حمايتهم.

اعترف مجلس الأمن بمسؤولية دولة إسرائيل عن العدوان ودعا البلدين إلى تفادى مثل هذه المواقف مستقبلاً. ولم يكن هذا التعويض المعنوي ليغنى مصر عن خسائرها المادية. لم ينقُص من الزمن الكثير حتى استطاع عبدالناصر وبالسبل السياسية المحضة تحويل الانتصار الذى حققته إسرائيل على الصعيد العسكري إلى هزيمة.

كان عبدالناصر يرى ضرورة البدء في دعم الجيش دون توانٍ. وقد أثبتت المباحثات مع الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا استحالة حصوله على السلاح منها. وحفزت العوامل الواقعية الموضوعية عبدالناصر إلى التفكير في أنه لن يستطيع الحصول على الأسلحة إلا من البلدان الاشتراكية.

كانت تركيا والعراق قد وقعتا إبان تلك الفترة على اتفاق يعد أساساً لحلف بغداد. وكان الساسة الأمريكيون ولا سيما دالاس يعتبرون تشكيل حلف بغداد إنجازاً ضخماً. وها هم يودون الآن استمالة بلدان عربية أخرى إلى هذا الحلف العسكري الجديد. كانوا يدركون في الولايات المتحدة الأمريكية أن العرب قد تعودوا منذ القدم على الاعتداد بموقف مصر أكبر البلدان العربية وأشدّها نفوذاً وهيبة بالشرق الأوسط. وأمّلت الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا على استخدام نوري السعيد الرجعي المتطرف والمسمى "بسمارك العراق" للتباحث مع مصر حول هذا الموضوع. فلم يكن هناك غيره في الشرق الأوسط بأسره رجل دولة آخر يستطيع الإمبرياليون الاعتماد عليه. وحين نشرت الصحف نبأ اعتزام نوري السعيد السفر إلى القاهرة غدت واضحة للجميع الأهداف التي يبتغيها من هذه الزيارة.

كان عبدالناصر يدرك جيداً مدى الخطر الذي يخيم على بلاده. فائن تيسرت استمالة مصر إلى هذا الحلف العسكري فسوف تتحول كل إنجازات الثورة إلى رماد.

تفاقم الأمر نظراً لأن نوري السعيد لم يكن يعترم الاقتصار على أداء دور سلبي بالحلف العسكري الذي يخططون لتشكيله. كان على مصر بدء جولة جديدة من النضال. وكان عبدالناصر صليداً

في مواقفه المعادية للإمبريالية مما خلق له الأنصار في كل العالم العربي. وكان سبباً في شعبيته بمصر.

جاء يونيو ١٩٥٦. كانوا في بورسعيد حيث تقف السفن المدعوة لنقل آخر جنود الاحتلال الإنجليزي. يستعدون للاحتفال بهذه المناسبة. توافد إلى الميناء الكثير من الصحفيين والضيوف الأجانب. وراح الناس يرقصون في ملابس العيد على أنغام المزامير ودقات الطبول بالشوارع المزدانة بالأضواء والزهور. وأطلقت الصواريخ ابتهاجاً وتبدت ناصعة البياض أشعة قوارب الصيادين التي استقرت صفاً واحداً على صفحة مياه البحر أمام مدخل قناة السويس وكأنما هي في عرض عسكري. لقد انتهت وعلى نحو مهين فترة الاحتلال الطويلة للأراضي المصرية إذ أن الإنجليز كانوا قد جاءوا إلى البلاد محدثين الهرج والمرج يعلو هدير بوارجهم التي راحت تقصف الإسكندرية من البحر. أما الآن فما هم يغادرون محاولين التخفي بعيداً عن الأعين كما للصوص. قصارى القول رحل الإنجليز عن مصر دون احتفال مهيب ودون عزف النشيد الوطني.

وصل عبدالناصر ميناء بورسعيد ليرفع العلم المصري فوق مقر القاعدة العسكرية الإنجليزية في منطقة قناة السويس تحت وقع هتافات ترحيب واستحسان سكان المدينة. لزمّت مئات الألوف من السكان أماكنها تحت أشعة الشمس المحرقة تصغى قرابة الساعتين إلى خطاب عبدالناصر.

قامت الحكومة فور جلاء قوات الاحتلال بإلغاء حالة الطوارئ التي كانت قد أعلنت عقب قيام الثورة. كما صدر العفو عن كافة المعتقلين السياسيين الأمر الذي جعل كل مصري يشعر بأن الثورة نجحت في تحقيق واحدة من المهام التي قامت من أجلها.

كان عبدالناصر يغدو مع كل عام جديد على يقين من أن مصر لا يمكن أن تعيش في عزلة. وفي عام ١٩٥٥ صدر كتابه "فلسفة الثورة" الذي حاول فيه صياغة تجربة اشتراكه في حرب فلسطين وفي الثورة. أدرك الجميع ما يتسم به الكتاب في حرب فلسطين وفي الإمبريالية وما تضمنه حول وحدة العرب التاريخية والثقافية وعلاقتهم بشعوب آسيا وأفريقيا.

وقد كان عبدالناصر يرى أن البلدان المستعمرة والبلدان النامية في ظروف الصراع بين النظامين العالميين -الاشتراكي والرأسمالي- تملك إمكانية فعلية لتحقيق استقلالها السياسي إذا ما انتهجت طريق عدم الانحياز إلى أي من الأحلاف العسكرية. كما أثبتت له الخبرة فيما بعد أن هذه البلدان ينبغي أن تعمل جبهة واحدة وأنها تستطيع الاعتماد في نضالها على الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية الأخرى.

وقد أعلن عبدالناصر صراحةً يوم انضمت باكستان إلى حلف بغداد معلنةً بذلك عن ارتباطها النهائي بالمعسكر الرأسمالي عن تعاطفه وميله إلى الهند غير الإسلامية. وقد كان ذلك دليلاً على سعة أفق وتقدمية وجهات نظر عبدالناصر إذ أن الوحدة الدينية لم تكن المعيار الذي يحدد السياسة الخارجية لمصر بل كانت الرغبة في توطيد العلاقات مع البلدان التي تتمسك بـ "الحياد الإيجابي" الذي صيغت أسسه النظرية بشكل نهائي في مؤتمر باندونج. ولقد دخل عبدالناصر عن حق مع نهرو وسوكارنو وبقية زعماء حركة التحرر الوطني، التاريخ بوصفه أحد مؤسسي حركة البلدان غير المنحازة بعد ذلك المؤتمر الذي جمع وفود ٢٩ من بلدان العالم يبلغ تعدادها البشري ما يزيد عن نصف سكان الكرة الأرضية. وكانت الفترة التي سبقت انعقاد المؤتمر حين كانت مصر تتعرض لضغط

البلدان الإمبريالية التي حاولت إرغامها على الانضمام إلى حلف بغداد كافية كي يتأكد عبدالناصر عملياً من مدى قوة تضامن البلدان غير المنحازة التي كانت بدورها تخبّر مدى جدية مصر وعزمها على السير في طريق الاستقلال.

وفي فبراير ١٩٥٥ في الفترة التي هاجمت فيها القوات الإسرائيلية غزة استقبل عبدالناصر عدداً من كبار المشاهير. وكان أول هؤلاء جوزيف بروز تيتو الذي وصل إلا الإسماعيلية على متن إحدى السفن. رافقه عبدالناصر حتى ميناء بورسعيد. وعلى مدى خمس ساعات وهي الفترة التي استغرقتها رحلتها المشتركة تحدث إلى تيتو عما يثير مخاوفه. أعلن تيتو عن تأييده لعبدالناصر واتفق معه في ضرورة عدم انضمام مصر إلى حلف بغداد الإمبريالي.

وصل إلى القاهرة بعد ذلك نهر و. وقد أثبت اللقاء الأول معه ترحيبه الحار بعزم مصر على رفض المشاركة في الأحلاف العسكرية الإمبريالية.

لقد أتى مؤتمر باندونج ثماره إذ أن زعماء البلدان غير المنحازة كانوا على استعداد حقيقي لتقديم العون إلى بعضهم البعض. وهكذا تفتحت آفاق جديدة لتقديم العون إلى بعضهم البعض. وهكذا تفتحت آفاق جديدة أمام عبدالناصر ولقيت الثورة المصرية اعترافاً عالمياً، أما قائدها فقد أثبت أنه سياسي ودبلوماسي بارز.

ودع عبدالناصر نهر و ليستعد لاستقبال ضيف جديد؛ وقد كان القادم إلى مصر هذه المرة أنطوني ايدن وزير خارجية بريطانيا.

توافدت العربات الليموزين الفارهة الواحدة تلو الأخرى على مبنى السفارة الإنجليزية. كانت الساحة الداخلية للسفارة غارقة في أضواء الباهرة شأن العهود السابقة. ولم يكن ايدن يعتزم البقاء في

مصر أكثر من يوم واحد. قرر السفير إقامة حفل عشاء فاخر يليق بقاء ايدين بجمال عبدالناصر.

قدم السفير جمال عبدالناصر إلى ايدين وقرينته. قدمت الأخيرة يدها على نحو يوحى بالرغبة في تقبلها؛ ارتبك عبدالناصر وما إن أدرك ذلك ايدين ذلك الأرستقراطي المحنك حتى سارع يقدم يد العون، شرع يتحدث عن الطقس وراح عبدالناصر يستمع في دهشة إلى ايدين الذي يتحدث بالعربية. سارع ايدين يزيل الدهشة والغموض بتوضيح أنه كان يود فيما سبق دراسة الأدب العربي.

تذكر ايدين في ارتياح لقاءاته مع الساسة المصريين الذين كانوا قد زاروا لندن عام ١٩٣٦. وكانت صورة فوتوغرافية قد جمعت بينه آنذاك وبين هؤلاء المصريين الذين كانوا يختالون بطرابيشهم الحمراء. وقد ذكر لعبدالناصر أن هذه الصورة معلقة اليوم بمنزله.

كانوا يقدمون الويسكي المخلوط بالصودا بينما كان عبدالناصر يمسك كأساً مملوءة بالعصير. فلم يكن يقرب المشروبات الكحولية. كانوا يتبادلون الأحاديث من حوله في مرح وصخب.

أما عبدالناصر فكان تواقاً إلى التحول إلى حديث ذي معنى. واستطاع في نهاية الأمر تناول موضوع جلاء القوات الإنجليزية من منطقة قناة السويس.

__ أمل أن يسفر ذلك عن فتح صفحة جديدة في تاريخ العلاقات بين بلدينا. إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسفر عن ترديها هو محاولة انجلترا فرض حلف بغداد على الشرق الأوسط.

وتساءل ايدين في اهتمام:

__ ولماذا تعارضون حلف بغداد؟

أجاب عبدالناصر:

_ لأننا نرفض أية أحلاف عسكرية.

_ لكن ما الذى يدفعكم إلى شن حملة ضد مؤيدي هذا الحلف ؟

أجاب عبدالناصر بأن حكومته لم تشن أبداً هجوماً على أحد، غير أنه يعتقد أن هذا الحلف محاولة لتفريق البلدان العربية ولعزل مصر. فلئن انضمت إلى الحلف سوريا ولبنان والأردن وربما بلدان منطقة الخليج العربي، فسوف تكون مصر مواجهة بضرورة التصدي وحدها لإسرائيل. أن الحلف يهدد الوحدة العربية وما إن سمع ايدين كلمتي "الوحدة العربية" حتى سارع يقاطع عبدالناصر:

_ ألم أكن أول من نادى بالوحدة العربية ؟ لقد أعلنت في عام

١٩٤٢ بأن انجلترا تنظر بتعاطف إلى محاولات البلدان العربية للتوصل إلى اتحاد سياسي.

أجاب عبدالناصر:

_ كلا، لم تكن أول من فكر في موضوع الوحدة العربية. إن التأييد الذى نلقاه ببلادنا يدل على أن وجهة نظرنا تتفق ورغبات الجماهير الشعبية. غير أن ايدين واستناداً إلى اعتقاده بأن الإنجليز أفضل من يعرف طموحات وهواجس العرب، أعلن أن شعوب بلدان الشرق الأوسط تنزع نحو التصدي للشيوعية.

ذكر ايدين:

_ إن انجلترا على استعداد لأن تبحث معكم قضايا مصر الداخلية

إلا أننا لا نستطيع الموافقة على موقفكم تجاه القضايا العربية العامة. غادر ايدين القاهرة في اليوم التالي قاصداً بغداد. وبعد أن

تقلد منصب رئيس الوزراء سرعان ما تقدم باقتراح حول إنهاء النزاع العربي الإسرائيلي والاعتراف بالحدود القائمة.

استجابت البلدان العربية لهذه المبادرة وأعلن عبدالناصر أن اقتراح ايدن أساس جيد للتفاوض. إلا أن إسرائيل رفضته بعنف. أما لندن فقد واصلت شأنها في السابق، ضغطها على البلدان العربية في محاولة منها لإرغامها على الانضمام إلى حلف بغداد.

وفي نهاية عام ١٩٥٥ وصل إلى القاهرة سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية الجديد.

كانوا هناك على ضفاف التايمز يتصورون أن انضمام الأردن إلى حلف بغداد يمكن أن يرغم عبدالناصر على التراجع عن الحياد. كانت لندن على يقين من أن الأردن لن تخذلها إذ كان الإنجليز يعولون كثيراً على جلوب باشا ذلك العسكري المحنك القديم الذي يقيم على الدوام هناك. كان يجيد العربية، يتخذ العقال والزى البدوي ملبساً له ويعتبر غير غريب على قصر الملك.

ولذا ما إن وصل سلوين لويد إلى القاهرة حتى توجه إلى عبدالناصر يؤكد له أن مواقع انجلترا في الأردن وطيدة. غير أنه في تلك اللحظة الذي دار فيها ذلك الحديث اقترب موظف السفارة الإنجليزية من سلويد لويد يسلمه برقية تحمل نبأ طرد جلوب باشا من الأردن.

تحدث عبدالناصر يخاطب الوزير الإنجليزي:

__ حين تتلقون معلومات حول أن الشعوب العربية تحلم بالانضمام إلى الأحلاف العسكرية من أناس على شاكلة جلوب باشا، ينبغي ألا تصدقوها.

استنتج سلوين لويد أن طرد الجنرال جلوب لم يكن ليتم دون تدخل المصريين.

تناول الحديث القضايا الاقتصادية كذلك ولم يكن أمراً يسيراً إجراء مفاوضات مع عبدالناصر. كان سلوين لويد يود التلميح للطرف الآخر في المباحثات حول أن انجلترا ولئن كانت مهتمة بإجراء مباحثات لا تستطيع في ذات الوقت التضحية بمصالحها. وشرع يوضح مدى الأهمية التي تعلقها انجلترا على المجتمع الصناعي الذي شيد لاستخراج نפט الشرق الأوسط وتعتبر قناة السويس جزءاً منه.

كان عبدالناصر محقاً حين لاحظ أنه إذا كانت البلدان التي تقوم الشركات الأجنبية باستخراج النفط من أراضيها تقسم الأرباح معها بنسبة ٥٠% فلم تتقاضى مصر نسبة ٦% فقط من رسوم العبور في قناة السويس؟ أو لم يقل وزير خارجية بريطانيا منذ لحظات أن القناة تعتبر جزءاً لا يتجزأ من المجمع النفطي الصناعي؟

سرعان ما رحل سلوين لويد إلى البحرين ليكون على مقربة من مراكز استخراج النفط. وبالجزيرة كان باستقباله حشد كبير من المتظاهرين الذين راحوا يرمونه بالبيض الفاسد والطماطم العفنة مرددين: "يسقط المستعمرون.. يعيش عبدالناصر". ولم يستطع الوزير الإنجليزي الاختفاء بعيداً عن الجماهير الساخطة إلا بصعوبة بالغة.

ألقى سلوين لويد على عبدالناصر تبعة ذلك الاستقبال الذي لقيه في البحرين متذكراً ذلك الدرس الذي ألقى عليه بالقاهرة. ومنذ ذلك الحين صار يعزو إلى عبدالناصر كل إخفاقات السياسة الإنجليزية بالشرق الأوسط.

كان عبدالناصر يأمل في أن تكون إقالة جلوب باشا حافزاً يدفع البلدان العربية إلى تأييد سياسة الحياد الإيجابي وسرعان ما دعم هذا الأمل لقاء رؤساء البلدان الثلاثة: مصر والعربية السعودية وسوريا. فقد وقع الملك سعود والرئيسان عبدالناصر وشكري القوتلي معاهدة تعاون بين البلدان الثلاثة. وكان ذلك ضربة أخرى موجهة إلى الإمبريالية.

قامت الدوائر الإمبريالية بتشديد حملتها ضد مصر. ونشرت "ديلي تلغراف" على بيل المثال مقالة بعنوان "الخطة السرية لعبدالناصر" أكد كاتبها أن عبدالناصر يقوم بأعمال تخريبية ضد البلدان الرأسمالية.

وجرى إصدار المنشورات ذات الطابع المعادي لعبدالناصر وتسريبها إلى داخل مصر بمعرفة وتحت إشراف إدارة المخابرات المركزية الأمريكية. وكما اتضح فيما بعد جرت في الولايات المتحدة الأمريكية مناقشة موضوع: من سوف يتولى القيادة بمصر بعد الإطاحة بعبدالناصر وطرح اسما النحاس زعيم حزب "الوفد" ذي الشهرة الطاغية في الماضي واللواء نجيب كمرشحين لهذا المنصب.

كما جرى توقيع العقوبات الاقتصادية. فقد اتخذ الإنجليز قراراً بالحد كثيراً من وارداتهم من القطن المصري طويل التيلة. وعندئذ توجهت مصر التي كان اقتصادها يتوقف كلية على تسويق القطن إلى الاتحاد السوفيتي تطلب الدعم. وسرعان ما اشترت بلدان المنظومة الاشتراكية ثلث محصول القطن المصري آنذاك.

استطاعت المخابرات المصرية الحصول على قائمة السلاح الذي تولت لندن تقديمه إلى تل أبيب. وقد استطاع عبدالناصر بعد دراسة هذه القائمة التأكد من أن أحاديث الدبلوماسيين الغربيين حول

"المحافظة على توازن القوى" ليست سوى خدع دعائية تستهدف إضعاف مصر. واتضح أن الجيش الإسرائيلي أفضل تسليحاً من الجيش المصري. وهنا أدرك عبدالناصر السبب الذي يدفع الإنجليز والأمريكيين إلى العزوف عن بيع السلاح إلى مصر. ولم يكن أمامه سوى طريق واحد وهو شراء السلاح من البلدان الاشتراكية. لم يكن الأمريكيون يتصورون أن عبدالناصر سوف يقدم على ذلك. وكان جون فوستر دالاس يعتقد أن عبدالناصر يود الضغط عليه ليس أكثر. أما الإنجليز فقد كان رد فعلهم متبايناً حيث قام السفير البريطاني بزيارة عبدالناصر وتحذيره من "العواقب الجسيمة" لهذه الخطوة. وتطورت الأحداث فيما بعد على النحو التالي.. اتصل أحد المصريين من عملاء المخابرات الأمريكية بمندوب إدارة المخابرات المركزية في القاهرة جو ايكلبرج ليبلغه نبأ توقيع اتفاقية السلاح. وقد كتب هيكل يقول بهذا الصدد أن ايكلبرج اتصل به تليفونياً في الثالثة بعد منتصف الليل. فيما كان بالغ القلق والتوتر. راح يصر على أن يتدخل هيكل لدى عبدالناصر لمساعدته على تفادي "المصيدة الشيوعية" ويطلب الانتظار ريثما يصل من واشنطن مبعوثها الخاص الذي اتخذ طريقه متوجهاً إلى القاهرة. غير أن عبدالناصر كان قد فقد ثقته بالأمريكيين.

وفي ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ كان من المفروض أن يقام استعراض عسكري. وصلت جمهرة كبيرة من المراسلين الأجانب لحضور هذا العرض. اعتلى جمال عبدالناصر المنصة في الوقت المحدد. بدأ حديثه كعادته بلهجة رصينة يتوقف بين الفينة والأخرى راح يتحدث بإسهاب عن محاولات النظام الثوري التي لم تكلل بالنجاح لشراء السلاح من البلدان الرأسمالية بينما جلس الصحفيون صامتين يصيخون السمع إلى كل كلمة مدركين، بناء على خبراتهم أنه لم يفصح بعد عن أهم نقاط خطابه.

أعلن عبدالناصر أن حكومة تشيكوسلوفاكيا أعربت عن استعدادها لتصدير السلاح إلى مصر في حدود احتياجاتها وعلى أساس صفقة تجارية محضة.

مضى عبدالناصر في خطابه بينما كانت أجهزة التلكس قد طيرت إلى جميع أنحاء العالم النبأ "المفاجأة" (حسب تقديرات الصحفيين) والذي وصفه جون فوستر دالاس بأنه "أخطر خطوة منذ أيام حرب فيتنام".*

أما جمال عبدالناصر فكان يجيب على أسئلة الصحفيين الذين كانوا يمتطرونه بها يومياً على نحو وكأنما يتحرش بالإمبرياليين. وقد أعاد مراسل الإذاعة الأمريكية بادئ ذي بدء تطلب منها بيعها السلاح. وحين حاول الصحفيون اللجوجون معرفة حجم صفقة السلاح ونوعيته ابتسم عبدالناصر على نحو ينم عن سخريّة ثم قال "إنه سر عسكري".

لم يكن الأمر يعنى عموماً أية "مفاجأة". فقد أبلغ عبدالناصر في اليوم التالي لتوقيع اتفاقية شراء السلاح سفيرِ الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بهذا النبأ. كما كان مجدياً لعبدالناصر أن تدرك واشنطن ولندن أن هناك من هو على استعداد لتقديم العون غير المغرض إلى الشعب المصري.

أثار إصرار وصلابة عبدالناصر قلق واشنطن ولذا فقد توجه د. الين مساعد وزير الخارجية الأمريكية إلى مصر على وجه السرعة. غير أنه لم يستطع تغيير الموقف لصالح الولايات المتحدة الأمريكية. فلم يكن المصريون في حاجة بعد ذلك إلى عروض المبعوث الأمريكي. لقد لبث الين والسفير الأمريكي ينتظران طويلاً في غرفة الاستقبال ريثما وافق عبدالناصر على الاستماع إليهما.

غدا عبدالناصر على مدى تلك الأيام القلائل أكثر الشخصيات شعبية بالشرق العربي. ظهرت صور رئيس مصر في المساكن وواجهات المحلات التجارية في بغداد والدار البيضاء في عدن ودمشق؛ في عمان وبيروت.

سرعان ما وصل إلى القاهرة وفد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي. وقام أعضاء الوفد برفقة سفير بلادهم بزيارة عبدالناصر. وما كاد هؤلاء يبارحون مبنى الرئاسة حتى قفز يتقدم إليهم قزم يحمل علبة من الصفيح. قلب السفير الأمريكي جيبه مؤكداً أنه لا يحمل نقوداً إلا أن أعضاء الوفد اضطروا إلى تلبية رغبة ذلك السائل.

ظهرت الصحف المصرية صباح اليوم التالي تحمل نبأ أن أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي تبرعوا لشراء الأسلحة التشيكوسلوفاكية مما اضطر السفير الأمريكي إلى عقد مؤتمر صحفي حيث أعلن أن أعضاء الوفد تبرعوا لصالح أسرة ذلك القعيد.

أما عن الاستعراض العسكري في القاهرة. فقد جرى بنجاح كبير. وشقت سماء القاهرة الطائرات العصرية النفاثة السوفيتية الصناعة تحمل علامات الجيش المصري. وهدرت بشوارع وميادين العاصمة الدبابات الثقيلة والمدافع ذاتية الحركة. لم يشهد التاريخ مثل تلك الأسلحة الممتازة لدى الجيش المصري. كان الملحقون العسكريون الأجانب يعجزون عن ملاحقة تسجيل ما يجري أمامهم. فقد استمر الاستعراض أربع ساعات. ولبث عبدالناصر يقف تحت أشعة الشمس الحارقة هذه الساعات الأربع. لقد كان في تلك اللحظات فخوراً ببلاده، فخوراً بجيشه. شاركت وحدات عسكرية رمزية من البلدان العربية الأخرى في العرض إلى جوار القوات المصرية. إذ سار ممثلو الوحدات الأردنية في زيهم الوطني المميز. لقد كان

اشتراكهم وكأنما يؤكد ذلك الدور الذي تلعبه مصر في العالم العربي.

أعلن "الضباط الأحرار" في مطلع تلك الفترة التي أعقبت الثورة أنهم يعتزمون تحقيق حلم المصريين الذي طال قروناً وهو بناء سد عالي على النيل.

*الحرب التي شنها الاستعمار الفرنسي ضد الشعب الفيتنامي بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية.

أجرت مصر على مدى سنوات طويلة مفاوضات مع البنك الدولي للإنشاء والتعمير حول بناء ذلك السد. وقد تباحث د. دالاس مع أحمد حسين سفير مصر في واشنطن حول هذا الموضوع. وذكر السفير بهذا الصدد أنه شرح للمستر دالاس أن مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية في بناء السد العالي أمر غاية في الأهمية بالنسبة لمصر. كما أوضح له أنه وعلى الرغم من أن الحكومة السوفيتية تعرض شروطاً أفضل من تلك التي يقدمها البنك الدولي، فإن مصر تفضل شأنها في السابق التعاقد مع البنك. وشرح له أنه ليس في صالح البنك المماثلة في اتخاذ قرار تمويل بناء السد؛ حيث أن ذلك سوف يدفع مصر إلى قبول العرض السوفيتي. وقد ذكر محمد حسنين هيكل أن ذلك كان مبادرة شخصية من السفير فلم يكن

الاتحاد السوفيتي في ذلك الحين قد تقدم بأية عروض. لقد تحمل أحمد حسين وزر ذلك.

كان أحمد حسين شخصاً عملياً. استغل في مهارة تلك الحالة العصبية التي انتابت الأمريكيين بعد توقيع اتفاقية السلاح بين مصر والبلدان الاشتراكية. وعد البنك الدولي الخاضع كلية لنفوذ الولايات المتحدة الأمريكية بتغطية نصف النفقات على أن تتولى إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية تغطية بقية النفقات أي ٢٠٠ مليون دولار. غير أن الإنجليز والأمريكيين لم يوافقوا سوى على تغطية مصاريف السنة الأولى من أعمال البناء.

لم يتجاسر عبدالناصر على البدء في عملية بناء السد التي تستغرق عشرة أعوام نظراً لأنه لم يكن على يقين من السير فيها حتى نهايتها. فقد كان موقف إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية يضطر مصر سنوياً إلى إجراء المفاوضات حول القروض، بينما كان الدائنون يستغلون ذلك للضغط على الجمهورية الفتية.

اتضح أيضاً أن الولايات المتحدة الأمريكية تربط معونتها في بناء السد العالي بمختلف الشروط. فقد كان ينبغي على مصر وبادئ ذي بدء أن تعلن أنها لن تعقد أية صفقات سلاح أخرى مع بلدان أوروبا الشرقية. إلى جانب التزام عبدالناصر بضمان السلام مع إسرائيل استناداً إلى زعامته بالشرق الأوسط.

كان من الواضح أن المفاوضات مع الولايات المتحدة الأمريكية وصلت إلى طريق مسدود. وسرعان ما تأكد ذلك في واقع الأمر. فقد تراجعت الولايات المتحدة الأمريكية عن قرارها الأول ورفضت تمويل المشروع. علم عبدالناصر بذلك في الطائرة التي كانت تقله من يوغوسلافيا إلى القاهرة. كان يرافقه في تلك الرحلة جواهر لال نهرو. اطلع على بيان الخارجية الأمريكية ثم توجه إلى

وزير خارجيته محمود فوزى يخاطبه: "إنه ليس رفضاً وحسب.
إنه ضربة موجهة إلى النظام الجديد ودعوة إلى الشعب المصر
للإطاحة به.....".

وصلت الطائرة القاهرة في وقت مبكر من الصباح.

لم يستطع عبدالناصر تناسى حديثه مع سلوين لويد بأي حال من
الأحوال. إذن لم لا تستفيد مصر حقيقةً من حقوقها السيادية
وتحصل على الأموال اللازمة لتغطية بناء السد العالي من رسوم
عبور السفن في قناة السويس؟ ولماذا ينبغي على المصريين اقتسام
دخل القناة مع الأجانب؟

اختار عبدالناصر في وقت سابق أولئك الذين يمكنهم الاضطلاع
بعبء الإعداد لعملية تأميم القناة البالغة التعقيد والأهمية وقد كان
من بين هؤلاء المهندس محمود يونس والدكتور مصطفى الحفناوي
وآخرون، أطلعهم عبدالناصر على خطته وأوكل إلى كل منهم
المهمة الخاصة به. وعلى سبيل المثال فقد تولى الدكتور الحفناوي
إعداد نص قانون تأميم القناة.

كان عام ١٩٦٨ هو موعد انتهاء امتياز القناة بينما كانت تنوى
تمديده شركة قناة السويس للملاحة البحرية التي تملك معظم أسهمها
حكومة بريطانيا والمساهمون الفرنسيون.

حاول عبدالناصر التنبؤ بما يمكن أن يعقب إعلانه عن تأميم القناة.
ظل لا يبارح غرفة مكتبه طوال الليل. وعند الصباح استقرت فوق
مكتبه خطة أسماها.. "لو كنت محل ايدن".

سجل عبدالناصر في هذه الوثيقة متذكراً لقاءه مع ايدن بالقاهرة:
"ينبغي أن يتسم رد فعل ايدن بالحدة. غير أنه ربما يحاول اللجوء

إلى القوة حين يدرك ضعف موقفه. لكنه غير قادر على احتلال البلاد بأكملها".

لكن أية قوى تستطيع انجلترا إرسالها إلى مصر؟

لعل ايدن سيحاول توريث فرنسا في مغامرته. ولربما تأخذ فرنسا بالذات زمام المبادرة. سوف تبارك الولايات المتحدة الأمريكية هذه التصرفات لكن في صمت. فليس ثمة من يستطيع معرفة مدى تأثير ذلك على انتخابات الرئاسة القادمة. إمكانات المعتدى محدودة. سوف يتصرف الروس في حسم. فما الذي يستطيعه المعتدى؟ مهاجمة الإسكندرية انطلاقاً من ليبيا. يتطلب ذلك قوات كبيرة نظراً لأنهم سوف يكونون مضطرين للذهاب إلى القاهرة. من غير المنتظر أن يقدموا على قصف الإسكندرية من البحر كما فعل ذلك الأدميرال سيمور عام ١٨٨١. فذلك غير مُجدٍ نظراً لخطورة رد فعل الرأي العام العالمي. من المحتمل أيضاً إنزال قوات مظلية للاستيلاء على القناة. وهذا يعنى ضرورة دعم القوات المرابطة بالقناة ولو على حساب سيناء...".

لقد كان ذلك يؤكد أن عبدالناصر ورغماً عن مهاجمة غزة يعتقد أن ايدن لن يوافق على اشتراك إسرائيل في هذه العملية.

ويمضى عبدالناصر في استعراض خطته: "إن التدخل الفوري من أخطر الأمور. إن ذلك سوف يحدث في الغالب في مطلع أغسطس. سوف تقل فرصة ايدن في النجاح مع كل أسبوع جديد. سنكتف نشاطنا السياسي. نسبة الخطر في الأسبوع الثاني من أغسطس ستكون ٦٠%. أما في الأسبوع الثالث ٥٠% وفي الأسبوع الرابع ٤٠%. هذا بينما تقل كثيراً في نهاية سبتمبر ٢٠%...".

إن هذه الوثيقة تتيح فرصة التعرف على أسلوب عبدالناصر في العمل والتأكد من صحة تنبؤاته.

وإذ فرغ عبدالناصر من تقويمه للأوضاع لبث ينتظر بفارغ الصبر ما ستسفر عنه الأحداث. حضر في ٢٣ يوليو ١٩٥٦ حفل افتتاح مصنع تكرير البترول في السويس. كان عبدالناصر يود الاستفادة من هذه المناسبة لإعلان قراره حول تأميم القناة. بيد أنه كان ينبغي عليه تدقيق بعض التفاصيل. ومع ذلك فقد أعلن عبدالناصر في حسم موجهاً حديثه إلى الولايات المتحدة الأمريكية والذي دوى بالعالم أجمع: "موتوا بغيظكم.. إن مصر سوف تبنى السد حتى ولو تطلب الأمر أن نحفر الصخر بأظافرنا".

استمع عبدالناصر إلى حديث محمود يونس الذي كان مشرفاً على عملية بناء مصنع التكرير ليقرر تعيينه رئيساً للجنة تأميم القناة. التقى به فور الانتهاء من مراسم الاحتفال.

قدموا إلى عبدالناصر في تلك الليلة المعلومات حول القوات الإنجليزية المتمركزة بالبحر الأبيض المتوسط. اتضح أن الإنجليز لا يستطيعون بدء غزوهم فوراً نظراً لأن حشد قواتهم غير ممكن قبل شهرين على الأقل.

أصدر عبدالناصر أمره إلى محمود يونس بالتوجه فوراً إلى الإسمايلية حيث مقر إدارة قناة السويس، والتزم مكانه بجوار الراديو للاستماع إلى خطابه الذي سوف يلقيه يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ بالإسكندرية.

اتفقا على أن يبدأ محمود يونس في تنفيذ الخطة فور نطق عبدالناصر اسم "ديليسيبس" أما إذا لم تجر الإشارة إلى ديليسبس في الخطاب فينبغي على محمود يونس الانتظار حتى إشعار آخر. كان

محمود يونس قد أعد قائمة بأسماء المهندسين العسكريين والمدنيين الذين سوف يقومون معه بتنفيذ العملية، وحيث تسلم كل منهم مظروفاً مختوماً بالشمع الأحمر يحتوى على التعليمات الخاصة به.

اجتمع عبدالناصر بأعضاء وزارته في الإسكندرية قبيل إلقاء خطابه. قام بعرض خطة تأميم القناة على الحكومة في إيجاز قبل انعقاد المؤتمر الشعبي بساعتين. وأعلن عبدالناصر أنه يتحمل مسؤولية تصرفاته. وذكر محمد حسنين هيكل أن الاجتماع انتهى دون اتخاذ أي قرار رسمي.

لم يكن الوقت قد أسعف عبدالناصر على إعداد خطابه مسبقاً. ولم يفعل سوى أن قام أثناء اجتماع مجلس الوزراء بتسجيل بعض النقاط على ظهر مظروف. كما لم يستطع عبدالناصر التفكير في هذه النقاط أثناء طريقه إلى المؤتمر الشعبي نظراً لأنه كان يستقل عربة مكشوفة يرد منها على تحية الجماهير التي احتشدت على جانبي الطريق.

ورغمًا عن ذلك كان هذا الخطاب واحداً من أقوى خطابه وأكثرها تأثيراً في النفوس.

وقد قام عبدالناصر بتكرار اسم دياليسبس عدة مرات حتى لا يغفل محمود يونس عن الإشارة المتفق حولها.

أعد محمود يونس أربع مجموعات لتنفيذ العملية. بقيت المجموعة الأولى بالقاهرة، بينما توجهت الثانية إلى بورسعيد أما المجموعة الثالثة فاتخذت طريقها إلى السويس فيما رحل بنفسه على رأس المجموعة الرابعة إلى الإسماعيلية. كان محمود يونس يجلس في

سيارته حين كان عبدالناصر يلقي خطابه. وما أن سمع اسم ديليسبس حتى انطلق قاصداً مدير شركة قناة السويس.

كانت "شركة قناة السويس العالمية للملاحة البحرية" ومنذ تأسيسها دولة داخل الدولة. فقد كان لها علمها الخاص وكذلك التعلق بأمل تحسين شروط العقد الجديد حين تنتهي فترة الامتياز في عام ١٩٦٨. أما اليوم فقد أصبحوا سادة القناة.

كان قرار عبدالناصر حول تأميم القناة ولهجته التي أعلن بها عن ذلك مفاجأة لـ ايدن. كان ايدن يقيم مساء ٢٦ يوليو حفل استقبال تكريماً لفیصل ملك العراق الموجود في زيارة لانجلترا آنذاك. وقد حضر الحفل نوري السعيد وكذلك مشاهير الساسة الإنجليز. وفيما بعد تحدث نوري السعيد عما جرى بذلك الحفل.

قبيل تأميم القناة ببضع ساعات جلس يعرب عن شكره لـ ايدن لقاء تلك المهارة التي ينفذ بها مهمتهم العصبية، المحافظون أعضاء ما يسمى بـ "لجنة عام ١٩٢٢" والذين يتخذون أماكنهم عادة في الصفوف الخلفية للبرلمان، يوجهون انتقاداتهم في كثير من الأحيان إلى الحكومة العمالية.

بروح معنوية عالية بدأ ايدن في مناقشة موضوع الإجراءات التي سوف يتخذها عبدالناصر بعد رفض انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية لتمويل بناء السد العالي. وقد كان يتصور أن عبدالناصر بات حبيس مأزق يصعب الخروج منه.

كان الملك فيصل يصغى في اهتمام إلى جدل الساسة الإنجليز حول الزعيم المصري وكان ايدن الذي أطلق العنان لنفسه على يقين تام

من أن عبدالناصر قد قُضِيَ عليه. وصار الحاضرون يبحثون عن خليفة مناسبة له.

كان الحفل يقترب من نهايته حين دخل أحد سكرتيري ايدن يسلمه رسالة صغيرة. كان وجهه يتضرج حمرة مع كل كلمة يتلوها من كلمات الرسالة. وما أن أعلن الحاضرين بقرار عبدالناصر حتى فقد السيطرة على نفسه تماماً. وصار يصرخ ملوحاً بالرسالة:

_ بأي حق فعل ذلك؟

وتساءل متلفتاً إلى نوري السعيد:

_ ماذا ينبغي على عمله من وجهة نظركم؟

وصاح "المستشار" العراقي بلهجة تتسم بالحرارة:

_ ليس أمامكم سوى طريق واحد. ينبغي توجيه الضربة وبأسرع ما يمكن.

رمقه ايدن بنظرة تحمل معنى الشكر. فكم هو جيد أن يفهمه حلفاؤه. لقد كان صباح اليوم فقط يتحدث في اجتماع مجلس الوزراء حول ضرورة العمل في حسم ضد عبدالناصر. لم يكن ثمة وجه للعجلة في الحقيقة. سوف يطردون المرشدين الأجانب من مصر. أما العرب فلن يكونوا قادرين على ضمان انتظام عمل القناة. هذا ما كان ايدن على يقين تام منه. ويعنى ذلك الأمر أن ما كان يعول عليه عبدالناصر غير سليم. إنها لحظة مناسبة للغاية، مواتية للتدخل. غير أن ايدن سرعان ما انتابته الدهشة حين علم أن عبدالناصر قد عرض على كافة المرشدين الأجانب الاستمرار في عملهم. لم يرتكب عبدالناصر أية مخالفات تتناقض مع مبادئ القانون الدولي. فقد كانت القناة تمر بأرض مصرية. ويذكر العرف

الدولي حالات مماثلة قامت فيها بعض البلدان بتأميم الملكيات الخاصة الموجودة بأراضيها.

لقد كانت معاهدة القسطنطينية الموقعة عام ١٨٨٨ هي الوثيقة الوحيدة التي يمكن أن تستغلها البلدان الرأسمالية ضد مصر؛ إذ أن القناة وطبقاً لهذه المعاهدة كان من المفروض أن تظل حرة مفتوحة أمام السفن التجارية والحربية لكافة الدول في أوقات السلم وفي أوقات الحرب أيضاً. غير أن شركة قناة السويس لم تتحمل أبداً مسؤولية حرية الملاحة إذ كانت الحكومة المصرية هي التي تأخذ على عاتقها هذه المسؤولية. بيد أن الإنجليز والفرنسيين أصحاب الخبرات القانونية الكبيرة أعلنوا أن الإدارة المصرية غير الخبيرة لن تستطيع تحمل عبء تشغيل القناة.

عقد ايدن على الفور عدداً من الاجتماعات. نصحه نوري السعيد شأنه في السابق باتخاذ إجراءات حاسمة حيث قال:

__ لو بقي دون عقاب فسوف يهلكنا جميعاً.

(وقد تحققت نبوءة نوري السعيد.. إذ شبت الثورة في العراق بعد عامين).

قرر ايدن الإقدام على العدوان. ولم يعد الجانب القانوني يهيمه أكثر من ذلك.

وجه العسكريون أنظار ايدن إلى أن المصريين يملكون اليوم أحدث الأسلحة السوفيتية. كما اتضح أن انجلترا ستصاب بعجز في احتياجاتها للنفط إذا ما توقفت حركة الملاحة في القناة، نظراً لأن احتياطاتها ستنفد بعد ثلاثة أسابيع. توجهت مصر في ذلك الوقت تطلب العون من الدول الصديقة ووافق المرشدون المتطوعون من الدول الاشتراكية على السفر إلى القناة ليحلوا محل المرشدين

الأجانب الذين رفضوا التعاون مع الإدارة المصرية. وقد روعيت تماماً كل الشروط التي نصت عليها معاهدة القسطنطينية حول ملاحه السفن في قناة السويس.

بدأت مواقع ايدن تتزعزع مع كل يوم جديد. كما غدت أعصابه عاجزة عن التحمل. وقد أشارت المخابرات الأمريكية إلى أن النحول أصاب ايدن منذ تأميم القناة وبدأت أمارات عدم الاتزان تبدو عليه. غير أن ثمة من كان يؤيد مخططات ايدن. فقد وصل لندن شيمون بيريز أحد المقربين إلى بن جوريون في اليوم التالي لإعلان قرار التأميم وحين كان رئيس مجلس الوزراء البريطاني يبلغ ايزنهاور رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بأن انجلترا تعترم اللجوء إلى القوة. غادر بيريز لندن قاصداً باريس. وقد قام عميله نحمياس بإعداد عدد من اللقاءات الهامة له في العاصمة الفرنسية. شرح مبعوث بن جوريون لوزير الدفاع الفرنسي موقف إسرائيل التي تعرض خدماتها لشن العدوان. تقبلت باريس ولندن هذا العرض بابتهاج. وبدأت المباحثات بهذا الصدد. توقعت إسرائيل استيلاءها على قناة السويس. واعتزمت انجلترا وفرنسا تجريد حملة. أصدر بن جوريون أمره برفع درجة استعداد القوات الإسرائيلية. أوكلت قيادة العملية إلى موسى ديان الذي تحتم عليه السفر كثيراً إلى باريس إبان تلك الأيام. أعرب الفرنسيون عن سخطهم إزاء تقاعس حلفاءهم الإنجليز. لقد كانت النهاية المخزية لاحتلالهم لمصر تجعلهم أكثر حرصاً على الإقدام على مغامرة جديدة. أما ديان فصار يحث الإنجليز والفرنسيين فيما يدس إليهم في ذات الوقت القوائم الجديدة من الأسلحة التي تود إسرائيل الحصول عليها من حلفائها الأوروبيين. ولم يبخل هؤلاء بالدعم على اعتبار أنه كلما زادت شحناتهم من الأسلحة إلى إسرائيل كلما

أسرع ببدء الغزو ديان النشيط الذي استطاع أن يلفت أنظارهم بقدراته.

قامت انجلترا وفرنسا في نفس الوقت بتشديد حصارهما الاقتصادي حول مصر. وأصدرتا التعليمات إلى سفنهما بالبحر الأبيض المتوسط بالتوجه إلى موانئ مالطة وقبرص. وصل دالاس آنذاك إلى لندن حيث التقى بـ ايدن. أسفرت المباحثات فيما بينهما عن الاعتراف بضرورة عقد مؤتمر في لندن يحضره ممثلو البلدان المعنية بالملاحه في قناة السويس. بدأ المؤتمر أعماله في ١٦ أغسطس. لم يحضر ممثلو قبرص واليونان الجلسة الأولى للمؤتمر. كما لم يحضر ممثل مصر.

كان جمال عبدالناصر يود في البداية ترؤس الوفد المصري إلا أن رئيس الوزراء البريطاني أدلى بخطاب يهين فيه الرئيس المصري على شاشة التليفزيون، حيث أعلن وهو يلوح بورقة في يده: "إن عبدالناصر عدو وها هي قائمة أعماله السوداء".

وقد غدا ذلك سبباً لرفض مصر حضور المؤتمر حيث أنها بعدم إرسالها من يمثلها تكون في حل من الالتزام بالقرارات التي يمكن أن يسفر عنها هذا المؤتمر. كانت أعمال المؤتمر تتسم بالعداء لمصر. غير أن هذا لا يعنى أن صوتاً لم يرتفع دفاعاً عن مصر. لقد أعلن مندوبو الاتحاد السوفيتي والهند وإندونيسيا وسيلان عن تأييدهم الحاسم لنضال الشعب المصري ورفضوا توقيع القرار الذي يدعو إلى تشكيل لجنة دولية لإدارة القناة.

توجه إلى مصر وفد عن المؤتمر بغية توضيح قراراته. طالب ايدن أن يت رأس الوفد غالبية المشتركين أيدت ترشيح مينزيس رئيس وزراء أستراليا. وقد ضم الوفد كذلك ممثلين عن إيران وإثيوبيا والولايات المتحدة الأمريكية والسويد.

وفي ٦ سبتمبر التقى أعضاء الوفد للمرة الثالثة بـعبدالناصر. وقد قام مينزيس في هذه المرة ببذل قصارى جهده حتى يقنع عبدالناصر بالموافقة على الإدارة الدولية للقناة. غير أن عبدالناصر رفض الاقتراح نظراً لأنه كان يعتقد أن مصر سوف تفقد بذلك ثانيةً سيطرتها على القناة.

لبث مينزيس يؤكد لعبدالناصر أن الإدارة الدولية سوف تكون قادرة على حل أية قضايا تواجهها.

أجابه عبدالناصر:

_ إنك تظن أن ذلك سوف يضع حداً لكافة المتاعب بينما أرى عكس ذلك.

احتد مينزيس غضباً:

_ كلا يا سيادة الرئيس إن عدم رغبتكم في إشراف الإدارة الدولية على عمل القناة هو الذى سوف يؤدي إلى المتاعب.

أغلق عبدالناصر في حدة الملف الموضوع أمامه والذي كان يضم الوثائق المعدة للمباحثات معلناً:

_ يبدو أنكم تهددونني؛ حسناً لقد انتهت المباحثات.

تدخل وزير خارجية إثيوبيا قائلاً لعبدالناصر أن مينزيس لا يقصد ذلك وأنه لا يفكر في تهديد أحد. كما ذكر المندوب السويدي نفس الشيء.

دمدم مينزيس في ارتباك:

_ معذرة، إنني لم أكن أقصد ذلك...

غير أن عبدالناصر كان يدرك ما يفعله.

_ ما دتم تقولون أن رفضي لتنفيذ قرارات المؤتمر هو سبب المتاعب فإن ذلك هو التهديد الحقيقي. إني لا أوافق على الاستمرار في المباحثات تحت الضغط.

وفي الخامس من أكتوبر جرى عرض قضية قناة السويس على مجلس الأمن لدى هيئة الأمم المتحدة الذي استغرق تسعة أيام في بحثها. أكدت هيئة الأمم المتحدة حرية الملاحة في قناة السويس وأعربت عن احترامها لسيادة مصر ودعت إلى عدم الانصياع "للسياسة بعض البلدان". كما ينبغي أن تسدد الرسوم على أساس اتفاق مصر مع البلدان المستفيدة من القناة وإنفاق جزء منها على تجديد القناة. استجاب عبدالناصر لقرارات مجلس الأمن نظراً لأنه كان يعتبرها عقبة في طريق التهديد العسكري. وقد اقترحت هيئة الأمم المتحدة لتنفيذ هذه القرارات إجراء لقاء بين وزراء خارجية إنجلترا وفرنسا ومصر. تقرر عقد اللقاء يوم ٢٩ أكتوبر في جنيف. غير أنه لم ينعقد. فقد تواردت إلى مصر الأنباء من قبرص ومالطة

حول حشود للقوات الإنجليزية هناك. كما تحدث قباطنة السفن العابرة في قناة السويس عن ظهور سفن حربية إنجليزية. أصدر عبدالناصر أوامره بمركزة القوات المسلحة المنقولة من سيناء في دلتا النيل وعلى طول القناة.

وفي نهاية أكتوبر وصل بن جوريون وديان إلى باريس حيث أجريا آخر مباحثاتهما السرية مع جي موليه والجنرالات الفرنسيين. وقد انضم سلوين لويد إلى المتباحثين في اليوم التالي.

كان الإنجليز وكذلك الفرنسيون مقتنعين بأن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تبارك العدوان. لكنهم لم يكونوا يعلمون أي موقف سوف يتخذه الاتحاد السوفيتي. وقد أعلن بن جوريون "ليس هناك ما يدعو للقلق بهذا الشأن". فقد كان يتصور أن الثورة المضادة في

المجر لن تتيح للاتحاد السوفيتي التدخل جدياً في أحداث الشرق الأوسط.

قامت القوات الإسرائيلية بعد عودة ديان وبن جوريون من باريس بيومين، بعبور الحدود المصرية والتقدم على وجه السرعة إلى شرم الشيخ.

وفي نفس ذلك اليوم احتفلت أسرة عبدالناصر بعيد ميلاد واحد من الأبناء. وقد حضر الحفل ضيوف الصغير عبدالحميد، وفجأة جاءوا إلى عبدالناصر الذي كان يصغى في اهتمام إلى أحاديث الصغار بنص الأمر الصادر إلى وحدات المدرعات الإسرائيلية في سيناء والذي التقطه فنيو اللاسلكي المصريون.

كان الجزء الأعظم من القوات المصرية موجوداً على القناة. فقد كان عبدالناصر يرى ضرورة تمركزها عند المواقع الحيوية للبلاد. غير أن طائرة إسرائيلية جرى إسقاطها فوق الأردن حيث وجدوا بحقيبة قائدها الذي لقي حتفه وثائق سرية لرئاسة الأركان الإسرائيلية. لقد كان الإسرائيليون يعتزمون الاستيلاء على سيناء وقناة السويس. تحركت ليلاً بعض القوات المصرية للتصدي للعدو. وفي صباح ٣٠ أكتوبر اشتبكت الوحدات المصرية مع العدو. واحتدمت أشد المعارك بالقرب من قرية أبي عجيلة. وعند مفترق طرق تلك المنطقة واجهت كتيبتنا مشاة مصريتان لواء المدرعات الإسرائيلي. حاولت القوات الإسرائيلية وعلى مدى بضعة أيام الاستيلاء على القرية.

فقد الإسرائيليون حوالي أربعين دبابة وثمانين طائرات في المعارك التي أثبتت تفوق العتاد الحربى لدى المصريين. كما أبدى المصريون أشد ضروب الشجاعة.

وفي الساحة الدولية تطورت الأحداث على نحو لا يقل ضراوة. استدعي سفيراً مصر في لندن وباريس إلى وزارتي الخارجية في اليوم الثاني لبدء العدوان الإسرائيلي. وهناك استمع كلاهما إلى إنذار الحكومة التي يمثل بلاده لديها. ومطالبتها بوقف العمليات العسكرية وانسحاب القوات المصرية والإسرائيلية إلى مسافة عشرة أميال من شاطئ القناة. كما عرض على مصر أن توافق طواعية على "الاحتلال المؤقت" لبعض المواقع الهامة في منطقة بورسعيد والإسماعيلية والسويس من قبل القوات الإنجليزية والفرنسية. وأكد الإنذار أنه إذا ما رفض أحد الجانبين أو كلاهما قبول هذا الشرط فسوف تبدأ القوات البريطانية والفرنسية في تنفيذ المهام المكلفة بها.

ورفضت الحكومة المصرية الإنذار. أما إسرائيل فكما كان متفقاً من قبل وافقت على الانصياع لطلب فرنسا وانجلترا. هذا بينما كانت القوات الإسرائيلية ما تزال موجودة على مسافة أربعين ميلاً بعيداً عن القناة مما يعنى أن الإنذار الأنجلو فرنسي يحفزهما في حقيقة الأمر على الهجوم، متيحاً لها فرصة مواصلة التقدم. وفي الساعة التاسعة من مساء نفس اليوم استدعى جمال عبدالناصر السفير الإنجليزي تريفلين حيث ذكر له:

__ لقد تسلمنا اليوم إنذاركم.

أدرك السفير الحرج ليدمدم محاولاً تخفيف حدة الموقف:

__ إنه ليس بإنذار.

__ إننا نعتبر هذه الوثيقة إنذاراً.

أكد ذلك عبدالناصر وسلمه رد الحكومة المصرية كتابياً معلناً له أن
انجلترا وفرنسا تعترضان شن عدوان ضد مصر. عاد السفير
ليحاول تأكيد فكرته:

_ إن النص الموجود لدىّ يعنى أن التدخل يستهدف وقف الأعمال
العسكرية والدفاع عن القناة.

قاطعهُ عبدالناصر:

_ إننا قادرون بأنفسنا على حماية القناة وسوف نكون مضطرين
اعتباراً من الغد إلى حمايتها وليس من الإسرائيليين وحسب.

لم يكن أمام السير تريفليان سوى أن يطلب من عبدالناصر تدبير
حماية الرعايا الإنجليز وممتلكاتهم.

وفي اليوم التالي بدأت الطائرات الفرنسية والإنجليزية في قصف
القواعد العسكرية المصرية.

شنت الصحافة الغربية حملة ضد عبدالناصر. فثمة من راح يشبهه
بهتلر وموسوليني وينعته بـ "الشوفيني" و "المُعادي للسامية".
وصارت محطة الإذاعة البريطانية التي تبث برامجها من قبرص
تؤلب المصريين للإطاحة بعبدالناصر.

خرج عبدالناصر يستطلع ما يدور بالعاصمة حين طرق سمعه
هدير الطائرات النفاثة وانفجارات القنابل. احتشد أهل القاهرة لتحية
زعيمهم على نحو أدرك معه أنه يستطيع الاعتماد على الشعب.

أصاب القصف الجوي محطة إذاعة الإرسال الإذاعي ولذا فقد
توجه عبدالناصر إلى الأزهر حيث ألقى خطاباً في الجماهير التي
احتشدت بالألوف في الميدان. كان ما يزال يدوى في أذنيه طنين
هتافات الجماهير المتحمسة، التواقة للقتال حين علم عند عودته إلى

مكتبه أن وفداً من قدامى السياسة ورجال الأعمال يسعى إليه لإقناعه بضرورة قبول الشروط الأنجلو فرنسية. ولذا فقد أعلن أن الرصاص سوف يطلق هنا في فناء القصر الجمهوري على كل من يأتي للحديث عن الاستسلام.

جرى توزيع الأسلحة بالمدن على عجل. كان العمال يذهبون إلى ورشهم نهاراً حاملين السلاح، أما مساءً فقد كانوا يخرجون إلى الشوارع في زي الحرس الوطني. كما كان الوطنيون يؤدون بالميادين التدريبات العسكرية تحت إشراف ضباط الجيش.

اتخذ عبدالناصر مقراً له مبنى مجلس قيادة الثورة القديم. لقد تولى عبء المسؤولية الجسيمة نيابة عن المصريين، وصار لا يغمض له جفن أكثر من ساعتين أو ثلاث في اليوم.

وحين كان يخلد إلى السرير الصغير الذى وضعه بمكتبه كان يطلب إيقاظه إذا ما حدث قصف جوى.

وذات مرة وبعد ليلة لم يذق فيها طعم النوم قرر عبدالناصر الذهاب إلى الجبهة. وفي الخامس من نوفمبر غادر القاهرة على الرغم من كل محاولات إثنائه عن السفر بحجة أن طيران العدو يسيطر على الطرق. وفي الطريق بلغه خبر الإنزال الجوى للقوات الأنجلو فرنسية في بورسعيد وبور فؤاد والتي يؤكد تعدادها أن عملية كبيرة قد بدأت مما أرغمه على العودة ثانية.

صدر الأمر إلى القوات المصرية التي كانت تصد الهجوم الإسرائيلي بالانسحاب إلى القناة. ولم تكن هناك سوى حامية أبى عجيلة المحاصرة من كافة الجهات هي التي واصلت المقاومة في عناد وبسالة. غير أن هذه القوات سرعان ما تخلصت من الحصار وعادت إلى القناة. استطاعت القوات الإسرائيلية في نهاية الأمر

الاستيلاء على شرم الشيخ. فقدت مصر موقعاً استراتيجياً هاماً لكنها حافظت على جيشها. كانت إمكانيات مصر محدودة وكان طيران العدو هو صاحب السيادة في الجو نظراً لقلة عدد الطيارين المصريين الأكفاء. ومع ذلك فقد أبدى الطيارون المصريون ضروب البسالة. ولنا هنا أن نشير إلى المعركة الجوية التي احتدمت حين كانت ثلاث طائرات مصرية في طريقها إلى مطار كبريت بعد انتهائها من مهمة قتالية لتفاجأ بالمقاتلات الإسرائيلية وفرار الباقيات.

وثمة وقائع كثيرة تؤكد صمود المصريين. فقد توجهت إحدى المدمرات المصرية إلى ميناء حيفا وأغرقت ثلاثة زوارق طوربيد بعد أن أسكتت نيرانها مدفعية السواحل الإسرائيلية. وحين اتخذت المدمرة طريقها إلى الشمال صادفت مدمرتين إسرائيليتين تدعمتا بعد ذلك بعدد من السفن الحربية والطيران. غير أن المدمرة المصرية قاتلت بضراوة. اشتعلت النيران في إحدى المدمرتين الإسرائيليتين إلا أن قذيفة أصابت المدمرة المصرية في مقتل. ومع ذلك فقد واصلت القتال حتى النهاية والنيران مضطربة بها..

قام الطيران الأنجلو فرنسي بقصف بورسعيد بوحشية قبل إنزال قوات المظلات. أسفر القصف عن تدمير الكثير من المباني السكنية. قررت السلطات المحلية، نظراً لاحتمال احتلال المدينة، تهجير النساء والأطفال إلى دمياط والمطرية.

وفي السادس من نوفمبر أي في اليوم التالي للإنزال الجوي قام طيران العدو بعدد من الغارات على المدينة. دخلت السفن الإنجليزية والفرنسية إلى ميناء بورسعيد بعد أن قصفت مدفعيتها الأحياء السكنية.

بلغ عبدالناصر أن حملات الاضطهاد تسود المدينة. جرى تحويل الاستاد الرياضي إلى معسكر اعتقال يُزج فيه بكل من يُقبض عليه بالشارع دون سبب أو محاكمة. كان الجنود الإنجليز ينهبون ليلاً مساكن الأمنيين. لم يكن ثمة من يهب لإطفاء الحرائق المشتعلة بالمدينة وسرعان ما انقطعت المياه عن بورسعيد.

أصدر عبدالناصر أوامره إلى القوات المصرية بالانسحاب إلى خارج بورسعيد بدون معركة حين نزلت القوات المظلية الإنجليزية إلى المدينة؛ فلم يكن ثمة مجال لحركة المدرعات بهذه المدينة المحاطة بأخوار المياه وبالبحر والقناة من كل جانب. غير أن وحدات المقاومة الشعبية والحرس الوطني والإدارة المصرية وعلى رأسها المحافظ محمد رياض بقيت في بورسعيد. فقد كان عبدالناصر يفكر في تنظيم عملية مقاومة المحتلين بالمدينة. جرى توفير سبل الاتصال بمحمد رياض وإمداده بكل ما يلزمه. أرسلت الأسلحة إلى فرق المقاومة السرية التي تشكلت في بورسعيد.

بدأ الوطنيون نشاطهم منذ اليوم الأول لاحتلال بورسعيد. ففي اللحظة التي وطئت فيها أقدام الجنود الإنجليز أرض المدينة فتح المصريون الذين كانوا يختبئون في المنتزه نيران أسلحتهم على قوات العدو. كانت الأرض تشتعل نيراناً تحت أقدام المحتلين.

شن عبدالناصر هجوماً دبلوماسياً مكثفاً. وقد حظيت مصر بتأييد الاتحاد السوفيتي وبلدان المنظومة الاشتراكية والبلدان العربية والبلدان النامية في آسيا وأفريقيا. وأشار قرار الأمم المتحدة بتاريخ أول نوفمبر والذي صدر بأغلبية ٦٤ صوتاً إلى أن إسرائيل متهمة بخرق اتفاقية الهدنة. كما اتهم إنجلترا وفرنسا بالعدوان ضد مصر. وطالب مجلس الأمن بوقف إطلاق النار فوراً وبانسحاب القوات

من الأراضي التي احتلتها. وهكذا حقق عبدالناصر نصراً دبلوماسياً آخر. وبعد بضعة أيام استجاب مجلس الأمن لطلب عبدالناصر ووافق على إرسال قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة إلى مصر. غير أن وصول هذه القوات تأخر بعض الشيء. ولذا فقد استغل المحتلون ذلك وقاموا بقصف مدينتي القاهرة الإسكندرية على نحو يتسم بالبربرية. وفي ذلك الوقت العصيب أصدرت الحكومة السوفيتية بياناً يدين تدخل البلدان الإمبريالية. وفي اليوم التالي لصدور ذلك البيان اجتاحت بورسعيد المظاهرات الشعبية الضخمة التي لم يجرؤ المحتلون على التصدي لها. كما قام الوطنيون في سوريا والمملكة العربية السعودية بتفجير أنابيب النفط.

وفي السابع من نوفمبر أصدر الأمم المتحدة قرارها بوقف العدوان. وبدأت قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة تصل إلى مصر إذ أعلنت الهند على سبيل المثال عن عزمها على الخروج من الكومنولث البريطاني احتجاجاً على السياسة الإنجليزية.

وقد كتب الصحفي الإنجليزي روبرت ستيفنس:

"كان الكثيرون ينظرون بجدية بالغة إلى احتمال إرسال متطوعين من بلدان المنظومة الاشتراكية إلى مصر. وقد كان ذلك أحد أسباب التعجيل بوصول قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة إلى هناك بينما ضغط الأمريكيون على إنجلترا وفرنسا وإسرائيل لإرغامها على سحب قواتها". واضطر المتدخلون إلى الانسحاب ودخلت القوات المصرية بورسعيد ثانية.

وهكذا حقق الشعب المصري الانتصار وغادر الإنجليز والفرنسيون بورسعيد بينما انسحبت القوات الإسرائيلية إلى خط الهدنة. وبذا يكون المصريون قد فرضوا سيطرتهم الكاملة على

القناة، إلى جانب مصادرتهم لمحتويات مخازن شركة قناة السويس.
كما جرى فرض الحراسة على ممتلكات الفرنسيين والإنجليز.
... وسقط آخر معقل من معاقل الإمبريالية بالبلاد.

شهد أبو الهول الكثير من الأحداث الجسام التي عاشتها البلاد. ومع ذلك نشك في أن يكون التمثل قد شاهد روائع تفوق تلك التي شاهدها المواطن العادي الذي عاش ثورة ١٩٥٢ المقرونة بها أحلام الشعب المصري منذ قديم الأزل لقد سجل الثوار صفحات مجيدة في تاريخ مصر.

انتشرت أبراج كهرباء الضغط العالي لتحمل الطاقة من أسوان إلى وادى النيل حيث وبعد وقت وجيز تدخل الكهرباء إلى كافة ربوع البلاد.

وبدأت مداخن المصانع ومباني الفبارك تبدو متسقة مع ما يجاورها وصارت الصحارى تتراجع أمام زحف الأراضي الزراعية والمدن الجديدة تظهر إلى الوجود ويتغير وجه الخرائط الجغرافية. كما شهد المجتمع مثل هذه التغيرات وإن كانت أقل وضوحاً من سابقتها.

وقد كان روح هذه التغيرات عبدالناصر الذى لم يكن مفخرة لمصر وحسب بل ولكل العالم العربي.

كان عبدالناصر يدرك أن الإمبرياليين لن يكفوا عن تهديداتهم لمصر بعد دحر العدوان الثلاثي. كما أنه لم يكن يشك في أنهم سوف يواصلون مناهضتهم لحركات التحرر الوطني والأنظمة الثورية في البلدان العربية. وقد أوكل هؤلاء إلى الصهاينة القيام بالدور الأساسي في هذه العملية. ما كاد آخر جندي من قوات

الاحتلال يرحل عن أرض مصر حتى وصل القاهرة الصحفي الهندي المعروف ورئيس تحرير مجلة "بليتز" كارانجيا. استقبله عبدالناصر في منزله. كان كارانجيا قد زار بغداد منذ مدة وجيزة حيث استطاع الحصول عن طريق ضابط انجليزي على خطة الحرب الوقائية التي وضعتها رئاسة الأركان الإسرائيلية. كان الرئيس يقوم كل يوم بالاطلاع على أكثر الأنباء أهمية، وبتسجيل ملاحظاته في مفكرته أو إصدار تعليماته إلى معاونيه. كما كان يخط تحت المعلومات التي تهمة مما حصل عليه الصحفي الهندي.

لقد اتضح من هذه الوثائق أن إسرائيل استعدت قبل عام ١٩٥٦ بكثير للعدوان ضد مصر والبلدان العربية. كما تضمنت الوثائق تفاصيل خطتي القيادة الإسرائيلية التكتيكية والاستراتيجية. وقد أعلن بن جوريون صراحةً فيما بعد في فبراير ١٩٦٠ "ينبغي علينا التنبؤ بالتجربة الحاسمة لقواتنا العسكرية خلال العقد الثاني من تاريخ قيام دولتنا". كما أعلن في مناسبة أخرى بشكل أكثر تحديداً: إن التجربة العسكرية سوف تتم في النصف الأول من الستينات. هذا بينما تولت البلدان الإمبريالية تصحيح مسار العمليات الإسرائيلية.

أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية عما يسمى بـ "مذهب ايزنهاور" معلنةً أنها لن تدعم مالياً سوى الحكومات التي تعتزم التصدي لـ "الشيوعية العالمية في الشرق الأوسط". أما بالنسبة لمصر فقد كان هدف المذهب الجديد واضحاً. لقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية تخشى أن يزداد نفوذ وهيبة مصر بعد أن حققت النصر على إسرائيل.. واعتبرت واشنطن دعم سيادة مصر خطراً يهددها نظراً لأن الدول المستقلة صارت تميل نحو بلدان الأسرة الاشتراكية. وقد

كان عبدالناصر يتوقع رد الفعل هذا منذ وقع اتفاقية السلاح مع تشيكوسلوفاكيا.

وها هو يزداد يقيناً مع كل يوم من أن مصالح مصر القومية تتطلب التقارب مع الاتحاد السوفيتي.

بدأ عبدالناصر يدرك منذ حرب فلسطين عام ١٩٤٨ أن الإمبرياليين هم المسؤولون عن تشتت الشعوب العربية. وطرح فكرة "الوحدة العربية" فيما بعد بديلاً لنزعة القومية المصرية الضيقة، نظراً لأنه كان يرى ضرورة ألا تقتصر بلدان الشرق الأوسط على بناء حياة جديدة. فقد كان المصريون من وجهة النظر الموضوعية يرتبطون ببقية الشعوب العربية باللغة والتاريخ والتقاليد والثقافة الواحدة.

كانت الوحدة بين مصر وسوريا أول اختبار عملي لفكرة "الوحدة العربية". وقد كتب عبدالناصر فيما قبل في كتابه "فلسفة الثورة" وعن حق أن أمن مصر مرتبط بمدى دعم البلدان العربية الأخرى لها. لقد ساعد الشعب السوري مصر في حربها الأخيرة حين أعلنت سوريا عن استعدادها لإرسال متطوعين إلى هذا البلد الشقيق.

وفي عام ١٩٥٧ ظهرت على صفحات الصحف أنباء تؤكد أن بعض البلدان أعضاء حلف بغداد تعد خطراً للاعتداء على سوريا. وكان قادة سوريا يعتبرون عبدالناصر بطلاً قومياً قادراً على منع خطر التدخل العسكري. كما كان هؤلاء القادة يأملون في كسب النفوذ بالعالم العربي في حالة اتحادهم مع مصر. كانت ثمة اتفاقيات عسكرية وثقافية قائمة بين مصر وسوريا. هذا إلى جانب أن كلتا الدولتين كانتا تنتهجان بالساحة الدولية مبادئ الحياد الإيجابي.

في يناير ١٩٥٨ وصل إلى القاهرة وفد من الشخصيات السياسية تمثل مختلف الأحزاب والجماعات السورية وكان الوفد يضم صلاح البيطار وزير الخارجية السورية الذي طلب الإسراع في إجراءات الوحدة. أعقبت ذلك مباحثات بين المسؤولين في مصر وسوريا على مختلف المستويات. وفي أول فبراير ١٩٥٨ التقى في قصر القبة رئيسا البلدين. وانتهت المباحثات بإعلان قرار قيام الجمهورية العربية المتحدة التي يتمتع جميع مواطنيها بالحقوق المتساوية.

وفي الخامس ن فبراير ١٩٥٨ تحدث الرئيسان عبدالناصر وشكري القوتلي إلى شعبي البلدين حيث أوضحا سياسة الدولة الجديدة وطلبا منهما أن يقولاً رأيهما في الوحدة. كما كان ضرورياً كذلك انتخاب رئيس الجمهورية العربية المتحدة. جرى الاستفتاء في ٢١ فبراير ١٩٥٨ ليعلن رسمياً في اليوم التالي جمال عبدالناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة.

أثار قيام الجمهورية العربية المتحدة الأنظمة الرجعية العربية. وقرر الملك سعود أنه قد حان الوقت للتخلص من جمال عبدالناصر. أبلغه عملاؤه أنهم استطاعوا تلمس الطريق إلى أحد المقربين من عبدالناصر، يستطيع تدبير اغتياله. لقد انفقوا مع عبدالحميد السراج رئيس المخابرات الحربية السورية. وأودعوا مبلغ مليون جنيه لحسابه في بنك ميدلاند. غير أن المتأمرين لم يعرفوا شيئاً واحداً وهو أن السراج أبلغ جمال عبدالناصر بذلك، وتلقى التعليمات بمواصلة اللعبة. أعلن السراج في بداية حديثه مع عملاء سعود أن المبلغ المخصص ضئيل للغاية بالنسبة لعملية كهذه. لم يكن الملك سعود يضمن بالأموال بغية تحقيق أهدافه. ولذا فقد ارتفع رصيد السراج في بنك ميدلاند تسعمائة ألف جنيه أخرى.

وعد السراج بوضع قنبلة في الطائرة التي سوف يستقلها عبدالناصر. غير أنه وفي الوقت المحدد انفجرت "قنبلة" من نوع آخر. فقد جرى بمؤتمر صحفي حضره الصحفيون الأجانب إعلان الوثائق الخاصة بتدبير المؤامرة. وكذلك شيكات البنك.

كان رد فعل السلطات العراقية متبايناً بالنسبة لقيام الجمهورية العربية المتحدة. كان يحكم العراق والأردن أبناء عائلة واحدة هي العائلة الهاشمية. سارع نوري السعيد يعرض على الأردن الوحدة مع العراق في إطار المملكة الهاشمية المتحدة مع الإبقاء على عرشي الملكين فيصل وحسين. غير أنه لم تمر سوى فترة وجيزة حتى استطاع الشعب العراقي الثائر إبادة النظام الملكي المقيت.

سرعان ما أعلنت دولة عربية أخرى عن رغبتها في الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة. ومن الجدير بالإشارة أن هذه الدولة لم تكن جمهورية بل كانت المملكة اليمنية المتوكلية.

كان ملك اليمن آنذاك هو الإمام أحمد الذي كان يعلن نفسه خليفة الله في أرضه. فلقد كان هذا اللقب المنتسب إلى القرون الوسطى يعنى طموح ملوك أسرة حميد الدين نحو تقلد دور الريادة في العالم العربي. لم يكن القرن العشرون وحسب بل والتاسع عشر كذلك قد تجاوزا اليمن في مسيرتهما. ومع ذلك فقد استقبل الشعب اليمنى نبأ وحدة مصر وسوريا بابتهاج بالغ حيث جرت اللقاءات الجماهيرية في الحُدَيْدة وصنعاء وتعز التي أعرب فيها عن سعيه نحو الوحدة.

كان الإمام أحمد لا يختلف نمط سلوكه في شئ عن نمط القرون الوسطى. قام ببحث الأمر دون أن يبارح قصره بهدف الاستفادة بأكبر قدر ممكن من ذلك الموقف الجديد.

كانت ثمة نزاعات قبلية قديمة بينه وبين الملك سعود. فقد حاول الأخير في العشرينات انتزاع العرش من حميد الدين، وإن كان "ولاة العرب" قد استطاعوا في الحقيقة تسوية الأمر سلمياً؛ وأهدى سعود حصاناً إلى الإمام أحمد رمزاً لـ "الصداقة". بينما قام الإمام كيلاً يكون مديناً لجاره بإهدائه حسناء سوداء العينين، هربت فيما بعد من مولاها مع مصفف شعرها الإيطالي. غير أن تبادل الهدايا لم يقضى على عدم الثقة والكراهية بين الملكين.

فها هو الإمام أحمد يقرر في تلك الآونة أن الميعاد قد حان. فقد كان يعتقد أن انضمامه إلى الجمهورية العربية المتحدة سوف يدعمه في صراعه ضد الملك سعود.

وقع عبدالناصر في موقف يتسم بالحرج. فعلى الرغم من أن اليمن كانت دولة ملكية لم يكن رئيس الجمهورية العربية المتحدة في النضال من أجل تحقيق فكرة "الوحدة العربية" يستطيع تجاهل رغبة الشعب اليمني. وقد وجد في نهاية الأمر الشكل المقبول؛ قيام اتحاد فيدرالي بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة. ولم يمض سوى القليل حتى كان سكان الحديدة وتعز يرحبون بعبدالناصر شأن الحال منذ مدة وجيزة في دمشق. غير أن الاتحاد لم يكن فعالاً. حيث لم يتعدّ أطر البيانات المشتركة ذات الطابع السياسي والاقتصادي وإن كان الخبراء الفنيون والعسكريون المصريون قد ذهبوا إلى اليمن واستطاع اليمنيون التعرف عن كثب على الثورة المصرية.

وفي أبريل ١٩٥٨ قام جمال عبدالناصر بأول رحلة له إلى الاتحاد السوفيتي.

كان الطقس ربيعياً مشمساً حين هبطت الطائرة في فنوكوفو. احتشد الآلاف يحملون الزهور في استقبال الرئيس المصري. ومضت بين

المستقبلين الوجوه البرونزية للمصريين العاملين بالسفارة والدارسين بمعاهد موسكو. اصطف سكان موسكو بملابسهم الزاهية يحملون أعلام الاتحاد السوفيتي والجمهورية العربية المتحدة على طول الطريق الذي مر به موكب الرئيس. وكان طريق عبدالناصر يمر غير بعيد عن غابات البتولا والصنوبر والأحياء السكنية الجديدة والقصور القديمة بمنطقة ما وراء نهر موسكو "زامو سكفوريتشيه". عرض المترجم على عبدالناصر حين تجاوز الركب الكوبرى الحجري الكبير "كاميني" النظر إلى اليمين. شاهد عبدالناصر جدران الكرملين الشاهقة الحمراء والكنائس ذات القباب الذهبية التي تعكس أشعة الشمس فتعشى الأبصار.

وها هو أول لقاء عمل مع القادة السوفييت. تمعن عبدالناصر في الوجوه التي كان يعرف أكثرها من الصور. غير أنه لم يكن يعرف بعد كيف سيكون موقفهم منه. كانت البشاشة التي ارتسمت على الوجوه عند استقباله بالمطار توحى بالثقة وتدفع إلى الصراحة. أعرب عبدالناصر بادئ ذي بدء عن شكره للشعب السوفيتي والحكومة لقاء الدم الذي قدم إلى مصر إبان المحنة. وتحدث عن النضال الذي خاضته الجمهورية العربية المتحدة دفاعاً عن استقلالها وعن وجهة نظره إزاء سياسة "الحياد الإيجابي" وعن الوحدة العربية وعن خطط المستقبل. وذكر أنه قد جرت وتجري بالبلاد التحولات الاقتصادية.

حضر عبدالناصر استعراضات أول مايو. شاهد لأول مرة القوات المسلحة للبلد الذي حقق أعظم الانتصارات في الحرب العالمية الثانية. لقد كان هؤلاء الجنود الذين راحوا يدقون أرض الميدان

بكعوبهم في خطوة عسكرية استعراضية هم الذين يزودون عن السلام الضروري لمصر.

كان عبدالناصر راضياً تماماً عن زيارته للاتحاد السوفيتي. وفي ١٦ مايو ١٩٥٨ نشرت "البرافدا" "البيان المشترك عن نتائج المباحثات بين حكومتَي اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية والجمهورية العربية المتحدة بمناسبة زيارة الرئيس جمال عبدالناصر للاتحاد السوفيتي". وجاء في البيان أن كلتا الحكومتين تدينان الاستعمار بكافة صورته وأشكاله وتؤيدان حق الشعوب في الاستقلال وتقرير المصير.

بحثت الحكومتان موضوع حقوق الفلسطينيين العرب وطردهم من أراضيهم.. كما تناول موضوع انتهاك حقوق الإنسان بهذا الصدد والخطر على السلام والأمن في هذه المنطقة. وأكدت الحكومتان تأييدهما الكامل للحقوق المشروعة للفلسطينيين العرب.

أعلنت كلتا الحكومتان أن الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية الموقعة بين الاتحاد السوفيتي والجمهورية العربية المتحدة تتفق وهذه الظروف وتقوم على مبادئ سليمة. كما أعلنتا عن ارتياحهما التام لتطور التعاون الاقتصادي والثقافي بين بلديهما وللتبادل التجاري فيما بينهما. وأعربت حكومة الجمهورية العربية المتحدة بهذا الصدد عن شكرها للقسط الذي يساهم به الاتحاد السوفيتي في برنامج تصنيع الجمهورية العربية المتحدة.

وها هو عبدالناصر يعتزم التوجه إلى يوغوسلافيا تلبيةً لدعوة من الرئيس تيتو.

سرعان ما استقل عبدالناصر يخت "الحرية" الذي كان يؤول ذات يوم إلى الملك السابق فاروق متوجهاً من الإسكندرية إلى جزيرة

بريوني. اصطحب معه قرينته وأولاده لأول مرة في رحلة إلى الخارج. وبالجزيرة على بالأنباء التي هزت كل الشرق الأوسط. في مطلع يوليو ١٩٥٨ تلقى عبدالكريم قاسم أمراً بدخول الأردن. كانت الرجعية تستعد لتوجيه ضربة إلى الوحدة بين مصر وسوريا.

جرى اجتماع عاجل بمقر قيادة عبدالكريم قاسم. دار النقاش حول خطة الثورة التي أعدت منذ زمن بعيد. قرر الضباط الوطنيون أن دورهم قد جاء. أكدت الاتصالات بالساسة من نوى الميول الوطنية أن الشعب سوف يؤيد انتفاضة الضباط.

وفي ليلة الرابع عشر من يوليو قامت قوات عبدالكريم قاسم بمحاصرة قصر الملك. سارع سكان العاصمة العراقية بدعم الثوار. وفي صباح ١٤ يوليو أذاع راديو بغداد نبأ حدوث الثورة في العراق. أما الملك فيصل ونورى السعيد وبقية ممثلي النظام البغيض فقد لقوا حتفهم. وكانت الثورة العراقية انتصاراً جديداً لحركة التحرر الوطني العربية.

ذات اليوم عرف العالم أن الأسطول السادس الأمريكي تلقى أمر التحرك نحو الشواطئ اللبنانية. بينما قام الإنجليز بنقل قواتهم إلى الأردن والكويت. لقد خشى الإمبرياليون أن تطيح موجة حركة التحرر الوطني ببقية الأنظمة الموالية لهم.

صار العالم العربي يغلى فواراً كالبركان. لم يتوقف فنى الإشارة بيخت "الحرية" عن عمله ساعة واحدة. كانت الأنباء تتوارد إلى عبدالناصر أولاً بأول. كان على اتصال لاسلكي دائم بالقاهرة. اضطر رئيس الجمهورية العربية المتحدة إلى قطع زيارته.

نصحه تيتو بعدم العودة على متن "الحرية". كما كانت المخابرات المصرية كذلك تخشى أن يتعرض الأسطول السادس الأمريكي

لليخت في المياه الدولية. هذا وكانت العودة بالطائرة تحمل الخطر بين طياتها. فقد أسقطت الطائرات الإسرائيلية منذ مدة غير بعيدة طائرة مصرية كان من المفروض أن يستقلها المشير عبدالحكيم عامر.

قرر عبدالناصر رغماً عن ذلك العودة على متن اليخت. أصدر من على متن اليخت تعليماته كي يتوجه وفد عسكري إلى بغداد. تلقت الوحدات العسكرية المرابطة بسوريا أمراً بالاستعداد لتقديم الدعم إلى النظام الثوري في العراق.

وبينما كان اليخت بالمياه الدولية وصلت برقية من تيتو يلح فيها موصياً عبدالناصر بالعودة إلى أقرب ميناء يوغوسلافي. أرسلت الحكومة السوفيتية إلى يوغوسلافيا طائرة خاصة كي تكون في خدمة عبدالناصر. كانت الليلة ظلماء واليخت مطفاً الأضواء. حلقت فوق اليخت طائرة استطلاع إسرائيلية، مما جعله يهدئ من سرعته. وعند الصباح استقل عبدالناصر المدمرة المرافقة لليخت، تاركاً أسرته باليخت الذي توجه إلى بريوني. دارت برأسه فكرة جديدة. لقد قرر القيام بزيارة قصيرة إلى موسكو بدلاً من العودة إلى القاهرة. كان يود في ذلك الوقت العصيب بالنسبة لكل البلدان العربية التشاور مع القادة السوفييت. وتوجه عبدالناصر إلى موسكو جواً في الليلة التالية.

في وقت مبكر من صباح ١٧ يوليو هبطت الطائرة بمطار فنوكوفو الذي صار غير غريب على عبدالناصر. كان عبدالناصر قد علم أثناء طريقه بنبأ نزول القوات الأمريكية في لبنان.

بدأت في الساعة العاشرة صباحاً المباحثات مع القادة السوفييت. وسرعان ما غادر عبدالناصر موسكو.

أرسل عبدالناصر أثناء تحليقه فوق بغداد برقية تهنئة إلى قادة الثورة العراقية. وها هو في دمشق يتحدث إلى الشعب من شرفة قصر الرئاسة.

تناول عبدالناصر الوضع الناجم في الشرق الأوسط بوصفه مؤامرة جديدة للبلدان الإمبريالية معلناً أن الاتحاد السوفيتي يقف كليةً إلى جانب نضال الشعوب العربية. أصدرت الحكومة السوفيتية شأنها إبان أزمة السويس بياناً تطالب فيه بوقف العدوان على الفور.

شعر الإمبرياليون بأن مغامرتهم بالشرق الأوسط اتخذت طابعاً يهددهم بالخطر. واضطرت إلى المبادرة بالرحيل القوات الأمريكية والإنجليزية التي كانت قد دخلت البلدان العربية.

كان المصريون منذ قديم الزمن يكرسون أشعارهم وأناشيدهم للنيل ويرفعونه إلى مصاف القديسين نظراً لتوقف حياتهم طيلة آلاف السنين على أهواء هذا النهر العظيم. فقد كان يفصح أحياناً عن غضبه، يفيض على الشواطئ ويدمر القرى والمحاصيل. ولذا فقد ارتبط حلم الحرية بالنسبة للإنسان المصري بتحقيق حلم بناء السد.

عاد تأميم قناة السويس على الجمهورية العربية المتحدة ببعض المال. وتقرر الاستفادة من هذا المال في بناء السد العالي. غير أن ذلك لم يكن بالقدر الكافي. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية حين رفضت تمويل المشروع تعتقد أن الاتحاد السوفيتي ليس قادراً على تقديم العون إلى مصر. وقد أعلن دالاس عن ذلك في جلسة لجنة مجلس الشيوخ في ٢٨ سبتمبر ١٩٥٧. بيد أنه ارتكب خطأ فادحاً؛ ففي ديسمبر ١٩٥٨ وقع الاتحاد السوفيتي اتفاقية حول تقديم الدعم الاقتصادي والتقني لتنفيذ المرحلة الأولى من بناء السد العالي. وتقرر لذلك قبول المشروع الذي أعده الخبراء السوفييت بوصفه

أفضل المشاريع التي شاركت في المسابقة الدولية المكرسة لهذا الغرض.

لم يستقبل ميناء الإسكندرية أبداً مثل هذه الكميات من الشحنات شأن تلك التي وصلت إبان تلك الفترة. كانت السفن تفرغ حمولاتها بالميناء ليل نهار. وغصت الأرصفة بالصناديق التي تفوح منها رائحة الشحم. كانت الأرض تنئن تحت وقع هدير معدات التفريغ والبلدوزرات والحفارات السوفيتية الضخمة. كانت كلمتنا "السد العالي" تتألقان على كل عربة من عربات قطارات السكة الحديدية المتوجهة من الإسكندرية إلى أسوان. كما كان يجرى إرسال المعدات عبر النيل على متن الصنادل والمراكب والأطواف التي أعدت على عجل. وكانت جماهير الفلاحين تخرج إلى شاطئ النهر تودع على دقات الطبول أرتال المراكب والأطواف. أما البدو الذين خرجوا من أعماق الصحراء على ظهور الجمال فكانوا يطلقون نيران بنادقهم تحيةً للقوافل النهرية.

غدت محطة سكة حديد أسوان الصغيرة في جنوب مصر والتي كانت تبدو بالكاد على الخريطة. محط أنظار كبريات وكالات الأنباء والجراند والمجلات العالمية. بل واضطر حتى كبار المسؤولين بالوزارات المصرية إلى حجز أماكنهم بالفندق الوحيد بالمدينة "كترأكت" قبل ٩ يناير ١٩٦٠ بوقت طويل.

وجاء اليوم الموعود. أقيم سرادق ضخم يتسع لعدة آلاف على مسافة عشرة كيلو مترات من المدينة في موقع يشرف جيداً على النيل والصخور المحيطة به. وعلى مقربة من المكان كانت قاعدة حجرية ذات تجويف، وقف الفلاحون إلى جوارها في جلالبيهم الزرقاء يمسكون بثور مقيد. لم يكن السرادق يتسع للجميع. مما

جعل الناس يقتعدون صخور الشاطئ ويحتشدون على طول الطريق المفضي إلى أسوان.

وفجأة؛ وكأنما استجابةً لإشارة عصا سحرية سكن هدير الجماهير الغفيرة. فقد توقف رتل السيارات السوداء التي ظهرت من وراء المنعطف عند مدخل السرادق. كان جمال عبدالناصر أول من بارح عربته. كانت ابتسامة الترحيب ترسم على وجهه في حين صار يلوح بيده تحيةً لمستقبله. كانت الجماهير تزار شأن الجنود لحظة الهجوم وكان رجال الشرطة الذين يشكلون كردوناً حاجزاً يصدون بالكاد اندفاع الجماهير. وصل برفقة عبدالناصر الكثير من الضيوف الأجانب ومن ضمنهم وفد حكومي سوفيتي. قام بدعوتهم لمشاهدة نموذج السد ثم قاموا بعد ذلك بإيداع التجويف الكائن بالقاعدة الحجرية الوثائق الخاصة ببناء السد ونسخة من القرآن و عملات أخرى ذكرى للأجيال فيما بعد. أهيل التراب فوق ذلك التجويف بينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ثور الضحية الذي تم ذبحه وهذه عادة المصريين دائماً قبيل الشروع في أي عمل ذي شأن. دلف جمال عبدالناصر وضيوفه إلى داخل السرادق. ومن على المنصة المزدانة بأعلام الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتي أعرب جمال عبدالناصر عن شكره الحار للاتحاد السوفيتي لقاء دعمه لبناء السد العالي. ثم قام عبدالناصر وضيوفه بوضع أصابعهم في أن واحد على زر جهاز التفجير. اهتزت الصخور السوداء وارتفعت عالية إلى السماء سحابة بنية اللون من الرمال والأحجار. هرع الآلاف يحملون المعاول والجواريف إلى موقع التفجير. وشرعت محركات البولدوزرات والحفارات تعلن عن نفسها. لقد بدأت عملية إخضاع النيل. وفي ١٨ يناير ١٩٦٠ أذاع راديو القاهرة أن الاتحاد السوفيتي سوف يتولى كذلك تنفيذ المرحلة الثانية من بناء السد. وقد أعلن ريتشارد نيكسون بعد

زيارته لأسوان عام ١٩٦٣ أنه اقتنع تماماً بأن السد العالي سوف يكون إحدى معجزات العالم.

كان عبدالناصر يتلقى صباح كل يوم تقارير العمل في بناء السد وكأنها تقارير عن أحوال جبهة عسكرية. كانت الدعاية الإمبريالية تنشر بذور عدم الثقة في الخبراء السوفييت والمعدات السوفيتية. وكانت الصحافة البرجوازية تنشر تقارير "الاقتصاديين" التي تزعم أن بناء السد سوف يلحق الضرر بالاقتصاد المصري. كما بدأ ممثلو البرجوازية المصرية يتقاعدون عن الاستمرار في البناء وحاولوا تقويض التعاون بين العمال المصريين والسوفييت بغية شن حملة معادية للشيوعية. غير أنه كان من الصعب خداع بسطاء المصريين الذين كانوا يشهدون مدى حماس السوفييت العاملين معهم.

بدأت مهنة عامل البناء تحظى في مصر بأكبر قدر من الاحترام. وكان بناء السد العالي يعد البلاد بأجل الفوائد والمزايا. إذ أنه إلى جانب السد الذي سوف يكفل ري المساحات الشاسعة من الأراضي. كان يجرى تشييد المحطة الكهرومائية الضخمة. كما أن الدخل القومي للجمهورية العربية المتحدة سوف يتضاعف كثيراً بعد بناء السد.

كتب المؤرخان السوفيتيان ايجور بيليايف ويفجينى بريماكوف: "إن إيديولوجية عبدالناصر كرجل دولة وسياسي هي إيديولوجية ممثلي الفئات الاجتماعية المتوسطة الذين انطلقاً من المواقف الوطنية المبدئية. صاروا يقتربون تدريجياً من الاشتراكية العلمية. وتطول المرحلة الانتقالية لمثل هؤلاء كثيراً من الزمن. غير أنه من الواضح أن نزعة التطور الفكري لدى عبدالناصر كانت واضحة بما فيه الكفاية. فقد كان أمثاله يتجهون إلى اليسار ويقودون بلدانهم

ومجموعة كبيرة من "بلدان العالم الثالث". وتستحق الدراسة تجربة عبدالناصر والإصلاحات والتحولات الاجتماعية التي شهدتها البلاد. وبطبيعة الحال فإن هذه التجربة تتسم بالإيجابيات والسلبيات. إن عبدالناصر كثوري وسياسي والثورة الوطنية التحررية المصرية يجسدان مختلف جوانب التجربة وبما تتسم به نت تعقيدات وتناقضات".

أدرك عبدالناصر أن النظام السياسي القائم بالبلاد لا يتناسب وحجم التغيرات الجارية. لقد كان ينبغي تعبئة وتوجيه كافة الجماهير الشعبية نحو تقرير المهام الاقتصادية المعقدة. كان عبدالناصر يعلن مراراً أنه يود بناء مجتمع الرفاهية القائم على المساواة وتكافؤ الفرص. كما كان يتحدث عن عزمه على بناء المجتمع الاشتراكي التعاوني. وقد دعم تأميم البنوك الأجنبية وشركات التأمين والمؤسسات التجارية والصناعية القطاع العام الذي راح دوره يتصاعد بشكل مستمر.

بذلت البلدان الإمبريالية المحاولات من أجل خنق مصر عن طريق الحصار الاقتصادي. في الوقت الذي بدأت الأخيرة فيه تتعامل تجارياً مع البلدان الاشتراكية والبلاد الآسيوية والأفريقية. بيد أن هذه السنوات كانت شاهداً على تنامي دور البرجوازية الوطنية الكبيرة. فقد اشترى المصريون جزءاً من سندات الأجانب. حيث حاولت البرجوازية في نهم "ملء الفراغ" الناجم عن القضاء على تسلط رأس المال الأجنبي. وقد جاء "عصرها الذهبي" لحين من الزمن.

أثبتت التجربة أن البرجوازية الكبيرة تسعى من أجل مصالحها الأنانية الضيقة. فقد عزفت عن المشاركة في تصنيع البلاد. كما قام أصحاب المصانع الكبيرة بتهرب أموالهم إلى الخارج في الوقت الذي كرس في البلاد كل جهودها من أجل بناء السد العالي. ولذا

فقد وضعت الحكومة وبمبادرة من عبدالناصر برنامجاً للتنمية الاقتصادية لمدة عشر سنوات تبدأ في عام ١٩٦٠. وقد تطلب تنفيذ هذا البرنامج إلحاق الضربة بالبرجوازية الاشتراكية. وأوكل عبدالناصر إلى أولئك الذين أرسلهم إلى البلدان الاشتراكية دراسة كافة جوانب حياتها الاجتماعية ونظمها الاقتصادية على نحو جيد. فقد تركت رحلته إلى الاتحاد السوفيتي لديه انطباعاً كبيراً بهذا الصدد.

وفي يوليو ١٩٦١ صدرت القرارات التاريخية التي آلت بموجبها إلى الدولة ملكية البنوك الخاصة والمؤسسات الصناعية الكبرى وشركات التأمين. ومنذ ذلك الحين ساد مبدأ عدم جواز ملكية الفرد لأسهم تزيد قيمتها عن عشرة آلاف جنيه. أما الدخل الكبيرة فقد صارت تخضع للضريبة التصاعدية.

تحول أصحاب الأموال إلى شراء الأراضي إلا أن الحكومة وجهت ضربتها الأخرى حين أصدرت قانوناً آخر بشأن تحديد الملكية الزراعية.

وحصل الكادحون على امتياز جديد. فقد جرى إعلان مجانية التعليم في كافة مراحلها بالبلاد. غير أن الإقطاعيين والبرجوازية الكبيرة رفضوا التسليم، وتحولوا إلى أسلوبهم التقليدي أسلوب التخريب. ولئن كان قادة الجمهورية العربية المتحدة يتحدثون فيما سبق عن التعاون الطبقي. فقد أعلن عبدالناصر في تلك الآونة عن بدء الصراع الطبقي الحاد في مصر. وفي نوفمبر ١٩٦١ أعلن عن حل الاتحاد القومي الذي اتخذ موقفاً معادياً من الإصلاحات التقدمية. وابتعد عن عبدالناصر بعض رفاقه المقربين. إذ قدم استقالته عبداللطيف البغدادي نائب رئيس الجمهورية العربية

المتحدة. كان سليل الأغنياء يقف على الدوام إلى جانب البرجوازية المصرية. كما كان يعارض استيراد السلاح من الاتحاد السوفيتي.

كان عبدالناصر يدرك أنه من الممكن حدوث اضطرابات معادية للثورة في أية لحظة سواء في سوريا أو في مصر. فقد نشطت البرجوازية السورية على وجه خاص نضالها ضد الإصلاحات الجديدة. بيد أن عبدالناصر لم ينكص عن هدفه المحدد. فرض الحراسة على ملكية ستمائة ثرى مصري؛ وألقى القبض على حوالى أربعين منهم. وعلى الرغم من إطلاق سراح هؤلاء بعد بضعة أشهر. فقد ظل معزولاً كل من فرضت الحراسة على أمواله حيث كان محظوراً عليه المشاركة في الحياة السياسية للبلاد. عادت الصحافة الأجنبية تهاجم عبدالناصر من جديد. فقد كانت غالبية الأفراد الذين وضعت أموالهم تحت الحراسة أجنبية الانتماء.

واتضح أن ذلك كان كافياً للصق تهمة "معاداة السامية" و"الفاشية" بعبدالناصر. وقَلَّ من تساءل من قراء الصحف اليومية: كيف لقى مُستغلو الشعب المصري مثل هذا التأييد العالمي الواسع؟

وفي تلك الأيام وحين كان يجرى توضيح أهمية الإجراءات الجديدة للجماهير الشعبية بدأت الرجعية السورية في إعداد الانقلاب بالبلاد. وتفاقم الوضع نتيجة تلك الأخطاء التي وقعت عند إعلان الوحدة بين مصر وسوريا. كان عبدالناصر قد طلب أثناء مباحثات الوحدة حل كل الأحزاب السياسية في سوريا مما جعله لا يجد تنظيماً سياسياً واحداً يمكنه الاعتماد عليه في مثل هذه اللحظات. بدأ البعثيون الذين كانوا يؤيدونه في السابق يتحولون إلى المعارضة والعمل السرى.

جرى تطبيق الإصلاحات الاقتصادية في سوريا وفق "النموذج المصري" دون مراعاة للظروف المحلية. شرعت البلاد تعيش جواً

من عدم الرضاء عن الوحدة. وقد ساعد على ذلك إلى حد كبير تصرفات الكثير من الشخصيات الرسمية المصرية التي وصلت للعمل بسوريا، تلك التصرفات التي اتسمت بالحدة وعدم اللياقة.

وفي ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ حدث انقلاب بسوريا. تصور الأعداء أن عبدالناصر سوف يرسا قواته إلى هناك. إلا أنه لم يكن يود محاربة الشعب السوري، واستطاع في تلك اللحظة تمالك أعصابه. كان زعيم الجمهورية العربية المتحدة يجد القرار الواقعي الصحيح حتى في أشد المواقف حرجاً. وبعد بضعة أيام أعلن عبدالناصر أن سوريا تستطيع إن شاءت الانفصال عن الجمهورية العربية المتحدة. إلا أن مصر رغماً عن ذلك سوف تظل تحمل اسم الجمهورية العربية المتحدة محتفظةً بنفس العَلم السابق بوصفه رمزاً لوحدة الشعب العربي.

ظن الكثيرون أن مصر سوف تتخلى عن نهج الإصلاحات التقدمية. إلا أن ذلك لم يحدث.

وفي ٣٠ يونيو ١٩٦٢ جرى إعلان ميثاق العمل الوطني بعد مناقشات طويلة شارك فيها كل ممثلي الفئات الاجتماعية بالبلاد. وقد حدد الميثاق بنية التنمية الاجتماعية والاقتصادية في مصر.

شرح عبدالناصر في تقديمه للميثاق الأسباب التي حالت دون بلوغ ثورة ١٩١٩ للنتائج المرجوة. لقد حدث ذلك بالدرجة الأولى لأن قادتها لم يعوا ضرورة الإصلاحات الاجتماعية بالبلاد. كما أنهم لم يحددوا لأنفسهم استراتيجية واضحة. ولم يقدم الإمبرياليون للبلاد سوى الاستقلال السوري. حصل المصريون بدلاً من الحرية على الدستور الذي استُخدم ستاراً للتغطية على التبعية السابقة. وهكذا تحولت الديموقراطية البرجوازية في مصر إلى "مهزلة مخجلة". فقد كان مستغلو العمال والفلاحين المصريين يستطيعون إملاء

إرادتهم. والديموقراطية أمر يجب أن يستند إلى أفكار اشتراكية؛ مما ينبغي معه أن يحصل كل مواطن بالجمهورية العربية المتحدة على حق التحرر من الاستغلال بكافة صورته والثقة بمستقبله. كما كان من المقرر الزحف على الملكية الخاصة.

وانطلاقاً من الميثاق جرى الإعلان عن قيام الاتحاد الاشتراكي العربي الذي تقف على رأسه اللجنة التنفيذية العليا برئاسة رئيس الجمهورية الذي يشغل في نفس الوقت منصب رئيس الاتحاد الاشتراكي العربي.

كان المبدأ الأساسي للميثاق هو "تكافؤ الفرص". فكل حق العلاج والتعليم والعمل والضمان الاجتماعي. كما جرت مساواة حقوق المرأة والرجل.

لقد كان الميثاق الوطني وثيقة رائعة لحركة التحرر الوطني العربية. إذ غداً أساساً نظرياً لكافة الإصلاحات الاجتماعية الاقتصادية التي جرت بمصر. كما تضمن تأثير أفكار الاشتراكية العلمية. وبدأ وكأنما هو تعميم لخبرات كل البلدان النامية.

امتدت الثورة في هذه المرة إلى أكثر البقاع تخلفاً بالشرق الأوسط ... إلى اليمن. كانت هذه المنطقة في عزلة عن الحضارة والعمران يسودها حتى ذلك الحين نمط العلاقات القبلية والاقتصاديات الطبيعية. لم تكن هناك باليمن سكك حديدية وحتى الطرق المُعبّدة لم تظهر إلا منذ زمن قريب. وكان ثمة مرسوم عال غير معطن يحظر السينما والكتب الأدبية والرقصات الأوروبية ونقل الدم واستعمال القبعات أوروبية الطراز.

ها هو ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ ذلك اليوم الذي شهد الإطاحة بالإمام البدر الذي لم يمض عليه الكثير منذ تولى العرش بعد وفاة أبيه. خرج المتظاهرون إلى شوارع المدن اليمنية يحملون أعلام الجمهورية يدقون الطبول دون انقطاع بينما راح الرجال يرقصون مُلّوحين بالخناجر فوق رؤوسهم. احتشد الوافدون من كافة أرجاء البلاد عند القصر الذي كانت تجتمع فيه الحكومة الجمهورية إعلاناً عن تأييدهم للنظام الجديد.

لاذ الإمام البدر بالفرار وسرعان ما قام بدعم من المملكة العربية السعودية والبلدان الإمبريالية بتشكيل فصائل الملكيين التي انضم إليها بعض القبائل. اندفع هؤلاء يداهمون اليمن مما دعا عبداً الله السلال رئيس الجمهورية إلى طلب العون من مصر. بعد يومين بدأت السفن المصرية المحملة بالجنود تتوافد على ميناء الحديدة.

في مارس ١٩٦٤ صدر بمصر مرسوم يقضى بإلغاء دفع التعويضات عن الأراضي التي صودرت من كبار ملاك الأراضي

وصار محظوراً على الأجانب تملك الأرض في مصر اعتباراً من ذلك التاريخ.

انتشرت بالبلاد الجمعيات التعاونية الزراعية التي تولت إمداد الفلاحين بالبذور والسماذ والمعدات الزراعية ومعاونتهم في تسويق محاصيلهم. جرى تكوين المزارع الحكومية الكبيرة بالأراضي الصحراوية التي تم استصلاحها. ففي عام ١٩٦٣ جرى استصلاح ٢٩٥٠٠ فدان في مديرية التحرير. وتحولت الصحراء إلى حدائق غناء. كما كانت ثمة خطط هائلة توضع للمستقبل.

وفي فبراير ١٩٦٤ جرى إصدار القوانين الجديدة لتنظيم انتخابات مجلس الأمة. كان الكثير من النواب من العمال والفلاحين، كما احتلت المرأة مكانها ببرلمان البلاد لأول مرة. وكان مجلس الأمة مدعواً للقيام بدور الرقابة على السلطة التنفيذية إلى جانب مهامه كسلطة تشريعية. فلقد حصل المجلس على حق محاسبة واستجواب الوزراء وللحقيقة فقد اعترف عبدالناصر بأن على المجلس تجاوز الكثير من الصعاب.

جرى انتخاب عبدالناصر رئيساً للجمهورية لفترة ست سنوات أخرى.

أعلن عبدالناصر أن عصرًا جديدًا قد جاء. جرى توجيه ضربة شديدة إلى طبقة الإقطاعيين والرأسماليين. أدى ذلك إلى التعاون الوثيق بين عبدالناصر ورفاقه وبين الماركسيين. صار الماركسيون المصريون منذ ذلك اليوم يعملون بنشاط أكبر في مؤسسات الدولة. جرى انتخاب بعضهم في الهيئات القيادية للاتحاد الاشتراكي العربي. وبدأت مناقشة قضايا بناء الاشتراكية. كان موعد تحويل مجرى النيل يقترب شيئاً فشيئاً. صارت المعدات تعمل في نشاط فوق قمة ذلك السد الذي بدا أشبه بظهر تمساح نيلي كبير. وشكلت

الشلالات وكتل الجرانيت الأسواني الأسود والأحمر أكاداساً فريدة النمط. تلاً كل ذلك تحت أشعة الشمس الساطعة التي كانت تعشى الأبصار وتجعل خضرة الشاطئين تبدو عقيقية ناصعة.

كانت حكومة الجمهورية العربية المتحدة تستعد للاحتفال بيوم تحويل مجرى النيل وكأنما تستعد للاحتفال بأكبر الأعياد الوطنية. توافدت على أسوان الوفود من مختلف بلدان العالم بما فيها الاتحاد السوفيتي.

بدت هالة أضواء السد العالي في ليلة ١٤ مايو ١٩٦٤ أشبه بشروق الشمس. وها هو الرئيس عبدالناصر في تمام الساعة الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة من ظهر ذلك اليوم يضغط على زر المفجر لتندفع مياه النيل إلى مجراها الجديد.

استمرت عملية تحويل مجرى النيل طيلة اليوم وحتى صباح اليوم التالي وحانت اللحظة التي اندفع فيها بُناة السد يتعانقون تعبيراً عن بهجتهم وعند المساء كان عبدالناصر يعبر بصحبة ضيوفه النيل بعد تلاقى ضفتيه.

ظهرت الأوسمة والميداليات السوفيتية على صدور المصريين من بُناة السد بينما ازدانت صدور الخبراء السوفييت بالأوسمة والنياشين المصرية. أما الرئيس جمال عبدالناصر فقد مُنح لقب بطل الاتحاد السوفيتي بموجب مرسوم هيئة رئاسة السوفييت الأعلى للاتحاد السوفيتي. أقيم بقصر القبة حفل استقبال حضره حوالي خمسة آلاف شخص.

كان النجاح في تحويل مجرى نهر النيل يعنى أن البلاد سوف تحصل بعد بضع سنوات على إمكانية ضخمة من الطاقة. وقد بدأ عبدالناصر منذ ذلك الحين يكثر من الحديث في المؤتمرات الشعبية

حول إنشاء الصناعات الثقيلة. كما صار يتعمق أيضاً في النفوس مفهوم الطريق غير الرأسمالي للتنمية. ولئن كان ثمة من تحدث في الفترة التي أعقبت صدور قوانين التأميم عن الاشتراكية "العربية" بل وحتى "الإسلامية". فقد رأى عبدالناصر ضرورة توضيح هذه المسألة. كان مطروحاً بالساحة في مارس ١٩٦٦ السؤال التالي "أية اشتراكية ننتهجها.. العلمية أم العربية؟". أعلن عبدالناصر صراحةً ودون أن يترك أي مجال للشك أن الميثاق الوطني يقصد الاشتراكية العلمية.

في عام ١٩٦٦ انتهت البلاد من تنفيذ أول خطة خمسية. ازداد الدخل القومي بمقدار الثلث. تحولت الجمهورية العربية المتحدة على مدى تلك السنين من بلد زراعي إلى بلد زراعي صناعي. كان من المتوقع وفق خطة سبوعية جديدة زيادة حجم الاستثمارات في الصناعة المصرية بمقدار مائة مرة. جرى وضع برنامج عريض لإجراءات تحسين الأوضاع المادية للعاملين. حدد قانون العمل حجم ساعات العمل اليومية بسبع ساعات ورفع الحد الأدنى للأجور. كما جرى اعتباراً من عام ١٩٦٤ تطبيق قانون التأمينات الاجتماعية الإجبارية. كانت توابك عملية تأميم المؤسسات الصناعية أعمال الاستفزاز والتخريب. كما كان يحدث نفس الشيء في القرية أيضاً حيث كان الإقطاعيون يناهضون تنفيذ قوانين الإصلاح الزراعي.

دخلت قرية كمشيش الصغيرة بمحافظة المنوفية تاريخ مصر كرمز للنضال ضد الرجعية والإقطاع. وتقع كمشيش على مسافة بضع كيلو مترات من قرية دنشواي التي شهدت قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى انتفاضة الفلاحين ضد المحتلين الإنجليز. دنشواي

ثم كمشيش رمزان يمثلان مراحل نضال الشعب المصري من أجل الاستقلال الوطني ثم من أجل التحرر الاجتماعي.

في ٣٠ أبريل ١٩٦٦ دوى عيار ناري كان له أعلى الصدى في كل أرجاء البلاد. سقط ضحية هذه الجريمة صلاح أحمد حسين أحد قيادات الاتحاد الاشتراكي العربي. كان هذا من تدبير اقطاعي عائلة الفقي الذين كان لهم الأمر والنهى بـ "كمشيش" قبل ذلك. حاولت أجهزة الشرطة المحلية وسلطات القرية التستر على الجريمة.

انطلقت شاهنده مقلد أرملة الشهيد إلى القاهرة تحاول إبلاغ صوتها للمسؤولين. وفي الاتحاد الاشتراكي العربي راحت تتحدث عن النشاط الإرهابي الذي يمارسه الإقطاعيون بغية الحيلولة دون تنفيذ قوانين الإصلاح الزراعي.

علم عبدالناصر بكل ذلك. سافر إلى كمشيش أحد كبار المسؤولين من الاتحاد الاشتراكي العربي. جرى إبعاد ممثلي السلطة المحليين عن التحقيق. أعيد النظر في القضية.

كشفت التحريات عن أن عائلة الفقي قامت أثناء العدوان الثلاثي بتسميم ماشية القرية حتى تؤلب الفلاحين ضد الحكومة. كما قامت نفس العائلة أيام انتخابات المجالس المحلية بتزويرها لصالح رجالها. هذا علاوة على أن أفراد العائلة سجلوا ما يزيد عن الحد الأقصى للملكية الزراعية بأسماء أفراد فارقوا الحياة.

كان يشرف على تنفيذ قوانين الإصلاح الزراعي في كمشيش صلاح حسين ابن القرية والذي يعرفه الفلاحون خير معرفة. أثار نشاط ذلك الشاب بين الفلاحين عقب الثورة مباشرة قلق الإقطاعيين مما دفعهم إلى تدبير الأحابيل ضده وإيداعه السجن. اضطر صلاح

حسين إلى الانقطاع عن الدراسة بجامعة القاهرة حيث كان يتلقى العلم؛ إلا أنه لم يتوقف عن نشاطه رغماً عن ذلك. صار يحذر المسؤولين بالاتحاد الاشتراكي العربي من مغبة عدم تقدير تحركات كبار الملاك. عندئذ قرر الإقطاعيون التخلّص منه. أثبتت التحقيقات أن القاتل حصل على السلاح ومائتي جنيه مكافأة له من أحد أفراد عائلة الفقير.

جرت إعادة النظر في عدد من جرائم القتل الأخرى التي ارتكبت بالريف. اتضح أن عضواً من أعضاء الاتحاد الاشتراكي العربي يدعى أحمد دسوقي قد قُتل على أيدي الإقطاعيين بقريّة محمد سلطان وأن عشرة من الإقطاعيين في محافظة كفر الشيخ استطاعوا التهرب من تسليم خمسة آلاف فدان كانت خاضعة للمصادرة.

طالب عبدالناصر في حسم باجتماعات مخلفات الإقطاع بالقرى وقد كانت جماهير الفلاحين تطالب بذلك مما جعلها تنظم المسيرات التي اجتاحت البلاد بأسرها. غير أن الرجعية لم تستسلم وظلت تواصل المقاومة.

طراً على البلاد كثير من التغييرات إبان تلك السنين إلا أن نمط حياة عبدالناصر هو الذي ظل دون تغيير. فقد ظل يعيش في مسكنه الصغير الذي استأجره منذ كان مدرساً بمدرسة الحربية.

كان عبدالناصر أول من يستيقظ من سكان منزله. كان يصحو عادةً في السادسة صباحاً ليحتسي الشاي ويتناول بعض الجبن الأبيض وطبقاً من الفول شأن بسطاء الناس ثم يتوجه إلى غرفة مكتبه. كان المنزل يعج بالحركة حين يكون قد استغرق في عمله.

كان وقت فراغ عبدالناصر ضيقاً. غير أن الرئيس كان يتبع قاعدة لا يحيد عنها أبداً حين يكون بالقاهرة. تعود كل أفراد الأسرة على تناول طعام الغذاء سوية في تمام الساعة الثالثة ظهراً. وقد كان الأطفال ينتظرون هذه اللحظة بفروغ صبر. كان عبدالناصر أباً فريد النمط فلم يكن يرفع صوته أبداً على أطفاله، لا يتدخل في شؤونهم أو يفرض عليهم ما يتفق وميوله. غير أنه كان يعرف على الدوام قضاياهم واهتماماتهم. كان يستطيع في لباقة ودون تعنت التعبير لهم عن رأيه في هذا الموضوع أو ذاك، وتوجيه طاقاتهم إلى نشاط ذي جدوى. كانت كل كلمة يتفوه بها الأب أو أي سلوك يسلكه قدوة يسعى الأبناء إلى التمثل بها.

كان عبدالناصر نادراً ما يسافر إلى استراحة القناطر الخيرية القريبة من القاهرة.

و هناك كان يستطيع الاستمتاع بالطبيعة والتنزه بالحدائق برفقة أطفاله. كانت لديه هواية واحدة استهوت الأطفال أيضاً. كان يعشق التصوير. ولذا فقد احتوى ألبوم صور الأسرة الكثير من تلك التي كان يلتقطها أثناء رحلاته. كان الرئيس يهوى كذلك الأفلام السينمائية التي تعود على عرضها بنفسه شأن المحترف بمنزله.

كانت أعياد ميلاد الأطفال هي أكثر الأعياد بهجة في الأسرة. كانوا يقيمون حفلات الشاي بهذه المناسبات. وكان عبدالناصر يستقطع على نحو أو آخر ساعة أو ساعتين من وقته كي يقدم هديته إلى المحتفى به ويلعب الأطفال.

لم يكن عبدالناصر يحب الاحتفال بعيد ميلاده كما كان محظوراً على الصحف حظراً باتاً نشر أية مواد حول هذا الموضوع. وحين كان يحدث ويتردد عليه ضيف في ذلك اليوم كانوا يقدمون له الشاي والفطائر التقليدية. كان عبدالناصر يعشق الحلويات. ولم يكن

يقرب أبدأ المشروبات الكحولية لكنه كان يدخن كثيراً ولئن كانت "كنت" الأمريكية سيجارته المفضلة فيما سبق. فقد تحول فيما بعد إلى السجائر المصرية وإلى "كليوباترا" بالذات.

وذات مرة عرضوا على عبدالناصر الانتقال إلى قصر القبة ريثما يفرغون من إصلاح مسكنه. وهناك أصبح لكل فرد من أفراد الأسرة غرفة مستقلة كبيرة. غير أن الحياة في القصر سرعان ما صارت تغدو ثقيلة الوطأة. فقد بدت الأسرة وكأن ثمة ما يباعد بين أفرادها.

كان عبدالناصر غاية في الأمانة ومحاسبة الذات. كانت ترد إليه ملايين الجنيهات من التبرعات التي يطلب أصحابها إنفاقها وفق ما يرى. كان يودعها البنك بالحساب رقم "واحد" ليجري إنفاقها على احتياجات مصر. وحين توفي الرئيس كان يوجد مبلغ مليونين ونصف مليون جنيه بهذا الحساب. أما الحساب الشخصي لعبدالناصر فلم يكن يحتوى سوى على مبلغ ٦١٠ جنيهات.

كان المصريون يعلمون بكل ذلك. فلأول مرة يتولى إنسان شريف "نظيف الذمة" مقاليد الحكم ببلد شهد شتى ضروب الفساد فترة طويلة من الزمن. وقد كان ذلك سر نجاح عبدالناصر كزعيم للدولة. فمهما كانت تكتب الصحافة الأمريكية والإنجليزية عنه ومهما كانت محاولات المسؤولين عن الدعاية الإسرائيلية لتثبيط همته ومهما كانت الأخطاء التي ارتكبها عبدالناصر نفسه ومهما كانت عصبية تلك المواقف التي تعرض لها. فقد ظل ذلك الرجل موضع ثقة وحب الشعب.

لم تصبح القاهرة قبلة لممثلي حركة التحرر الوطني العربية وحسب بل غدت عاصمة لأفريقيا المناضلة. كانت تُعقد بالقاهرة المؤتمرات

الدولية الكبيرة. فقد شهدت العاصمة المصرية على سبيل المثال مؤتمر القمة الأفريقية الثاني في عام ١٩٦٤.

قدمت الجمهورية العربية المتحدة الدعم المادي والعسكري إلى شعب الكونغو في نضاله ضد الإمبرياليين. وكان للدعم الذي قدمته الجمهورية العربية المتحدة أهمية كبرى في انتصار الثورة الجزائرية.

كما قاتل الجنود المصريون دفاعاً عن قضية اليمن ودعمت الجمهورية العربية المتحدة شعوب المغرب والسودان والعراق وسوريا واليمن الجنوبية. فقد كان عبدالناصر يعتقد أن دعم الشعوب الأخرى واجب ثوري على الجمهورية العربية المتحدة. وكانت كل خطاباته تدور حول فكرة تنسيق جهود البلدان المتحررة في النضال ضد الإمبريالية.

كانت ثمة صداقة وطيدة تربط ما بين عبدالناصر وكثير من القادة التقدميين. كان رئيس الجمهورية العربية المتحدة يميل كثيراً إلى أرنستو تشي جيفارا وفيدل كاسترو. وفي عام ١٩٦٢ أثناء انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك والتي حضرها رؤساء كثير من البلدان زار عبدالناصر هارلم حيث كان يسكن كاسترو أحد الفنادق المتواضعة ليعرب عن إعجابه بالثورة الكوبية.

واليوم وبعد انتهاء المرحلة الأولى من بناء السد العالي شهد العالم أجمع مدى سوء تقديرات البلدان الإمبريالية. لكن هل أدركت لندن وواشنطن ذلك؟ لقد قررت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية "أن أفضل طريقة للاحتفاظ بعبدالناصر بعيداً عن الكتلة السوفيتية هي تقديم الدعم له". فلم تُجدِ سياسة التهديدات. وقد ذكر كينيدي بعد تسلمه لمقاليد السلطة أن بلاده على استعداد لدعم العرب. غير أن رد فعل عبدالناصر اتسم بالترقب والحذر. وكما أثبتت الأحداث

فيما بعد. فقد تصرف على نحو يتسم ببعده النظر. لم يمر سوى بعض الوقت حتى بعث كينيدي بخطاب إلى عبدالناصر يطالبه فيه بالتخلي عن شراء السلاح السوفيتي.

ذكر عبدالناصر في خطابه الذي بعث به رداً على كينيدي أن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت طلب مصر بشأن إمدادها بالأسلحة وتمويل بناء السد العالي، بينما قدم الاتحاد السوفيتي العون إلى الشعب المصري. وأكد رئيس الجمهورية العربية المتحدة أنه سوف يواصل شأنه في السابق العلاقات الجيدة مع الاتحاد السوفيتي نظراً لأن ذلك يتفق ورغبات الشعب المصري. غير أن كينيدي لم يتخلَّ حتى بعد ذلك عن محاولاته للضغط على عبدالناصر. وصل إلى الجمهورية العربية المتحدة السفير الأمريكي الجديد بادو الذي عمل قبل ذلك مديراً للجامعة الأمريكية بالقاهرة لمدة عشرة أعوام. علت الابتسامة وجه عبدالناصر فلم يكن قد نسى بعد أحاديثه مع ايدن الذي كان يعتبر نفسه خبيراً في الشؤون العربية.

شرع بادو يمارس على التو نشاطاً ملحوظاً ويتصل برجال الصناعة المصريين والموظفين والكتاب والشخصيات الاجتماعية بالبلاد. بدأ أعضاء الكونجرس الأمريكي يكثرون من زياراتهم لمصر. استغل بادو كل نفوه لمساعدتهم على الالتقاء بعبدالناصر. بذل الساسة الأمريكيون قصارى جهودهم لكسب وده. غير أن هؤلاء ما إن عادوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية حتى راحوا يتحدثون بلهجة معادية لعبدالناصر مطالبين بفرض الحصار الاقتصادي على الجمهورية العربية المتحدة. وصارت حكومة كينيدي تواصل دعم إسرائيل عسكرياً. جرى في نوفمبر ١٩٦٤ إنزال جنود المظلات البلجيكيين في الكونغو. كان هذا العمل

المدعوم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية يستهدف النيل من مصالح الشعب الكونغولي. خرج المتظاهرون إلى شوارع القاهرة يعربون عن احتجاجهم على السياسة الأمريكية. أعلن عبدالناصر بعد بضعة أيام أن الجمهورية العربية المتحدة سوف تدعم نضال شعب الكونغو.

كان عبدالناصر يدرك أن خطراً جديداً يخيم على البلاد. فقد استعدت إسرائيل للحرب على نحو يفضل كثيراً استعداداتها عام ١٩٥٦. قام موسى ديان بزيارة فيتنام كمراسل عسكري لجريدة "معاريف" الإسرائيلية. كان يتابع العمليات العسكرية

التي تقوم بها القوات الأمريكية هناك بل واشترك في معركة دانانج الأمر الذي جعله يرتدى الزي العسكري الأمريكي في هذه المرة. كان قد التقى في واشنطن قبل ذلك بوزير الدفاع الأمريكي مكنمارا وبالجنرال ماسكويل تايلور الذي حظى بكل اهتمامه.

وحين عاد ديان إلى إسرائيل لم يقتصر نشاطه على نشر المقالات حول إقامته في فيتنام. فقد قام بإلقاء بعض المحاضرات التي كانت مقصورة على الجنود والضباط.

في عام ١٩٦٦ وقعت الجمهورية العربية المتحدة اتفاقية الدفاع المشترك مع سوريا والتي ينبغي على قيادتي القوات المسلحة للبلدين بمقتضاها العمل كقيادة موحدة في حالة نشوب حرب.

سرعان ما قررت إسرائيل اختبار رد فعل البلدان العربية على استفزازاتها العسكرية. قامت القوات الإسرائيلية بتدمير ثلاث قرى أردنية بحجة الرد على هجمات الفدائيين الفلسطينيين. لم تكن ثمة التزامات تربط مصر أو سوريا بالأردن لكن هل يعنى ذلك التزام كل منهما الصمت إزاء ما حدث ؟

عمت الأردن موجة من المظاهرات الجماهيرية التي طالب الشعب فيها الملك حسين بتسليمه السلاح. بدأت حملة من الاتهامات المتبادلة. صارت صحافة المملكة العربية السعودية والأردن توجه الانتقادات لعبدالناصر مدعية أنه لا يود المطالبة بجلاء قوات الأمم المتحدة من سيناء مما يمكن أن يتيح فرصة إغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية.

اتسمت تصرفات إسرائيل بالعدوانية الشديدة والوقاحة.

في ٧ أبريل توغلت القاذفات الإسرائيلية في عمق الأجواء السورية لمسافة ٧٠ كيلو متراً. استخدم العدو الدبابات والمدفعية في عملياته الأرضية. وكان ذلك أشبه بتدريبات على الحرب المقبلة.

في ٢٧ أبريل أصدرت وزارة الخارجية السوفيتية بياناً أشارت فيه إلى أن إسرائيل تقوم بلعبة خطيرة. راود القلق آنذاك كلاً من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية. جرى رفع درجة استعداد الأسطول السادس الأمريكي في البحر الأبيض المتوسط وبدأت القوات الجوية الإنجليزية التركز في قبرص.

في مايو ١٩٦٧ احتفلت إسرائيل بالذكرى التاسعة عشرة لقيامها. أقيم عرض عسكري في القطاع الإسرائيلي للقدس على الرغم من أن العالم بأسره كان يعلم أن تل أبيب هي عاصمة إسرائيل. وهكذا أفصحت السلطات الإسرائيلية بشكل سافر عن ادعاءاتها إزاء القدس.

أصدر عبدالناصر في نفس اليوم أمراً إلى القوات المصرية بالتوجه إلى سيناء. في ١٨ مايو طلب عبدالناصر رسمياً من أوثانت الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة سحب القوات الدولية البالغ عددها ثلاثة آلاف من سيناء.

أصدر عبدالناصر أوامره إلى الأسطول المصري بإغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية وكذلك الأجنبية التي تحمل شحنات استراتيجية خاصة بإسرائيل.

تركت إسرائيل سوريا وشأنها. جرى سحب القوات الإسرائيلية لحشدها على الحدود مع الجمهورية العربية المتحدة وفي ٣٠ مايو وصل الملك حسين إلى القاهرة لتوقيع اتفاقية دفاع مشترك مع عبدالناصر. غير أن عبدالناصر كان يحاول في تلك الأثناء أيضاً تفادي وقوع الصدام المسلح نظراً لأنه كان يعتقد أن العرب ليسوا مستعدين بعد للحرب مع إسرائيل.

لكن الصهاينة وللحقيقة اتهموا عبدالناصر كذباً بأنه أعلن عزمه حول القضاء على إسرائيل؛ هذا بينما كان قد ذكر في واقع الأمر وفي خطاب ألقاه يوم ٢٥ مايو بمؤتمر اتحاد النقابات العربية أنه إذا نشبت الحرب فإنها يمكن أن تسفر عن هلاك إسرائيل. وقد سأل كريستوف ميهيو نائب البرلمان الإنجليزي عبدالناصر عن معنى ذلك ليحييه الرئيس المصري أنه كان يقصد المعنى العسكري لكلمة "هلاك" وليس المعنى السياسي نظراً لأن الحديث كان يدور حول القوات المسلحة الإسرائيلية وليس حول الشعب.

وقد أعلن عبدالناصر أوثانت أثناء زيارته للقاهرة أن الجمهورية العربية المتحدة لا تود أن تكون البادئة بالحرب بأي حال من الأحوال.

توجه شازار رئيس إسرائيل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عند بدء الجلسة الطارئة لمجلس الأمن. قام بإجراء مباحثات مع جونسون ومع رئيس مجلس وزراء إنجلترا هارولد ويلسون الذي كان قد وصل أيضاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا ضمنت إسرائيل تأييد كل من لندن وواشنطن. جرى في ذلك الوقت تشكيل

"حكومة حرب" بإسرائيل. أصدر موسى ديان الذى تولى منصب وزير الدفاع أمر إعلان التعبئة العامة.

بدأ يوم ٥ يونيو عادياً شأن غيره من الأيام بالنسبة للجنود المصريين الذين وصلوا إلى سيناء وأسعفهم الوقت بالكاد لاحتلال مواقعهم القتالية.

كان معسكر العدو يعج بالحركة والتليفونات ترن دوان انقطاع بينما تنهب الطرق هنا وهناك عربات "الجيب" التي يستقلها ضباط الإشارة. وفي حوالي الثامنة صباحاً ارتفعت كل الطائرات الإسرائيلية إلى السماء وتحطمت الطائرات المصرية على أرض مطاراتها.

بدأ الهجوم الأرضي بعد ذلك. شنت القوات الإسرائيلية هجماتها في أربعة اتجاهات؛ غزة وأبى عجيلة والقنطرة وشرم الشيخ. كان الجيش الإسرائيلي جيشاً منظماً جيد التدريب ولم تكن مصر على استعداد للحرب. فقد كان الشعب المصري مشغولاً بالعمل السلمى الخلاق. وكان لوجود الجزء الأعظم من الجيش المصري في اليمن بعيداً عن الوطن أثره البالغ على تطور الأحداث.

سارع عبدالناصر يحاول الاتصال تليفونياً بمجرد علمه بأن الطائرات الإسرائيلية تقصف مطار غرب القاهرة. غير أنه لم يستطع الاتصال لا بعبدالحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة ولا بصدقي محمود قائد القوات الجوية. فقد كان المشير عامر ومجموعة من كبار القادة العسكريين في طريقهم آنذاك إلى شبه جزيرة سيناء. غير أن مطار العريش الذي تم قصفه لم يكن صالحاً لاستقبال طائراتهم. اتضحت استحالة العودة إلى مطار غرب

القاهرة كذلك. هذا إلى جانب أن أمراً كان قد صدر إلى المدفعية المضادة للطائرات بعدم إطلاق النار طالما طائرة القائد العام للقوات المسلحة موجودة بالجو. استطاعت الطائرات الإسرائيلية خلال تلك الفترة التسبب في الكثير من الكوارث.

وأخيراً هبطت الطائرة بأحد المطارات المدنية ليسارع المشير عامر بالاتصال تليفونياً بعبدالناصر وعلى الرغم من أن نتيجة الحرب كانت قد تحددت في اللحظات التي كانت طائرة المشير موجودة خلالها بالجو. فقد أكد عبدالحكيم عامر أن "الهجوم يسير على ما يرام". وكرر شمس بدران وزير الحربية نفس تلك الأقوال. حاول الضباط المصريون عند بدء هجوم القوات الإسرائيلية معرفة حقيقة الأوضاع دون جدوى. لقد اندفعت الدبابات الإسرائيلية كما الإعصار تدهام المواقع المصرية متسرلةً بغللات الغبار الرملي بينما راحت الطائرات تحلق الموجة تلو الأخرى ملقياً بقنابل النابالم الحارقة. بدأت القوات المصرية في الانسحاب عبر صحارى سيناء نحو قناة السويس بعد أن تكبدت الخسائر الفادحة.

وفي صباح السادس من يونيو ذاع بالقاهرة نبأ الهزيمة، جرى إبلاغ عبدالناصر بتدهور الوضع بالجبهة الأردنية. فقد استولى العدو على القدس الشرقية وفي نفس اليوم طالب مجلس الأمن بوقف العمليات العسكرية. بيد أن عبدالناصر كان يؤمل رغباً عن ذلك في أن يستطيع الجيش المصري التمسك بالضفة الشرقية لقناة السويس على أقل تقدير إلا أن عبدالحكيم عامر كان قد أصدر أمراً بالانسحاب الفوري إلى الضفة الغربية للقناة.

واصلت القوات الإسرائيلية طيلة السابع من يونيو تطوير هجومها وفي ٨ يونيو قبلت الجمهورية العربية المتحدة عرض مجلس الأمن بوقف النار. غير أن القوات الإسرائيلية ظلت في التاسع من يونيو

تواصل القتال على الضفة الشرقية للقناة. لقد كان الطريق إلى القاهرة مفتوحاً..

نجم موقف عصيب. كان يجرى بموسكو في التاسع من يونيو لقاء قادة الأحزاب الشيوعية والعمالية وكذلك حكومات البلدان الاشتراكية. طالبت البلدان الاشتراكية في بيان صدر لها بهذا الشأن بأن توقف إسرائيل العمليات العسكرية على الفور وبأن تسحب قواتها من الأراضي العربية المحتلة إلى ما وراء خط الهدنة. وتوجهت الحكومات السوفيتية عقب ذلك بنداء إلى الولايات المتحدة الأمريكية تناشدها إرغام إسرائيل على وقف إطلاق النار. واضطرت إسرائيل إلى الاستجابة لذلك.

في اليوم الثالث لوقوع العدوان كتب الصهيوني المعروف جون كيمشي في إحدى الجرائد الإنجليزية يقول أن عبدالناصر يتعرض "لمتاعب شديدة" نظراً لأن القيادة العسكرية تقف منه موقف المعارض. كما أكد كيمشي أن ثمة "انقلاباً عسكرياً ربما يحدث بالقاهرة".

وهاكم ما حدث في الواقع..

في التاسع من يونيو وبالمبنى الجديد لرئاسة الأركان جرى اجتماع لكبار القادة العسكريين. أما في اليوم التالي فقد وصل عبدالناصر إلى المبنى بدعوة من هؤلاء المجتمعين.

__ ما رأى سيادتكم فيما حدث ؟

نَدَّ هذا السؤال عن وزير الحربية بلهجة تتم عن عناد. أجابه عبدالناصر في هدوء.

__ إن الوضع عصيب.

كان الرئيس يعتزم مناقشة الوضع الناجم مع القادة العسكريين. غير
أن شمس بدران عاود السؤال:

_ من المسؤول عن الهزيمة؟

اشتمَّ عبدالناصر نبذة الوقاحة في لهجة الوزير وأن ثمة مخططاً
لدى المجتمعين مما دعاه إلى التساؤل في حذر:

_ هل تظنون أن الوقت مناسب لمناقشة هذا الموضوع؟

أجاب وزير الحربية:

_ طبعاً.

سرعان ما أفصح اللواء جلال عبدالله عن تأييده لوزير الحربية.
كان واضحاً أن كبار القادة بالذات يخشون تحمل المسؤولية
بوصفهم السبب المباشر للهزيمة.

ذكر شمس بدران وهو يرمق عبدالناصر بنظرة معبرة:

_ لكن الرئيس وليس نحن، هو الذي أصدر الأمر.

رد عبدالناصر:

_ حسناً لقد كنت أود الإعلان عن استقالتي غداً لكن ما دمتم تودون
ذلك فإنني سوف أعلنها مساء اليوم.

ظهر عبدالناصر على شاشات التلفزيون تبدو عليه أمارات
المرض والإنهاك.

كم من مرة استمعت مصر فيها إلى هذا الصوت لقد كان يدوى
على الدوام قوياً مفعماً بالحماس يثير إعجاب ذواقه اللغة العربية
ومحبيها. كان يتكلم بلغة رجل الشارع المصري متجاهلاً الكثير من

قواعد اللغة الفصحى ومع ذلك فقد كان يفهمه كل سكان البلدان العربية قاطبةً.

وللحقيقة فقد كان يتحدث فيما سبق عن الانتصارات.. عن انتصار الثورة، عن السد العالي، عن سحق العدوان الثلاثي والقضاء على الإقطاع والبطالة والفقر. كان الكثير من الانتصارات مرتبطاً باسم عبدالناصر وكان الأميون يعيدون بعد سماعهم لخطبه كلمات غير مألوفة لم تتعود آذانهم على سماعها ليدركوا تدريجياً معنى هذه الكلمات: الثورة.. التقدم.. الاشتراكية. الاشتراكية.. ما هي؟ إنها "البيت السعيد"، إنها "العمل المضمون"، إنها العدالة. هكذا كان يشرح عبدالناصر أهداف الثورة لبسطاء المصريين.

أما اليوم فقد كان ينوى الحديث عن موضوع آخر تماماً.

"هذه ساعة للعمل وليست ساعة للحزن.. وهو موقف للمثل العليا وليس لأية أنانيات أو مشاعر فردية.

إن قلبي كله معكم وأريد أن تكون قلوبكم كلها معي وليكن الله معنا جميعاً أملاً في قلوبنا وضياء وهدى".

هكذا ختم عبدالناصر حديثه الذى أدلى به كبطل حقيقي بصوت تنم نبراته عن الإحباط وتناول فيه إنجازات الثورة والضربة الشديدة التي وجهت إليها أخيراً. وقد أعلن عبدالناصر تحمله كل مسؤولية الهزيمة وتناحيه عن منصبه وعن العمل بالسياسة والعودة إلى صفوف الجماهير كواحد منها. كما رشح زكريا محيى الدين لتولى مهام الرئاسة بدلاً منه.

كان كبار القادة العسكريين ما يزالون مجتمعين حين بدأ عبدالناصر حديثه بالتليفزيون. أصابتهم الدهشة حين سمعوا عبدالناصر يعين زكريا محيى الدين خلفاً له إذ كانوا يعتقدون أن عبدالحكيم عامر

هو الذى ينبغى أن يكون رئيساً. غير أن عبدالحكيم عامر وبعد خطاب عبدالناصر رأى ضرورة أن يسلك ذات السلوك بوصفه قائداً عاماً للقوات المسلحة وأعلن عن استقالته بعد بضع دقائق.

لعل التاريخ المصري لم يشهد حالة مماثلة لذلك من قبل؛ فلم يحدث على ما يبدو أن كان لخطاب يلقيه زعيم سياسي مثل ذلك التأثير الصاعق توأماً. ظهر المذيع بعد انتهاء عبدالناصر من خطابه ليتلفظ ببضع كلمات سكن بعدها ثم أجهش بالبكاء. أما بشوارع القاهرة مقيدة الإضاءة. فقد كان الرجال والنساء يذرفون الدمع.

دوت صفارات الإنذار وكأنما تعلن عن غارة جوية في تلك اللحظات. أعقبت ذلك بعض الانفجارات. ظن الناس أن قصفاً إسرائيلياً قد وقع. غير أنه ما من أحد بارح مكانه. حاول كبار القادة العسكريين الذين اجتاحتهم مشاعر القلق تفريق الجماهير بالإعلان عن غارة جوية وهمية. لكن ذلك كله كان سدى. فقد انطلقت الجماهير نحو دار جمال بمنشية البكري على أضواء الصحف التي أشعلتها تهتف باسم زعيمها تطالبه بالعودة.

ظلت العاصفة البشرية تجتاح شوارع القاهرة حتى الصباح. توافدت مئات الألوف من المصريين إلى مبنى مجلس الأمة تردد: "ناصر.. ناصر" وتطالب النواب بعدم قبول تنحيه. كانت الجماهير تموج بكل الشوارع من منشية البكري وحتى وسط المدينة. زحفت الملايين من كل أرجاء البلاد إلى القاهرة واجتاحت موجة المظاهرات كل العواصم العربية تأييداً لبقاء عبدالناصر. وتوجه الطلبة العرب بالخارج إلى السفارات المصرية رافعين صور الزعيم المصري.

توجه زكريا محيى الدين إلى دار الإذاعة والتليفزيون يحمل في جيبه خطاباً أعده مسبقاً. غير أن الحرس هناك لم يسمح له

بالدخول. وهنا اتخذ زكريا قراره. ولم تمض سوى بضع دقائق حتى كان في طريقه إلى منشية البكري. وهناك قال:

__ جمال.. إن لم تسحب استقالتك فسوف أطلق الرصاص على نفسي.. ووضع المسدس أمامه.

وإزاء ذلك بعث عبدالناصر خطاباً إلى مجلس الأمة يقول فيه: "كنت أتمنى لو ساعدتني الأمة على تنفيذ قراري بالتنحي.. ويعلم الله أنني لم أصدر في اتخاذ هذا القرار عن أي سبب غير شعور بالمسؤولية تجاوباً مع ضميري ومع ما أتصور أنه واجبي.. وفي نفس الوقت فإن صوت جماهير شعبنا بالنسبة لي أمر لا يرد.. لذلك فقد استقر رأيي على أن أبقى في مكاني وفي الموقع الذي يريد الشعب مني أن أبقى في مكاني وفي الموقع الذي يريد الشعب مني أن أبقى فيه حتى تنتهي الفترة التي نتمكن فيها جميعاً من أن نزيل آثار العدوان.. والأمر كله بعد هذه الفترة يجب أن يرجع إلى الشعب في استفتاء عام".

سرعان ما طالب الضباط الذين شاركوا في آخر المعارك مع المحتلين حين علموا بما حدث في مقر رئاسة الأركان بتقديم كل من أصر على تنحي عبدالناصر إلى محكمة عسكرية. توجه مائة من قوات الحرس الجمهوري إلى مقر رئاسة الأركان حيث ألقوا القبض على شمس بدران وبعض كبار القادة العسكريين. وللحقيقة فقد نجح البعض في الهرب.

بدا عبدالناصر وكأنما ولد من جديد.. لقد حظى بتأييد الشعب كله. أما عبدالحكيم عامر فكان يعيش مرارة الهزيمة إذ كان يود أن يحظى بنفس المشاعر التي أحاط الشعب بها عبدالناصر. سرعان ما ذاع نبأ سفر القائد العام السابق للقوات المسلحة إلى مسقط رأسه بالصعيد. وقد أدرك عبدالناصر بحكم معرفته الجيدة بصديقه أنه

يعتزم أمراً ما. كان ينبغي على عبدالناصر في تلك الآونة تقرير واحدة من أكثر القضايا تعقيداً كيف يبدأ إعادة الجيش وإرساء النظام بالبلاد؟ لقد كان عبدالناصر يدرك عند تنحيه أن بعض زملائه وعلى رأسهم زكريا محيي الدين يعتبرون أن الهزيمة العسكرية تحتم على الجمهورية العربية المتحدة التقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية. ولذا فلم يعرض عبدالناصر عبثاً مسألة تعيين زكريا محيي الدين خلفاً له. لقد كان الخيار بين أمرين: إما مواصلة النضال وإما التواطؤ مع الولايات المتحدة الأمريكية وهو الأمر الذي يعنى طمس كل إنجازات الثورة. لقد اختار الشعب عبدالناصر وهو ما يعنى أن المصريين يعتزمون مواصلة النضال.

كان الجميع وبطبيعة الحال مسؤولين عن الهزيمة. بيد أن المصريين أدركوا على الفور من هم المتهمون الرئيسيون. إنه سليل كبار الملاك الذي لم يرتدّ زي الضباط إلا من أجل السعي نحو مركز مرموق، إنه المستثمر المستغل الذي لم تطله يد الثورة بعد. إنهم كل هؤلاء الأوغاد عديمي المبادئ الذين لا صلة تربطهم ومصالح البلاد.

أدرك اليأس كثيراً من المصريين الذين اتضحت لهم تدريجياً أبعاد الكارثة. وقد استغل أعداء الثورة ذلك؛ فصاروا يروجون الإشاعات بالبلاد ملقين بتبعة الهزيمة على الاتحاد السوفيتي. ركز الرجعيون كل جهودهم حول تقويض علاقات الصداقة التقليدية بين مصر والاتحاد السوفيتي. بيد أن الفشل كان حليف كل تقديراتهم. ففي العاشر من يونيو تلقى عبدالناصر رسالة من القادة السوفييت يؤكدون فيها للشعب المصري وللرئيس عبدالناصر أن الاتحاد السوفيتي سوف يساعد الجمهورية العربية المتحدة على إعادة بناء

قوتها العسكرية وعلى إزالة آثار العدوان. ولم تمر بضعة أيام حتى كانت المباحثات قد بدأت مع عبدالناصر.

وفي الوقت الذي جرت فيه مناقشة موضوع العدوان الإسرائيلي بالدورة الخاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة سافر الكسي نيكولاي فيتش كوسيجين رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي إلى نيويورك لترأس الوفد السوفيتي بنفسه أثناء اجتماعات الدورة. بدأ عبدالناصر وبما عرف عنه من حمية ونشاط في إعادة بناء القوات المسلحة. اضطر خمسون من كبار القادة والضباط إلى تقديم استقالاتهم من مناصبهم.

في ١١ يونيو طالب كبار القادة إعادة عبدالحكيم عامر إلى منصبه كقائد عام للقوات المسلحة. توجهت ست عربات مدرعة إلى بيت عبدالناصر. غير أن عبدالناصر لم يستجب للتهديد.

كان هذا الحادث بداية الخلاف بين عبدالناصر و عامر. فقد كان عبدالناصر يعتبر أن جهاز قيادة الجيش الذي أغرق في البيروقراطية برئاسة عبدالحكيم عامر لم يستطع تدبير الدفاع عن البلاد.

كان عبدالناصر في كل مرة ينظر فيها إلى ولديه خالد وعبدالحكيم يتذكر تاريخ صداقته مع الرجلين الذين مل ولداه إسميهما. خالد محيي الدين.. لقد ضحى بالصداقة في سبيل المثل التي كان يؤمن بها. وقد أدرك عبدالناصر ذلك جيداً والتمس له العذر. أما اليوم فقد غدا عبدالناصر مضطراً إلى اتخاذ موقف. بلغ عبدالناصر أن بيت عبدالحكيم عامر تحول إلى خلية للمتآمرين. لقد كان يجتمع به كثير من الضباط. حذر الرئيس عبدالحكيم عامر مرتين وطلب منه عدم عقد أية اجتماعات تثير الشبهات.

وشيناً فشيناً بدأت الاجتماعات في بيت عبدالحكيم عامر والتي كان يحضرها بعض المحافظين ووزيرا الحربية والداخلية تثير مخاوف أجهزة الأمن.

غدا معروفاً أن عامر وجه في حديثه مع ضيوفه انتقاداته السافرة إلى الطريق الذي انتهجته الجمهورية العربية المتحدة منذ قيام الثورة. كان اعتراضاته موجهة بالدرجة الأولى إلى التحولات التقدمية. كما كان يطالب بالعمو عن كافة المعتقلين السياسيين (وكانت غالبيتهم من الإخوان المسلمين المعروفين بعدائهم للنظام الثوري) معلناً أن ذلك سوف يساعد على دعم "الوحدة الوطنية".

شهدت البلاد في تلك الفترة نشاطاً كبيراً تركز حول إعادة تنظيم الجيش. وفي ١٩ يونيو أعلن عبدالناصر عن تشكيل حكومة جديدة. وراح في صبر وأناة يوضح للشعب "أن النكسة العسكرية ليست هزيمة بعد". وأن الجمهورية العربية المتحدة لا يجب أن تتخلى عن نهجها السابق.

طرحت شعار "الوحدة الوطنية" الرجعية التي كانت تعتزم استغلال الوضع العصيب للبلاد في هذه الآونة.

في ٢٩ يونيو جرى لقاء بين عبدالناصر وعامر طالب الأخير فيه بالإفراج عن كافة كبار الضباط المعتقلين. وافق الرئيس على ذلك على أمل بلوغ وحدة حقيقية وإرغام عامر على التخلي عن تصرفاته الانفصالية. غير أن الضباط الذين جرى الإفراج عنهم لم يتوجهوا إلى منازلهم بل إلى بيت عبدالحكيم عامر.

اتسمت تصرفات عبدالحكيم عامر بطابع أكثر استفزازاً. لقد راح هو وأنصاره ينشرون بين الضباط قائمة تتضمن الطلبات التالية: حل الاتحاد الاشتراكي العربي؛ الإفراج عن كافة المعتقلين

السياسيين؛ تشكيل حزب سياسي معارض؛ قيام "صحافة حرة" وبناء "الديمقراطية". قام شمس بدران بدوره بتجنيد أنصار له داخل الجيش.

في ٢٦ أغسطس ظن عبدالحكيم عامر أنه من الممكن بعد حصوله على تأييد أربعمائة من جنود المظلات الاستيلاء على مقر قيادة الجيش. كما كان يعتزم بعد ذلك متصوراً أن القوات سوف تعلن عن ولائها له إِملاء شروطه على عبدالناصر.

غير أن الوقت لم يسعف المتآمرين. فقد بلغت عبدالناصر البراهين الدامغة عن نشاطهم الإجرامي. وتم القبض عليهم قبل أربع وعشرين ساعة من الموعد المقرر لعملياتهم. غير أن عبدالناصر أشفق على عبدالحكيم عامر في هذه المرة أيضاً حيث اكتفى "بتحديد إقامته بمنزله". وظهر الكثير من التفاصيل أثناء الاستجوابات. اتضح أن من هم قادة الانقلاب الذي كان يجري الإعداد له شمس بدران الذي ود ترأس الحكومة بنفسه. كما كان بين المتآمرين بعض كبار الضباط الذين هربوا من ساحة المعارك بسيناء.

صرفت مؤامرة العسكريين أنظار عبدالناصر عن المهام الملحة بعض الوقت.

كان العدو على الضفة الشرقية لقناة السويس تلك القناة التي يعتبرها المصريون رمزاً لاستقلال البلاد. كما كان الأعداء ينظرون في غطرسة إلى سوريا من فوق هضبة الجولان. وصار الجنود الإسرائيليون يغسلون ملابسهم في مياه نهر الأردن؛ بينما راح يخفق فوق المسجد الأقصى بالقدس علم نجمة داوود.

ومع ذلك فلم يحقق الأعداء الهدف الرئيسي من عدوانهم؛ حيث ظل العرب شأنهم في السابق يولون ثقتهم بالأنظمة التقدمية التي لم يسقط أي منها. لقد خابت كل تقديرات الإمبرياليين.

كان الشرق الأوسط يغلى من المرارة والسخط. تقرر عقد مؤتمر القمة لرؤساء دول وحكومات البلدان العربية بالخرطوم. تحل عبدالناصر العبء الأكبر من المسؤولية. لقد كان يود بوصفه المُعبّر عن فكرة الوحدة العربية أن تتوحد كل البلاد العربية لمواصلة النضال ضد المعتدى وأن تتفق ليس فقط حول تقديم الدعم المعنوي بل والمادي كذلك إلى البلدان التي تضررت من العدوان.

كانت المعارك ما تزال مستمرة عند بعض القطاعات على قناة السويس. بذل المصريون قصارى جهودهم للاحتفاظ ببعض المنطقة عند مدخل القناة. وهكذا أدرك المجتمعون في الخرطوم أن الجيش المصري ورغماً عن الهزيمة ما يزال شأنه في السابق يعلن عن نفسه.

سرعان ما أسفر المؤتمر عن تيارين أحدهما معتدل وآخر راديكالي. كانت بعض البلدان العربية ذات العلاقة الوثيقة بالولايات المتحدة الأمريكية مثل المملكة العربية السعودية تخشى التضحية بمصالحها الاقتصادية. وهنا لم يتوصل المجتمعون آنذاك إلى اتخاذ قرار يقضى بفرض الحظر على صادرات النفط إلى الدول التي تقدم العون إلى إسرائيل. ولم يصر عبدالناصر على ذلك نظراً لأنه لم يكن يود توتير الموقف في اللحظات التي ينبغي على العرب فيها إظهار وحدتهم. وكان له ما أراد. جرى بلوغ حل وسط مع المملكة العربية السعودية بشأن اليمن. فقد وعد الملك فيصل بالامتناع عن دعم الملكيين اليمنيين نظير جلاء القوات المصرية من اليمن. وكان ذلك سبباً لحل القضية الرئيسية إذ وافقت البلدان المستخرجة للنفط

على تقديم الدعم المالي للبلدان التي وقعت ضحية للعدوان. وقد حصلت الجمهورية العربية المتحدة على ٩٥ مليون جنيه استرليني سنوياً كتعويض عن إغلاق قناة السويس. وهكذا أثبتت نتائج مؤتمر الخرطوم أن البلدان العربية انتهجت طريق النضال ضد المعتدين الإسرائيليين.

وفي ١٣ سبتمبر استدعت المحكمة العسكرية عبدالحكيم عامر للتحقيق.

وتقديراً لما قام به عبدالحكيم عامر في الماضي توجه إلى بيته يحمل تفويض المحكمة الفريق محمد فوزى القائد العام الجديد للقوات المسلحة والفريق عبدالمنعم رياض رئيس الأركان.

رفض عبدالحكيم عامر الإجابة على أي من الأسئلة التي وجهها إليه. اتسم سلوكه بالعصبية. ثمة سبب جعله يتوجه إلى غرفة نومه حيث سرعان ما رجع وصار ينظر من آخر إلى ساعته. لحظ عبدالمنعم رياض حين عاد عبدالحكيم عامر إلى الحديث أنه يمضغ شيئاً ما. بدا على نحو يتسم بالغرابة. ظن عبدالمنعم رياض أن عامر يفقد وعيه ليسأله عن حقيقة الأمر. وهنا أجاب عبدالحكيم عامر بأنه تناول سمّاً.

وبمستشفى القوات المسلحة بالمعادي حيث جرى نقل عبدالحكيم عامر تمت عملية غسل معدته. تحسنت حالته بعد ساعة لينقل إلى فيلا حكومية تحت الحراسة.

استيقظ عبدالحكيم عامر في اليوم التالي متأخراً بعض الشيء. فحصه الأطباء. كان تنفسه طبيعياً. لم يكن يشعر بأية آلام في معدته إلا أنه اشتكى من الإرهاق. ناوله الطبيب أثناء تناول طعام الغداء

كوباً من عصير الجوافة وقرصين من الدواء. خلد عبدالحكيم عامر بعد ذلك إلى النوم.

وفي الساعة السادسة مساءً لحظ الطبيب المناوب أن عامر استيقظ من نومه وتوجه إلى الحمام. هرع أحد الممرضين بعد بضع دقائق ينبئ الطبيب بأن عامر سقط فاقد الوعي. فشلت محاولات إنقاذه. كان قد فارق الحياة حين وصلت سيارة الإسعاف من مستشفى المعادي.

في ١٥ سبتمبر قطعت إذاعة "صوت العرب" برامجها لتعلن انتحار عبدالحكيم عامر القائد العام السابق للقوات المسلحة بتناوله السم. كان عبدالناصر موجوداً بالإسكندرية آنذاك. توجه إلى القاهرة فور علمه بالحادث.

بعد ثلاثة أشهر ونصف الشهر جرى تقديم ٥٥ شخصاً إلى المحاكمة بتهمة الاشتراك في محاولة قلب نظام الحكم في الجمهورية العربية المتحدة بالقوة العسكرية. أزاحت اعترافات المتهمين الستار عن العلاقات التي كانت قائمة بين عبدالناصر والقرييين منه قبل حرب يونيو. فلقد اتضح أن الصفوة العسكرية بزعامة وزير الحربية شمس بدران لم تكن تنصاع لتعليمات عبدالناصر معتبرة نفسها واقعياً فوق القانون. كما كان شمس بدران يقوم في كثير من الأحيان عن عمد بتقديم المعلومات غير الصحيحة إلى عبدالناصر. وعلى سبيل المثال شوه شمس بدران جوهر المباحثات التي دارت مع الزعماء السوفييت إبان زيارته للاتحاد السوفيتي قبيل حرب يونيو في تقريره الذي قدمه إلى عبدالناصر.

كان رئيس الجمهورية العربية المتحدة غير راغب في الانتقام من زملائه القدامى. أصدرت المحكمة العسكرية أحكاماً مخففة. بل

وجرت تبرئة الكثيرين من المحرضين على الانقلاب. غير أنه لم تمر سوى بضعة أيام حتى اجتاحت القاهرة المظاهرات التي تطالب بإعادة النظر في هذه الأحكام. فقد كان الشعب يعلم من هو المسؤول الحقيقي عن الهزيمة. واجتمعت المحكمة العسكرية من جديد لتصدر أحكام الأشغال الشاقة المؤبدة على الرؤوس المدبرة.

وفي ٢١ فبراير ١٩٦٨ خرج سكان حلوان للاشتراك في المظاهرة التي نظمها الاتحاد الاشتراكي العربي. وخرج طلبة جامعة القاهرة في مظاهرة تأييداً لعمال حلوان. وقد كانت جامعة القاهرة معروفة على الدوام بدورها الفعال في تاريخ مصر السياسي. طالب المتظاهرون الحكومة بسرعة إصلاح الأخطاء التي كشفت عنها حرب يونيو وبالتصدي الحاسم للرجعية.

أعاد عبدالناصر تشكيل الحكومة مرة أخرى. فقد انضم إليها أربعة من أساتذة الجامعات كي يحلوا محل العسكريين الذين وكما شعر عبدالناصر فقدوا شعبيتهم.

تحدث عبدالناصر أمام عمال حلوان. وفي لقاء له مع الصحفيين جرى بعد أيام من اجتماع حلوان أكد أن إسرائيل تشن اليوم "حرباً باردة" ضد العرب.

كان من الصعب على أي امرئ أن يجد في تلك الآونة كلمات يمكن أن تفوق في تأثيرها على السامعين كلمات عبدالناصر. فلقد كان الجميع ولا سيما بالداخل على يقين من أن هذا الزعيم يضحى بذاته من أجل المبادئ.

لقد صار يبدو أبعد ما يكون عن ذلك الملازم الفتى "جيمي" الذي كان يتجول مع رفاقه في منطقة "منقباد". أصبحت مشيته المتناقلة مؤشراً للإنهاك الذي يشعر به على الدوام؛ أما خصلات الشعر

الأبيض فكانت تعكس مشاعر المسؤولية إزاء مصير البلاد؛ تلك المشاعر التي لم تفارقه قط.

أدرك الشعب المصري بعد الحرب أكثر من أي وقت مضى قيمة تلك التحولات التي طرأت على البلاد في سنوات ما بعد الثورة. فقد تحركت جماهير الشعب ونشطت الحياة السياسية.

لقد استطاع عبدالناصر الإحساس بنبض البلاد. كانت لقاءاته مع العمال والفلاحين والمتقنين حافزاً على إجراءات أكثر حسماً. وقد طالب عبدالناصر في بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ بدعم دور الاتحاد الاشتراكي العربي بوصفه التنظيم السياسي وأعلن الحرب على البيروقراطية وعن عزمه الأکید على بناء الاشتراكية بالبلاد ودعا إلى الاستفادة من كل موارد الجمهورية العربية المتحدة لتحقيق الهدف المنشود وهو تحرير الأراضي العربية المحتلة.

لقد أكد بيان ٣٠ مارس الدور القيادي للشغيلة في كافة المجالات وكذلك أهمية الاتحادات النقابية. وأشارت هذه الوثيقة إلى ضرورة توطيد وحدة الشعب والجيش وإلى وضع دستور جديد يتمشى ومستوى تطور البلاد.

وهكذا أكد البيان الأفكار التي تضمنها ميثاق العمل الوطني الصادر في مطلع الستينات إلا أنه أشار إليها في المرحلة الحالية مرتبطة بالمهام العصرية المحددة المطروحة أمام الجمهورية العربية المتحدة. فقد حدد البيان على سبيل المثال مفهوم "الوحدة الوطنية".

بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ احتدم النقاش حول هذا المصطلح بحدة بالغة. فقد طالب الجيش بإعادة الممتلكات الموقمة إلى أصحابها السابقين ليكون ذلك سبيلاً إلى تحقيق "الوحدة الوطنية". غير أن عبدالناصر فضح على التو الجوهر الطبقي لأولئك الذين رفعوا

عقيرتهم بهذه النداءات. فقد صدرت هذه المطالب عن الرجعيين الذين يتحدثون من منطلقات استغلالية. وتضمن البيان بكل الوضوح ما يؤكد ضرورة أن يؤول الدور القيادي في موضوع "الوحدة الوطنية" إلى الطبقة العاملة وما يشير إلى أن التنظيم السياسي وهو الاتحاد الاشتراكي العربي يعتبر السبيل إلى ذلك. وفي الثاني من مايو أجرى استفتاء على البيان أسفر عن إقراره. وجرت بعد ذلك الانتخابات إلى المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي الذي بدأ أعماله بعد وقت وجيز. وقد كان عبدالناصر روح كل هذه الأحداث.

شعر الرئيس المصري في صيف ١٩٦٨ بوعكة عزاها الأطباء إلى تفاقم مرض السكر. وبناء على إصرارهم سافر عبدالناصر للعلاج بالاتحاد السوفيتي. فقد كانت قوة إرادته وانصياعه لتعليمات الأطباء موضع دهشة الجميع. إذ قام بمجرد إعلانه بحظر التدخين بتناول علبة السجائر والولاعة من جيبه وأهداهما للمترجم المرافق. غير أنه وعلى الرغم من إصرار الأطباء على ضرورة مواصلة العلاج لم يستطع البقاء خارج البلاد أكثر من شهر. فقد كانت الأوضاع بالبلاد تتطلب وجوده بنفسه.

بدأت المدفعية المصرية اعتباراً من سبتمبر ١٩٦٨ ورداً على استفزازات العدو تدك مواقع الإسرائيليين على الضفة الشرقية للقناة وهو الأمر الذي أصاب "خط بارليف" جيد التشييد على الشاطئ الشرقي بالكثير من الدمار. كان عبدالناصر يكرر على الدوام أن الشعب المصري ليس وحيداً في ساحة النضال بل يقف إلى جانبه الاتحاد السوفيتي وبلدان المنظومة الاشتراكية الأخرى. بيد أن المحتلين ظلوا يواصلون امتحان صبر المصريين. ففي أكتوبر ١٩٦٨ توغلت المدمرة "ايلات" إلى داخل مياه خليج بورسعيد.

صدر الأمر إلى أحد الزوارق الصاروخية بفتح النيران عليها
وبأول صاروخ.. غاصت المدمرة إلى الأعماق.

كان الإسرائيليون يقصفون آنذاك المدن الواقعة على ضفاف قناة
السويس. أصاب القصف معمل تكرير البترول بالسويس. أصدر
عبدالناصر تعليماته بتهجير المدنيين إلى أعماق الجمهورية العربية
المتحدة.

كان إغراق "ايلات" أول نصر يحرزه المصريون بعد حرب يونيو
١٩٦٧. هذا علاوة على أنهم صاروا على يقين من فعالية السلاح
السوفيتي.

غير أن مظاهرات طلابية اندلعت عام ١٩٦٨ حيث تسالت إليها
بعض العناصر الرجعية.

ألقى عبدالناصر خطاباً بالمؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي
وصف فيه المظاهرات الطلابية بأنها "غير مسؤولة". ودعا
الرئيس الطلبة إلى دعم الوحدة الوطنية وحذر من أن الحكومة لن
تسمح بحدوث الاضطرابات.

عاد عبدالناصر إلى منزله بعد الانتهاء من إلقاء خطابه. كان يشعر
بوعكة شديدة وبآلام بفوديه. ارتدى بيجامته واقتعد كرسيًا ووضع
قدميه في طست به ماء حار وملح وتلك "وسيلة قديمة للعلاج"
يعرفها جيداً كل فلاحى بنى مر. قام بعد ذلك بتشغيل جهاز الراديو
الترانزستور. كان يعرف بمنتهى الدقة متى وعلى أي موجة يمكنه
سماع هذه الإذاعة أو تلك. كان المذيعون الواحد تلو الآخر يقرأون
نشرات الأخبار. باريس، لندن، موسكو، بيروت، القاهرة. بدأت
إذاعة أحداث المؤتمر القومي الذى ألقى به خطابه منذ بعض

الزمن. دوى بالغرفة هدير الجماهير المؤلفة: "بالروح.. بالدم..
نفديك يا جمال".

ظل عبدالناصر حتى في تلك الساعات المتأخرة من الليل يواصل
العمل على الرغم من أن جميع أهل البيت عدا ابنته هدى كانوا قد
خلدوا إلى النوم.

غير أنه كان يشعر أحياناً بالإرهاق لدرجة يغدو معها عاجزاً عن
القيام بأي شئ في البيت. كان شأن أي امرئ عادى يتعرض
لمشاعر عدم الارتياح في بعض الأحيان. فقد لبثت الذكريات
تداهمه عبئاً ثقيلاً يجثم على نفسه.

"أيها المواطنون.. غارة جوية.. على الجميع التوجه إلى المخابئ
واتباع التعليمات".

غدت هذه التحذيرات الموجهة عبر مكبرات الصوت من الأمور
المألوفة لسكان المدن الواقعة على ضفاف القناة: بورسعيد وبور
فؤاد والسويس وبور توفيق والإسماعيلية والقنطرة التي كانت
عرضة على الدوام لقصف المدفعية والطيران. غدت جدران
المنازل الآيلة للسقوط تحمل آثار دانات المدفعية وانتشرت الأنقاض
في كل مكان وراحت الريح تصفر بالكنائس التي تمايلت صلبانها
والمساجد التي تهدمت قبابها وتبدت أشجار المانجو والبرتقال
كاليتائم وسط أرض قفرة وتغطت الأرض من حولها بأفرعها
وثمارها التي انتزعتها شظايا القذائف.

كانت أنباء القصف المدفعي المتبادل تبلغ أولاً بأول إلى
عبدالناصر. وكان الرئيس عادةً ما يتفرغ لدراسة هذه الأنباء فور
وصولها. كانت مثل هذه العمليات تجعل العدو في حالة توتر دائم
والجيش المصري مرفوع درجة الاستعداد. كان يدرك مدى الحاجة

الماسة إلى الوقت والعمل حتى يكون الجيش قادراً على تنفيذ المهام الأكثر تعقيداً.

كان قرار مجلس الأمن لدى هيئة الأمم المتحدة الصادر بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ يعتبر أساس التسوية السياسية لقضية الشرق الأوسط حيث تضمن الإشارة إلى ضرورة جلاء القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة. وقد صوت إلى جانب هذا القرار الاتحاد السوفيتي وبلدان أوروبا الشرقية ومعظم البلدان النامية. وكان عبدالناصر منذ ذلك الحين يؤيد كل مبادرة تستهدف تنفيذ هذا القرار.

عين أوثانت الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة الدبلوماسي السويدي جونار يارينج مبعوثاً شخصياً له بالشرق الأوسط. توجه يارينج على وجه السرعة إلى المنطقة وبدأ اتصالاته مع حكومات البلدان العربية وإسرائيل. غير أن إسرائيل لم تكن تود الاعتراف بقرار مجلس الأمن.

بذل القادة الإسرائيليون اعتماداً على دعم الولايات المتحدة الأمريكية كل ما في وسعهم لتجميد وإحباط مهمة يارينج. لم تكن إسرائيل بادئ ذي بدء تود تحرير الأرض التي احتلتها وطالبت بـ "مفاوضات مباشرة" مع البلدان العربية مما يعد انتهاكاً لسيادة هذه البلدان في ظل احتلال بعض أراضيها.

بيد أن عبدالناصر ظل شأنه في السابق يعلق آمالاً كباراً على العمل الدبلوماسي. شهد عام ١٩٦٩ حدثين كان لهما كبير الأثر على تغيير أوضاع الجمهورية العربية المتحدة. ففي مايو ١٩٦٩ وعقب انقلاب عسكري تسلمت السلطة في السودان شخصيات سياسية استطاع عبدالناصر إرساء علاقات جيدة معها. وفي سبتمبر ١٩٦٩ قامت الثورة في ليبيا. وكان قائد هذه الثورة القذافي الذي اشتهر

بالجمهورية العربية المتحدة بوصفه القائد العسكري الذي قام إبان العدوان الإسرائيلي في عام ١٩٦٧ بعبور الحدود الليبية على رأس وحدته بهدف التصدي للعدو. لم يمض سوى القليل حتى اضطر الأمريكيون والإنجليز على وجه السرعة إلى إجلاء قواعدهم من الأرض الليبية تلك القواعد التي كانت تعد خطراً على أمن الجمهورية العربية المتحدة. قام عبدالناصر بزيارة ليبيا لحضور الاحتفالات المكرسة لإجلاء القاعدة الجوية الأمريكية في هويلس فيلد. احتشدت جماهير الليبيين لتحية جمال عبدالناصر.

بدأت الشؤون الداخلية للجمهورية العربية المتحدة في التحسن. ففي يوليو ١٩٦٩ أعلن عبدالناصر أن الميزان التجاري للبلاد قد تحسن تحسناً كبيراً لأول مرة منذ الثلاثينات. كانت الجمهورية العربية المتحدة تقوم بتوريد ثلثي صادراتها الخارجية إلى البلدان الاشتراكية.

عرض عبدالناصر وهو لا يزال بعد يواصل نضاله ضد الاستثمارات الخاصة تسليم ٧٠٠ ألف فدان من الأراضي المستصلحة إلى شركات القطاع العام.

في سبتمبر ١٩٦٩ أصيب عبدالناصر بنوبة قلبية. انتقل للإقامة في استراحة القناطر الخيرية القريبة من القاهرة.

لم يكن الجميع على علم بمدى خطورة مرض عبدالناصر ولذا فقد صار يتردد عليه هناك بالقناطر كثير من الشخصيات الرسمية والوزراء والمسؤولين من الاتحاد الاشتراكي العربي. ظل الرئيس شأنه في السابق على علم بل ما يحدث. بدأت قوات المظلات المصرية إبان تلك الأيام في عملياتها العسكرية داخل الأرض المحتلة بينما راح الطيارون يقومون بأولى طلعاتهم القتالية.

كان مجلس الوزراء يجتمع كل يوم أحد كما كان يحدث في السابق. أما في أيام السبت فكان يجتمع أربعة أو خمسة من الوزراء لمناقشة القضايا الاقتصادية. غير أن عبدالناصر وفي نهاية الأمر لم يتحمل ذلك ليعود إلى القاهرة لمباشرة عمله من جديد.

بات الإسرائيليون يعربون عن نواياهم بشأن الاحتفاظ بالقدس ومرتفعات الجولان وبعض مناطق الضفة الغربية لنهر الأردن وشرم الشيخ والشريط المفضي إلى خليج العقبة في سيناء. كما أعلنوا فيما بعد أنهم لن يتركوا غزة أيضاً.

قررت إسرائيل دعم هذه الادعاءات بالقوة.

وذات صباح من شهر يناير اندفعت طائرات الميراج الإسرائيلية تحلق على ارتفاع منخفض للغاية تلقى بحمها فوق ضواحي القاهرة. هكذا بدأت الغارات الإسرائيلية في أعماق الجمهورية العربية المتحدة.

بدأ الصقور الإسرائيليون يقومون بشكل دوري كل ثلاثة أو أربعة أيام بغاراتهم القرصنية. صار هؤلاء يقصفون ضواحي العاصمة مثل المعادي وحلوان وراحت قوات الإبرار تنزل إلى شواطئ البحر الأحمر وبالقرب من نجع حمادي.

وذات يوم من شهر مارس داهمت الطائرات الإسرائيلية مصنع أبو زعبل لحظة تغيير وردية الصباح. لقي حوالي مائة شخص حتفهم نتيجة هذه الغارات البربرية. بيد أن المصريين ظلوا ثابتي الجنان. بل وارتفعت نسبة إنتاجية العمل بالمؤسسات والمصانع وأعلن عبدالناصر على مشهد من العالم أجمع أن مسؤولية هذه الجريمة لا تقع على إسرائيل وحدها بل وعلى البلدان الإمبريالية التي زودت المعتدى بالطائرات. واصلت إسرائيل استفزازاتها. وكانت هدفاً

لصواريخها هذه المرة المدرسة الابتدائية ببحر البقر التي لم تكن هناك حولها شأن مصنع أبو زعل أية أهداف عسكرية. أدرك عبدالناصر أنه ينبغي على الفور وقف دابر هذه الغارات القرصنية. قام بزيارة الاتحاد السوفيتي. سرعان ما بدأت تتوافد على ميناء الإسكندرية السفن التي تحمل الأسلحة السوفيتية الجديدة اللازمة للدفاع عن البلاد. غير أن إسرائيل ظلت ترفض شأنها في السابق كل المحاولات الرامية إلى حل مشكلة الشرق الأوسط على أساس قرار مجلس الأمن.

لم تسفر رحلات يارينج المتكررة إلى القاهرة وتل أبيب عن أي تأثير كما لم يجرِ التوصل إلى أية نتائج سواء في اللقاء الرباعي بين ممثلي الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وانجلترا أو في اللقاء الثنائي بين ممثلي الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية.

كان لإقامة المنشآت الصاروخية الحديثة الفضل في صد بعض الغارات الإسرائيلية الجوية مما جعل الأمل يتسلل إلى النفوس. إلا أن عبدالناصر كان يدرك أن الحرب الجديدة مقرونة بالضحايا الكبيرة ولذا فلم يكن يود ترك أدنى فرصة لحل الأزمة بالطرق السلمية.

وفي أول مايو ١٩٧٠ وفي شبرا الخيمة إحدى ضواحي القاهرة التي شهدت في الثلاثينات الاحتفالات السرية بعيد العمال أقيم سرادق ضخم احتشدت به مئات الألوف من العمال للاستماع إلى خطاب عبدالناصر بهذه المناسبة.

ألقى عبدالناصر في خطابه تبعة المسؤولية عن دعم المعتدى على عاتق الولايات المتحدة الأمريكية صاحبة السياسة المشبوهة في مسألة الشرق الأوسط بإعلان ما يسمى بمشروع روجرز الذي

ينص على وقف إطلاق النار لمدة تسعين يوماً وعلى بدء المباحثات عن طريق هيئة الأمم المتحدة حول انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة وكذلك عقد معاهدة سلام على أساس اعتراف العرب بإسرائيل وحل القضية الفلسطينية. إلا أن المشروع لم يكن ينص على تحديد خط الحدود الإسرائيلية في المستقبل. وليس غريباً أن يثير مثل هذا المشروع الهلامي الشك والانتقاد. غير أن عبدالناصر كان يعتقد أنا لما كانت هذه المبادرة صادرة عن الولايات المتحدة الأمريكية يكون لزاماً على واشنطن ضمان تنفيذها. ولذا فقد قرر قبول مشروع روجرز وهو الأمر الذي يعكس مرة أخرى الرغبة الخالصة للرئيس المصري في تحقيق السلام.

أعلن عبدالناصر في الجلسة السرية للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي عن ضرورة الموافقة على وقف إطلاق النار. احتد النقاش العاصف. توجه الكثيرون إليه بالأسئلة التي ظل يجيب عليها في صبر.

وأخيراً قام عبدالناصر بقاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة يعلن على الشعب قراره الذي صادقت عليه اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي.

كان قبول مشروع روجرز بالنسبة لعبدالناصر ضرورة حتمية تضمن له التقاط الأنفاس إذ كان قد حذر الزعماء العرب كثيراً من ضرورة عدم تعليق آمال كبار على الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي مطلع أغسطس ١٩٧٠ سكتت المدافع على ضفاف قناة السويس. بدأ يارينج جولة جديدة من المباحثات وفي السادس من سبتمبر قطع الإسرائيليون هذه المباحثات بحجة أن المصريين

وكانما خرقوا اتفاق وقف إطلاق النار بإدخالهم صواريخ جديدة إلى منطقة القناة وكان الاتفاق يقضى بعدم إدخال كل من إسرائيل والجمهورية العربية المتحدة أي عتاد حربي جديد إلى مسافة ٤٠ كيلو متراً على جانبي القناة.

وعلى الرغم من أن المصريين كانوا قد أدخلوا صواريخهم إلى المنطقة قبل سريان مفعول الاتفاق قامت إسرائيل بإصلاح المنشآت التي جرى تدميرها بـ "خط بارليف" على الشاطئ الشرقي للقناة وهكذا لم يحالف النجاح مشروع روجرز.

كان عبدالناصر يعي أن قبول المبادرة الأمريكية يمكن أن يسفر عن صدع الجبهة العربية لكنه كان يدرك بلا شك أن ذلك ينبغي ألا يؤثر على نهج السياسة المستقلة التي اختارته مصر وظل اسم عبدالناصر يحظى بالشعبية الكبيرة.

وقع في صيف ذلك العام بعمان عاصمة الأردن صدام مسلح بين الفدائيين الفلسطينيين ووحدات الجيش الأردني.

عاون رؤساء بعض البلدان العربية بما فيهم عبدالناصر الملك حسن والفلسطينيين على التوصل إلى اتفاق إلا أن الوضع في العاصمة الأردنية ظل غاية في التوتر.

وفي مطلع سبتمبر عقد الاتحاد العام لطلبة فلسطين في عمان لقاء دولياً حول القضية الفلسطينية. وصلت إلى عمان على قدم المساواة مع الشخصيات الاجتماعية المرموقة وبهدف تقديم الدعم إلى الفلسطينيين شخصيات مشبوهة تحمل جوازات سفر بلجيكية وفرنسية وأمريكية قدمت نفسها على أنها "أصدقاء" للعرب بينما كانت تسعى في واقع الأمر إلى صدع الحركة الفلسطينية وتأليب قيادتها ضد الجمهورية العربية المتحدة. قام هؤلاء بمهاجمة

عبدالناصر والسلطات الأردنية بشكل سافر وظهرت شوارع عمان في هذه الأيام وكأنها مقسمة بين الجنود الأردنيين والفدائيين. تعالى تبادل إطلاق النار ليلاً في بعض الأحيان فقد كان كل من الطرفين يحاول استعراض قوته.

وفي السادس من سبتمبر وهو آخر أيام اللقاء تواردت الأنباء الدالة على خطف الفلسطينيين لبعض الطائرات المدنية بالجو. تفاقم الموقف حين جرى إرغام قائد إحدى الطائرات التابعة لشركة "بان امريكان" على التوجه إلى القاهرة. كان المتطرفون يحاولون وضع الجمهورية العربية المتحدة في موقف حرج وتعميق النزاع بين الفدائيين والقادة الأردنيين.

أدانت حكومة الجمهورية العربية المتحدة شأن قيادات معظم البلدان العربية الأخرى الإرهاب وخطف الطائرات المدنية. لعب الدبلوماسيون المصريون دوراً هاماً في الإفراج عن الرهائن. بيد أن جولة جديدة من النزاع الدموي نشبت في الأردن بين الفدائيين والنظام هناك.

وكانت كل هذه الأحداث أينما وقعت سواء على متن طائرة إسرائيلية في لندن أو في شوارع الأردن تزعج على نحو أو آخر عبدالناصر.

في ١٦ سبتمبر وقع الملك حسين والفلسطينيون اتفاقاً إلا أن المعارك اندلعت من جديد بعد بضع ساعات.

كانت الحرب الأهلية بالأردن يمكن أن تسفر عن تدخل الولايات المتحدة الأمريكية أو إسرائيل. جرت مناقشة موضوع التدخل بواشنطن في ٢١ سبتمبر.

توجه عبدالناصر آنذاك برسالة بعث بها إلى ليونيد ايليتش بريجينيف الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وأصدرت الحكومة السوفيتية مرة أخرى بياناً حذرت فيه البلدان الإمبريالية من شن العدوان.

وفي تلك الفترة كان من المفروض أن يبدأ أعماله بالقاهرة مؤتمر القمة العربي. ظلت المدفعية الأردنية ريثما كان الملوك والرؤساء يتوافدون على القاهرة، تقصف قواعد الفلسطينيين ومعسكرات اللاجئين في قلب عمان. ووفقاً لبيانات الفلسطينيين فقد لقي حتفه نتيجة ذلك القصف حوالي عشرين ألف فلسطيني. وأخيراً قرر المؤتمر إيفاد بعثة إلى عمان لإرغام الجانبين على وقف إطلاق النار. وفي ٢٦ سبتمبر جرى التوصل في نهاية الأمر إلى وقف إطلاق النار ودعا كل من الملك حسين وياسر عرفات إلى العاصمة المصرية.

كانت القوات الأردنية تحاصر فصائل الفدائيين ولذا اضطر ياسر عرفات إلى التنكر في زي بدوي حتى يستطيع الوصول إلى الطائرة ولم يمض سوى القليل حتى التقى الخصمان بفندق "هيلتون" حيث كان يعقد المؤتمر. كان كلاهما مسلحاً غير راغب في مبادلة الحديث. وهنا تدخل عبدالناصر مستخدماً سلاح السخرية اللاذعة والمنطق.

راح الملك حسين يؤكد مقدرته على القضاء على الفلسطينيين بسهولة فائقة.

ذكر عبدالناصر نقلاً عن محمد حسنين هيكل الذي حضر المؤتمر: حسناً.. فلنفترض أنك تستطيع ذلك. لكنك وبعد أن فقدت البلاد عشرين أو ثلاثين ألف لن تجد بعد انتهاء الحرب الأهلية من تحكمه سوى ظلال ضالة. هذا بينما راح يؤكد للفلسطينيين:

_ ينبغي ألا تظنوا أنكم قادرون على مواجهة جيش حديث. يجب ألا تتجاوزوا الواقع في تقدير قوتكم. فلتحاولوا أن تجدوا الحل الذي يساعدكم على الصمود والنضال ضد المحتلين الإسرائيليين. غير أن الملك حسين شأن ياسر عرفات لم يكن يتعجل الوئام. كان عرفات يؤكد "أن بحاراً من الدماء تفصل بيننا". بينما ظل الملك حسين يتهم الفلسطينيين بالغدر.

اضطر عبدالناصر إلى استخدام كل نفوذه وهيئته حتى يبعد المباحثات عن نقطة اللاعودة. كان التعب واضحاً عليه آنذاك بعد أن أصابته حالة من الإنهاك العصبي وأرهقته المناقشات الطويلة.

وفي ٢٧ سبتمبر عقدت الجلسة الختامية للمؤتمر. جلس الملك حسين وعدد من رجاله في أحد الأركان بينما جلس عرفات في ركن آخر. كان كل منهما يسيطر على نفسه بالكاد حيث أن المسدس لم يكن يفارق أيّاً منهما.

كتب هيكل في مذكراته يقول أنه عرض على الملك فيصل بلهجة يشوبها المزاح أن يتولى نزع سلاحهما إلا أنه أجاب بنبرة جادة:

_ ليس هناك سوى عبدالناصر الذي يستطيع ذلك.

وبعد ساعتين من النقاش جرت في النهاية محاولة وضع صيغة الاتفاق. عاد عبدالناصر إلى جناحه بالدور الحادي عشر بالفندق. وفي تلك الآونة ورد نبأ عاجل يفيد أن الجيش الأردني استأنف هجومه على الفدائيين في محاولة لطردهم خارج عمان. طلب عبدالناصر حضور عرفات. انتهى المؤتمر أخيراً. لم يشعر عبدالناصر بمدى الإنهاك الذي إلا بعد توقيع الاتفاق بين الملك حسين وياسر عرفات.

نال عبدالناصر في تلك الليلة قسطاً جيداً من النوم. قام طبيبه الخاص الصاوي محمود حبيب بفحصه عند الصباح. كان نبضه طبيعياً. غير أن الرئيس اشتكى من الإنهاك ثانياً بعد الغذاء. أوصى الطبيب عبدالناصر بالراحة إلا أنه لم يستجب للنصيحة فقد كان يود مهما كلفه الأمر أن يكون بنفسه في وداع آخر ضيوفه أمير الكويت الشيخ صباح سالم الصباح.

اقتربت الساعة من الثالثة كان هناك بقاعة كبار الزوار بمطار القاهرة نائب الرئيس أنور السادات وحسين الشافعي وأمير الكويت ووزير دفاع وداخلية الكويت.

وصل عبدالناصر في تمام الثالثة. كان يسير في صعوبة بالغة. بينما علت أمارات الإرهاق وجهه. تبادل التحية مع أمير الكويت. ثم استقر كل منهما في مقعده.

ظن الشيخ صباح سالم الصباح أن ثمة أمراً يقلق عبدالناصر ليتوجه إليه متسائلاً:

__ هل هناك أية أنباء؟

أجاب الرئيس:

__ لا.. ليست هناك أنباء.

__ ألم ترد أخبار من عمان؟

__ ليس بعد.

لبث عبدالناصر يواصل حديثه فيما يغالب بقوة الإرادة تلك الحالة من خوار القوى الذي أصابه. كان يجر قدميه بالكاد حين توجه المودعون إلى سلم الطائرة. وما كاد الضيوف يستقلون الطائرة حتى طلب عبدالناصر عربته.

انطلقت السيارة تحمله إلى منزله. ساعده على ارتداء بيجامته الدكتور الصاوي الذي كان قد استدعى تليفونياً. اشتكى عبدالناصر من دوار شديد برأسه. لزمت الغرفة المجاورة قرينته وأولاده. غير أن عبدالناصر لم يستطع في هذه المرة الخروج إليهم. جرى استدعاء أكبر الإخصائيين على التو لتشكيل كونسولتو. لحق بالأطباء رفاق عبدالناصر.

_ لقد فارق الحياة..

همس أحد الحاضرين:

_ غير معقول.

أجهش الطبيب بالبكاء.

وفي مساء ٢٨ سبتمبر أعلن أنور السادات نائب رئيس الجمهورية نبأ وفاة الإبن البار للشعب المصري جمال عبدالناصر.

وما أن ذاع نبأ وفاة عبدالناصر حتى تدفقت جماهير المصريين من كافة أرجاء القطر على القاهرة سواء سيراً على الأقدام أو على أسطح عربات القطارات المزدحمة بركابها أو بالسيارات. بدت الصورة وكأنما زحف كل سكان البلاد على العاصمة. فقد اكتظت المدينة إلى درجة أن الناس صاروا يقضون الليل على أرصفة الشوارع وفي أفنية المساجد وبأقبية المنازل.

بدأت وفود البلدان الصديقة تصل إلى القاهرة. أعلن المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي أن الاتحاد السوفيتي سوف يظل شأنه في السابق يقدم الدعم إلى الجمهورية العربية المتحدة في نضالها ضد الإمبريالية. قام القادة السوفييت بزيارة سفارة الجمهورية العربية المتحدة لتقديم واجب العزاء.

سافر إلى العاصمة المصرية وفد حكومي سوفيتي برئاسة الكسى نيكولاي فيتش كوسيجين.

وبعد ثلاثة أيام ارتفعت طائرة الهليكوبتر إلى الجو تحمل جثمان عبدالناصر.

لقد راح الرجل الذى أعاد للشعب المصري كرامته يودع القاهرة ونيها العظيم وشوارعها التي اكتظت عن آخرها.

كانت عربات السكك الحديدية المحملة بمعدات المنشآت الجديدة تنساب بمحاذاة الشريط الفضي للنيل الذى يتلوى بين الأراضي العامرة بالخضرة التي جرى انتزاعها من براثن الصحراء.

وبعد بعض الوقت حلقت فيه طائرة الهليكوبتر في سماء القاهرة هبطت قبالة المبنى كان يشغله في وقت ما مجلس قيادة الثورة.

وفي إجلال تم نقل جثمان عبدالناصر في تابوته إلى عربة مدفع..

تحرك الموكب بطيئاً على كوبرى قصر النيل الذى نُكست فوقه أعلام الحداد. اعتلى الصبية والشباب كل أعمدة التلغراف والأشجار على شاطئ النيل. وفي كل مكان أينما يقع البصر كانت هناك الأمواج البشرية المتدفقة تقف حاجزاً أمام كاميرات التليفزيون التي كانت تحاول نقل صورة حية للموكب. كان الجميع يتسابقون للوصول إلى عربة المدفع ولملامسة غطاء التابوت كان الموكب يعجز عن مواصلة السير تحت ضغط الجماهير من أن لآخر.

توقف الموقف أمام المسجد الأبيض المشيد عند مدخل مصر الجديدة. وقف الحرس فارعو القامة على جانبي الطريق الذى حملوا عبره جثمان عبدالناصر إلى داخل المسجد لأداء الصلاة

عليه. وقف شيخ الأزهر يوم الحاضرين. دوت كلماته المفعمة بالحزن في كل أرجاء البلاد. أطلقت المدافع قذائفها وداعاً. حمل رفاق عبدالناصر جثمانه إلى مثواه الأخير.

قطع التليفزيون إرساله وبدأ أعضاء الوفود الأجنبية التي وصلت للمشاركة في مراسم الدفن في الرحيل. غير أن آلاف المصريين ظلوا لا يبارحون أماكنهم بالقرب من مسجد عبدالناصر عدة أيام بأكملها.

وظلت الأعلام منكسة مدة أربعين يوماً.

تسلل ضجيج شوارع القاهرة عبر نوافذ مبنى جريدة "الأهرام" حيث كنت أجلس في حوار مع حاتم صادق زوج ابنة الرئيس عبدالناصر. كانت أوراق الأشجار تبدو لامعة بعد أن غسلتها مياه الأمطار.

كنت أود منذ زمن بعيد معرفة كنه ذلك الأرشيف الخاص بجمال عبدالناصر ولذا فقد تساءلت:

__ هل كان كبيراً ذلك الأرشيف؟

وأجابني حاتم صادق:

__ غاية في الكبر. فقد حفلت غرفة مكتبة بالرسائل والمسودات والكتب والمجلات التي دوّن على هامشها ملاحظاته. كان عبدالناصر من المولعين بالقراءة وكانت ترد إليه شتى المجلات بما فيها المتخصصة والفنية. غير أن الأرشيف وللأسف لم يتناول له أحد بعد بالترتيب والتنظيم.

__ هذا يعنى احتمال وجود وثائق لم يُكشف الستار عنها في أرشيف عبدالناصر؟

رد حاتم:

_ لا أظن ذلك. فلم يكن الرئيس يخفي شيئاً عن الشعب. لقد كان يعلن صراحةً عن أفكاره ومبادئه. وكانت واحداً من هذه المبادئ الصداقة مع الاتحاد السوفيتي التي كان جمال عبدالناصر يقدرها بعمق ويعدها عماد السياسة المصرية.

_ ومتى سوف يحين موعد ترتيب ذلك الأرشيف؟

تساءلت بنبرة عكست فروغ الصبر الذي يتسم به كل الصحفيين.

_ لم يمض على وفاة عبدالناصر إلا القليل ونحن لا نتجاسر بعد على مساس هذا الأرشيف.

حقاً.. فلم يمض من الزمن غير قليل كما أن النقاش حول اسم عبدالناصر لم يهدأ بعد بل على العكس فقد احتدم أكثر. ولذا يكون من الصعب في ظل هذا الوضع كتابة سيرة حياة جمال عبدالناصر. لقد استشهد عبدالناصر كمقاتل، استشهد في أشد اللحظات التاريخية توتراً ومأساوية. مات عبدالناصر في الوقت الذي ظل العدو فيه يواصل تدنيس الأرض العربية التي احتلها وحين بلغت الأحداث الدامية في الأردن ذروتها وهددت بإضاعة كل الجهود التي بذلها عبدالناصر.

كما أنه تصعب كتابة سيرة عبدالناصر لأنه كان حركة فوارة وتطوراً مستمراً. ولم يكن ثمة شيء تيسر له هكذا ببساطة دون صراع. لقد كانت حياته تبدو وكأنما نسيج من النضال والمعارك.

وقد نشرت جامعة أكسفورد إبان حياة عبدالناصر أن عبدالناصر يعد واحداً من أشهر رجالات الدولة في العالم. فحتى عام ١٩٦٨ صدر عنه ٢٨٧ كتاباً بسبع عشرة لغة. كما تضاعف عدد المؤلفات

المكرسة لرئيس الجمهورية العربية المتحدة كثيراً بعد وفاته. ولم يكن مثل هذا الاهتمام الكبير بعبد الناصر مفهوماً لو لم تكن أفكاره التي طرحها ولا تزال بعد وفاته من أهم الإنجازات.

قام المتخصصون في دوائر المخابرات الأمريكية وعلى مدى العديد من السنوات بدراسة حياة جمال عبدالناصر علي نحو يتسم بالدقة، طباعه وخطبه وأسلوبه في الحديث. بل وحتى مشيته البطيئة لم تكن بعيدة عن أنظارهم. وقد راح هؤلاء يتمعنون النظر في صورته ويطلقون الجلوس أمام شاشات السينما يشاهدون المرة تلو الأخرى نفس الأشرطة التي يظهر بها رئيس الجمهورية العربية المتحدة. كما حاول علماء النفس القابعون على مسافة تبلغ آلاف الكيلو مترات التنبؤ بما سوف يفعله جمال عبدالناصر في مثل هذا الموقف أو ذاك. كما كان "فريق العمليات" يعيد المرة بعد الأخرى أداء مختلف أشكال سلوكه وتصرفاته. وعلى مدى سنوات عديدة ومنذ جرى إنشاء هذا "المركز التمثيلي" بناء على تعليمات وزارة الخارجية الأمريكية وعلى نحو يتسم بالسرية الفائقة سعى هؤلاء الناس نحو خلق "النموذج" الذي يمكن أن يسلك نفس سلوك جمال عبدالناصر.

وقد جرى استدعاء خبرة العارفين بالسياسة الدولية والدبلوماسيين ورجال المخابرات للعمل بهذا "المركز" الذي ترد إليه كل ساعة المعلومات الجديدة من وزارة الخارجية الأمريكية والمخابرات المركزية الأمريكية وممثلات الولايات المتحدة الأمريكية بالخارج ليجري تسجيلها على الفور وإعدادها عن طريق العقول الإلكترونية وكان الخبراء ملزمين بالتنبؤ بما سوف يند عن كبار رجال الدولة. كان ثمة "ممثلون" يتخصصون في أداء أدوار كل زعيم. وكان المسؤول عن تأدية دور جمال عبدالناصر في هذه

"المسرحية" مايلز كوبلاند رجل المخابرات الأمريكي المحنك وإن كان مغروراً بعض الشيء والذي عمل لعدة سنوات بالشرق العربي.

وفي السنوات الأخيرة ظهرت الأعمال التي حاول مؤلفوها تطويع تراث عبدالناصر وفق الإطار الذي وضعه كوبلاند.

صار هؤلاء الناس يصورون عبدالناصر "شخصية قوية" على النمط الغربي فيما يودون بذلك التقليل من دوره كزعيم وطني. كما جرى تصوير النضال الدؤوب الذي خاضه عبدالناصر ضد الإمبريالية وكأنما هو لعب على التناقضات بين الدولتين العظميين. ويحاول الرجعيون بكافة السبل تطويع "الناصرية" لخدمة أهدافهم. إذ يدركون أن الانتماء للناصرية يعتبر تجسيداً لوطنية بسطاء الناس. ولقد بات واضحاً بعد العدوان الإسرائيلي في عام ١٩٦٧ أن المصري المحب لعبدالناصر محب بالتالي لوطنه.

قامت وزارة الإعلام بجمهورية مصر العربية حين علمت بأنني أعد هذا الكتاب للطبع بدعوتي لزيارة بنى مر.

وها نحن ندخل بيتاً من بيوت الفلاحين البسيطة المبنية من الطوب الأخضر، ويتحدث عطية عم جمال قائلاً:

_ هنا في هذا البيت كان يعيش أبى الحاج حسين جد رئيسنا.

لم تألف عيناى أشعة الشمس الساطعة عتمة المكان على الفور. بدأت أخيراً أميز حزم الأحطاب التي جرى تخزينها للاستخدام شتاءً وأرى على الحائط صورة لعبدالناصر اقتطعت من جريدة وتركت صفرة لقدم آثارها عليها. كان صرير الباب الخشبي المائل يعلو من آن لآخر حين كان سكان القرية يدلفون إلى الغرفة

مرحبين بالضيوف، وسرعان ما اجتمع عدد كبير من الناس في "دوّار" رحب غاية في السعة. عرض عطية مرافقتي إلى سطح المكان. بدا الرجل في جلابيته الزرقاء الفضفاضة وقوراً في شيء من الصرامة. كانت أمارات الكبر تنعكس في الغضون التي ارتسمت على وجهه بينما كانت يداه كنبتين خشنتين. ومع ذلك فكانت الهيبة والجمال تتجليان في كل سلوك هذا الفلاح.

ابتعدت إلى ركن الغرفة النساء اللواتي كن يجلسن على سطح الفرن. ويشير حسين ابن عطية إلى إحدى الفتيات الشابات قائلاً: _ أختي وابنة عم جمال عبدالناصر.

ثم يمضى في حديثه:

_ وهذه جدته شقيقة الحاج حسين التي يزيد عمرها عن مائة سنة. كانت في حينها تعد الفطائر للصغير جمال.

ويتدخل عطية ليقول:

_ لقد كانت أول مرة نشاهد فيها جمال حين كان عمره ثلاثة أعوام. ولم أكن أكبره آنذاك سوى بستة أعوام. ولذا فقد كلفني الكبار آنذاك برعاية الصبي. ينبغي القول أنه لو لم تكن كل تلك الأعباء التي ألقيت على كاهل جمال لطال عمره كثيراً. إن أفراد أسرتنا يتميزون بالصحة الجيدة. فقد عاش الحاج حسين جد جمال حتى السابعة بعد المائة. وكان قد تزوج للمرة الثالثة في الخامسة والستين من العمر. أما آخر ابنائه طه فقد ظهر إلى الوجود حين بلغ التسعين من العمر. كما أن شقيقي عبدالناصر عاش طويلاً كذلك.

واستطرد عطية في حديثه:

— كانت المرة الأخرى التي شاهدنا جمال فيها حين جاء إلينا ضابطاً شاباً. أما وفيما بعد فقد سمعنا أنه من أعضاء مجلس قيادة الثورة. وقد صحت آنذاك حين سمعت نشرة أخبار بالإذاعة "إنه ابننا جمال". لم يصدق ذلك النبأ أبناء قريتنا الموسرون. وأذكر أن جارنا قال لي: "أو يعقل أن ينحدر مثل هؤلاء الناس من أسرتم الفقيرة". ولم نكن حقاً نستطيع أن نتباهى بثروتنا. إذ أن ثروة الحاج حسين تمثلت في ثلاثة فدادين من الأرض تتباعد أجزاءها هنا وهناك. وهى التي قام بتقسيمها على أولاده. أما أنا فحتى الجزء الذى آل لي سرعان ما ضاع. ولذا راودتني الرغبة في أن أسأل جمال بعد قيام الثورة: ماذا بعد؟ كيف ستكون حياتنا؟ التقيت بابن شقيقي مرتين الأولى في عام ١٩٥٣ والثانية في عام ١٩٥٤ حين كان في زيارة لبنى مر. غير أنني لم أتجاسر على سؤاله لأنه كان برفقة زملائه الضباط. لم أكن أود الإفصاح عن فقرنا أمامهم.

كما أن جمال كان يدرك كل ذلك. وذات مرة وجه أحد رجال الإدارة المحلية الدعوة إليه تناول طعام الغداء. قام بذبح خروف. أجلسنا وأبى بعيداً عن صدر المائدة. ولذا نهض جمال ليقول موضعاً الأمر بنبرة مفعمة بالفخار وعلى نحو لا يسيئ إلى المضيف: "هل تعلمون من أنا؟ إنني حفيد الحاج حسين الفلاح". كانت الرياح الخفيفة تحمل عبق النيل تحمل عبق النيل الأخاذ إلينا. راحت الظلمة تخيم مبكراً على القرية. بدأت الأضواء تظهر تدريجياً بينما تعالت أصوات النساء هنا وهناك يتناوبن فيما بينهن. وظهرت الفتيات عاريات الأقدام يسقن العجول الحدياء من المرعى واعتلى الصبية ظهور الحمير يحملون صرر طعام العشاء إلى

آبائهن في الحقول. فقد كان موسم الحصاد في أوجه. غير أن عطية لم يكن يتعجل الذهاب إلى الحقل.

ويفسر عطية سر عدم تعجله الانصراف بقوله:

__ هل العمل في مساحة فدانين من الأرض يحتاج وقتاً طويلاً.
ويمد يديه بعرضهما قائلاً:

__ ما دمت أملك القوة فإن هذا يعنى أنني سوف أستطيع القيام بالواجب. وقد علمنا أبونا أن " العمل يغنى الإنسان". وهو ما يدركه كل فرد في أسرتنا. ولذا ظللت طيلة حياتي أحلم بالأرض التي يمكنني أن أفلحها.

ويشير عطية إلى الجدار:

__ لقد قمنا جميعاً بتعليق صورة جمال ابننا في أبرز مكان. رحنا جميعاً ننتظر وصول الثورة إلى القرية. كنا جميعاً بأرواحنا إلى جانب ابننا جمال أيام العدوان وتابعنا بكل قلق أبناء بناء السد العالي. كما شهدنا هنا بالقرية التغيرات التي طرأت عليها. فقد وصلت الكهرباء وشيدت المدرسة والمستشفى والجمعية التعاونية الزراعية.

بلغنا نبأ مصادرة أراضي الإقطاعيين في القرى الأخرى وتقسيمها على الآخرين إلا أنه لم يكن ثمة من يمكن مصادرة أراضيه في قرينتنا حيث أن جميع السكان تقريباً كانوا من صغار الفلاحين. وهذا يعنى أننا لم نستفد إلا قليلاً من قانون الإصلاح الزراعي. لدي فدانان أستأجر أحدهما من الدولة والآخر من قريب بعيد أفضل حالاً منا بعض الشيء. وللحقيقة فقد جرى بقرينتنا افتتاح الجمعية التعاونية الزراعية التي تقوم بتسويق محاصيلنا وإمدادنا بالمعدات الزراعية والقروض المالية.

ذات مرة ظهر عند أطراف قرينتا لافنة تشير إلى أن قرية بنى مر
النموذجية سوف تظهر في هذا الموقع. صمم المهندسون
المعماريون كل ما تحتاجه القرية حتى شكل وموقع فيلا رئيس
الجمهورية. غير أن اللافتة ظلت كما هي بأطراف القرية وسط
الحقول حيث يجرى تخزين محصول القطن. أما عن القرية
النموذجية فقد ظلت طي النسيان.

كان جمال عبدالناصر قد ذكر أنه ينبغي أن تصبح نموذجية كل
قرى البلاد البالغ عددها خمسة آلاف، قبل أن "يجيء" دور بنى مر.
تبدت الحسرة والأسف بنبرة عطية إلا أنه فسر ذلك بقوله: لقد كان
جمال يرفض أن يتناقل الناس ما يعنى أنه فضل قرينته على قرى
الآخرين.

خاتمة

من المعروف أن عبدالناصر اعترف في كتابه "فلسفة الثورة" بأن "الضباط الأحرار" لم يكونوا يملكون برنامجاً سياسياً واضحاً لحظة تولى مقاليد السلطة. كانوا قد صاغوا عزمهم على القضاء على السيطرة الأجنبية والنظام الإقطاعي وفساد السياسيين المرتشين في مبادئ ستة أعلنوها برنامجاً لثورة يوليو فيما بعد. وقد كانت هذه المبادئ تنص على القضاء على الاستعمار في مصر وإلغاء الإقطاع وتعسف رأس المال الاحتكاري وضمان العدالة الاجتماعية وإقامة جيش وطني قوى وإرساء ديموقراطية حقيقية بالبلاد. كما جرى تطوير هذه المبادئ في عدد من الوثائق المبرمجة وبالدرجة الأولى في ميثاق العمل الوطني عام ١٩٦٢ الذي حدد الاتجاهات الأساسية للتحويلات الاقتصادية الاجتماعية والسياسية في عهد عبدالناصر. وقد كانت من رصيد ثورة يوليو إجراءات مثل تأميم شركة قناة السويس للملاحة العالمية وغيرها من الممتلكات الأجنبية وإجراءات الإصلاح الزراعي التي قوضت العلاقات الإقطاعية في القرية والملكية الزراعية الكبيرة وحددت بشكل جوهري حجم الملكية المتوسطة. كما عملت الثورة على تحويل مصر إلى دولة عصرية متطورة ذات صناعة متقدمة وزراعة وثقافة ريفيعة المستوى وعلى رفع مستوى معيشة الشعب. وقد جرى تأميم ممتلكات البورجوازية المصرية الكبيرة وكذلك ممتلكات بعض ممثلي البورجوازية المتوسطة حين حاولت هذه البورجوازية عرقلة تنفيذ تلك المهام. وقد أملت منطوية النضال من أجل توطيد الاستقلال السياسي والاقتصادي لمصر وتسخير المصادر لتطوير

اقتصادها بشكل سريع، ضرورة الدعم الشديد لسيطرة الدولة على العمليات الاقتصادية. جرى ضم المؤسسات والبنوك وشركات التأمين المؤممة وكذلك المصانع الجديدة والمحطات الكهربائية إلى القطاع العام الذي صار أساس تنمية البلاد فيما بعد. غير أن القطاع الخاص ظل متسيداً في مجالات الزراعة والخدمات والصناعة الخفيفة.

جرى إبعاد ممثلي الإقطاع والبورجوازية الكبيرة والأحزاب السياسية القديمة عن ساحة العمل السياسي بمصر. وغدا "الاتحاد الاشتراكي" التنظيم السياسي الوحيد بالبلاد.

لم يخلُ تنفيذ برنامج ثورة يوليو من إخفاقات جدية تعود إلى عوامل داخلية وأيضاً خارجية وخاصةً العدوان الإسرائيلي، فقد ظلت تحولات كثيرة في حاجة إلى استكمال واتسمت بعض الإجراءات بطابع فوقى وظهر أثر تجاهل زعماء الثورة لواقع الصراع الطبقي ولم يتلاشَ الصراع بين القادة المصريين حول اختيار الطريق. وكان يحدث أن يوجه نظام عبدالناصر تحت تأثير الرجعيين من القادة ضربات تكون أحياناً في منتهى الحدة إلى ممثلي القوى اليسارية والديموقراطية والتقدمية. بيد أن التطور الارتقائي للثورة وتنفيذ المهام التي وضعتها كانا يتطلبان الاستناد إلى الفئات الشعبية العريضة، إلى الكادحين والمتقنين الطليعيين بالبلاد. كما أن ذلك كان يعنى على صعيد السياسة الخارجية توسيع وتدعيم التعاون مع الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية الأخرى. وقد أصبح التعاون السياسي بين الاتحاد السوفيتي ومصر والذي يتفق ومصالح البلدين أكثر عمقاً وشمولاً. ونشأت علاقة ثقة بين زعماء البلدين الذين كانوا يلتقون على أعلى مستوى بشكل دوري. وترسخت

اتصالات وثيقة بين المنظمات الحكومية والاجتماعية في الاتحاد السوفيتي ومصر.

أكد عبدالناصر مراراً الطابع المبدئي والاستراتيجي للعلاقات المصرية السوفيتية وأشار إلى أنها تعد عاملاً من عوامل خلق الظروف الملائمة لنجاح التقدم على طريق توطيد الاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي. كما أشاد بدعم الاتحاد السوفيتي وبأهمية هذا الدعم في تقرير القضايا الاقتصادية والسياسية التي تواجهها مصر. وقد حظى الشعب المصري طيلة مراحل نضاله من أجل الحرية والاستقلال بالدعم الثابت من قبل الاتحاد السوفيتي.. في عام ١٩٥٦ إبان العدوان الثلاثي ضد مصر وفي عام ١٩٦٧ حين شنت إسرائيل عدوانها ضد مصر وسوريا والأردن وفي عام ١٩٧٣ حين اندلعت الحرب مرة أخرى بين العرب وإسرائيل وكان هذا الدعم يتفق والنهج المبدئي للاتحاد السوفيتي إزاء التعاون مع قوى التحرر الوطني.

ينبغي أن تدافع الثورة عن نفسها بنفسها. لقد قام الاتحاد السوفيتي استجابةً لطلب عبدالناصر بتعويض إعادة بناء القوات المسلحة المصرية وبمساعده تم بعث وتوطيد القدرة العسكرية للبلاد بعد العدوان الإسرائيلي والهزيمة في عام ١٩٦٧. وقد استطاع الجيش المصري في أكتوبر ١٩٧٣ مزوداً بأحدث الأسلحة السوفيتية عبور قناة السويس وتوجيه عدد من الضربات المؤثرة على القوات الإسرائيلية التي كانت تحتل الأراضي المصرية. واستمر تدفق الأسلحة والذخيرة السوفيتية على مصر وسوريا طيلة أيام الحرب.

شمل التعاون المتبادل المنفعة بين مصر والاتحاد السوفيتي المجالات التجارية الاقتصادية والثقافية كذلك. فقد كان يهم قادة ثورة يوليو إنشاء قاعدة اقتصادية قوية وإقامة علاقات اقتصادية

متكافئة مع العالم الخارجي لخدمة التحولات الاجتماعية السياسية الجديدة. وتحققت هذه المهام بنجاح في عهد عبدالناصر. قدم الاتحاد السوفيتي العون لمصر في بناء ١٤٨ مشروعاً في المجالات الأساسية للإنتاج في الطاقة وصناعة المعدات والصناعة الكيماوية والمعادن الحديدية وغير الحديدية. وتمثلت هذه المشروعات بالدرجة الأولى في السد العالي ومجمع الحديد والصلب في حلوان ومجمع الألمونيوم في نجع حمادي. كما تجدر الإشارة إلى أن مصر انتظمت في تسديد القروض التي قدمها الاتحاد السوفيتي لها حتى إبان الفترات العصيبة حتى أوفت اليوم بكل ديونها تقريباً التي استدانها منه لبناء المشاريع الاقتصادية.

تحولت مصر ولأول مرة في تاريخها المعاصر إلى عنصر إيجابي فعال في الساحة الدولية بعد أن كانت مجرد عنصر من عناصر السياسة العالمية. وقد أصبحت الثورة المصرية بضررها المثل للشعوب المضطهدة بشأن قدرتها على التصدي بشكل فعال لسيطرة الإمبريالية علامة هامة على طريق الصحوة الهائلة لحركة التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وفي العالم العربي على وجه الخصوص.

غدا الشعب المصري دافعاً قوياً لعملية التحرر الوطني في البلدان العربية مؤثراً بشكل مباشر وغير مباشر على الأحداث من أمثال حرب التحرر الظاهرة في الجزائر وحصول تونس والمغرب واليمن الجنوبية والسودان على استقلالها والثورة في العراق واليمن والسودان وليبيا والتحويلات التقدمية في سوريا. لقد ظل يُدوي في القاهرة لسنوات طويلة صوت الدعوة إلى النضال ضد الإمبريالية والاضطهاد ومن أجل الحرية والاستقلال وفي سبيل التحولات الاجتماعية. ولقد لعب عبدالناصر شخصياً دوراً فذاً في

خلق واستقرار حركة عدم الانحياز وفي تعبئة البلدان العربية للتصدي لسياسة إسرائيل التوسعية العدوانية. وقد غدا الخط الرامي إلى تلاحم جميع القوى المعادية للإمبريالية جزءاً لا يتجزأ من سياسة مصر في عهد عبدالناصر.

منذ ثلاثين عاماً.. في يوليو ١٩٥٢ قام تنظيم "الضباط الأحرار" بدعمه العناصر الموالية له في الجيش المصري بالإطاحة بنظام الملك فاروق الموالي للإمبريالية والذي بلغ من الفساد أقصى مدى. فارق الحياة كثيرون من قادة "الضباط الأحرار". وفي ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠ توفي جمال عبدالناصر زعيم ثورة يوليو دون منازع ليخرج إلى شوارع القاهرة ما يزيد عن خمسة ملايين يعبرون عن حزنهم العميق.

وفي ٦ أكتوبر ١٩٨١ لقي مصرعه خلفه محمد أنور السادات ذلك الذي ألقى بيان "الضباط الأحرار" الموجه إلى الشعب صبيحة يوم الثورة. لم يخرج لوداعه سوى حوالى ستمائة شخص ساروا في حراسة آلاف الجنود ورجال الشرطة والأمن. فقد التزم الشعب الصمت. ولم يكن ثمة من عبر عن حزنه.

كان يبدو أن زمناً طويلاً قد انقضى مما يتيح فرصة تقييم أحداث ثلاثة عقود على نحو علمي هادئ بعيداً عن الأهواء الجامحة. بيد أن ثورة ٢٣ يوليو ما تزال حتى يومنا هذا عاملاً فعلياً مؤثراً على النضال السياسي في مصر وفي غيرها من البلدان العربية. كما لا يزال الكثير من شعاراتها راية لمختلف التيارات السياسية حتى في ظروف تاريخية متباينة. ولذا فإن دراسة تجربة الثورة الناصرية تظل قضية حيوية على الرغم من انقضاء فترة تربو على ١٢ عاماً منذ وفاة ابن الشعب المصري العظيم.